محاضرات
المسلمون والغزو الصليبي
في العصور الوسطى

الأستاذ الدكتور / علي بن محمد عودة

مركز المروة للخدمات العلمية
العزيزية الشمالية – مدخل جامعة أم القرى الرئيسي
أمام الباب الرئيسي مباشرة

تليفون ٥٥٦٦٩٣٢

المسلمون والحروب الصليبية

تعريف الحروب الصليبية

اختلف المؤرخون المحدثون من الغربيين والشرقيين على حد سواء في تعريف الحروب الصليبية . تبعاً للزوايا التي نظروا إليها منها ، فمنهم من اعتبر أن الحروب الصليبية مجرد حلقات في سلسلة الصراع بين الشرق والغرب ، وشبهوا ذلك الصراع بأنه كالبركان يهدأ حينا ويثور أحياناً أخرى ، من ذلك ما حدث في الزمن القديم عندما قامت الحرب الفارسية اليونانية ، أو الحرب بين الفرس الأخمينيين القدماء وبين الأغريق تلك الحرب التي انتهت بتوحيد بلاد الأغريق على يد فيليب المقدوني ثم ابنه الإسكندر الذي قام وغزا الإمبراطورية الفارسية وقضى على ملكها داراً الثالث وأزالها من الوجود ثم تجدد الصراع مرة أخرى لما قامت أسرة فارسية جديدة استعادت بلاد الفرس وهي أسرة آل ساسان ونشب النزاع فترة طويلة بينها وبين الامبراطورية الرومانية الوثنية ، واستمر الصراع بين الفرس من آل ساسان وبين الرومان حتى بعد اعتناق الأمبراطورية الرومانية للنصرانية ، وكان آخر تلك الحروب هي الحرب الفارسية الرومية التي نشبت قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم واستمرت أكثر من ربع قرن من الزمان والتي أشار إليها القرآن الكريم في سورة الروم ثم يقولون جاءت حلقات آخرى أو ورث المسلمون تراث الشرق ونشب الصراع بينهم وبين الروم وفتحوا بلاد الروم في الشام ومصر وشمال أفريقيا وغيرها ثم بعد ذلك نهضت أوروبا لتدافع عن الغرب في حلقات جديدة ضد الإسلام والمسلمين ، طبعاً هذه النظرة قاصرة ولا يمكن بأي حال التسليم بها .

فالحرب التي نشبت بين الفرس الأخمينين وبين الأغريق كانت حروباً بين أمتين وثنيتين كانتا تتصارعان على النفوذ الهيمنة ، كذلك الحال بالنسبة للحرب بين الفرس بقيادة آل ساسان والامبراطورية الرومانية ، كان كله نزاع على السيطرة والهمينة على

منطقة بلاد الرافدين ، وبلاد الشام وهضبة أرمينيا وهما كانتا الدولتين العظيمتين في العالم ، والحرب الأخيرة بين الروم والفرس ، إذا كان هرقل قد رفع لواء الصليب واستخدم العوامل الدينية للدفاع عن امبراطورية الروم فإن ذلك ليس إلا لحشد القوة المعنوية في مواجهة الفرس .

لكن دوافع وأسباب وفلسفة وما هية الفتوحات الإسلامية تختلف اختلافاً جذرياً عن طبيعة الصراع بين الفرس والأغريق وبين الفرس الساسانين وبين الفرس الروم ، فالفتوحات الإسلامية قامت كما نعرف لإعلاء كلمة الله سبحانه وتعالى وتحطيم العقبات والعوائق التي اعترضت طريق الإسلام في الوصول للشعوب الأخرى ، فالإسلام لم يُفرض بالسيف وإنما كان لابد من بسط السيطرة الإسلامية حتى تصل الدعوة الإسلامية إلى سائر الشعوب ، فالنبي صلى الله عليه وسلم عندما أرسل إلى هرقل والمقوقس وغيرهم من ملوك ذلك العصر ، كان يريد أن يدخلوا في الإسلام فلما اعرضوا عن دعوة الإسلام ، ولم يمنحوا فرصة للدعاة للذهاب إلى بلادهم فشكلوا بذلك عوائق أمام دعوة الإسلام فكان لابد من تحطيم تلك العوائق والعقبات حتى تصل دعوة الإسلام ورسالة الإسلام كما أنزلها الله إلى تلك الشعوب ، وبعد ذلك أصبح لتلك الشعوب حرية الاختيار فمنهم من دخل الإسلام ومنهم من دفع الجزية ونال مقابل ذلك حقوقا كثيرة ، منها بقاءهم على دينهم ،لكنهم لما عرفوا عقيدة الإسلام كما هي دخل الناس من سائر النصارى وغيرهم في دين الله أفواجا فهذا تعريف من تعريفات الحروب الصليبية لكن لا يمكن لنا التسليم به .

هناك تعريف آخر يرى : بأن الحروب الصليبية هي أول تجربة استعمارية أوروبية قامت بها أوروبا خارج بلادها وقالوا كان هذا تمهيدا لحركة الاستعمار في العصور الحديثة ، وهذا أيضا فيه الكثير من المجازفة ولا يمكن التسليم به .

هناك من أعتبر الحرب الصليبية أو الحركة الصليبية أنها مجرد هجرات جديدة في سلسلة الهجرات التي قامت داخل حدود الامبراطورية الرومانية بعد سقوط روما في أيدي الجرمان سنة ٤٧٦م ، ويرى هذا الفريق بأنه عندما سقطت روما ،وكانت تعتبر في نظر العالم الغربي المدينة الخالدة التي لا تسقط وأن سقوطها كان إيذاناً بنهاية العالم وقيام الساعة . فحدثت موجة من الخوف والرعب ، أحدثت هجرات مختلفة داخل حدود الإمبراطورية الرومانية في حوض البحر الأبيض المتوسط ، وهذا تعريف غير معقول لا يمكن القبول به .

وهناك من عرف الحروب الصليبية بأنها وسيلة تحايل بها الغرب الأوروبي للخروج من النظام الاقطاعي إلى حياة جديدة ، وأفق جديد ، ذلك أن المجتمع الغربي عاش في نظام الاقطاع فقالوا إن الحروب الصليبية وسيلة خرج بها المجتمع الغربي عن ذلك النظام أو إحدى وسائل الخروج من ذلك النظام ، فغزا الشرق واتصل بحضارته ، ومن هنا بدأت نهضة في أوروبا عرفت بنهضة القرن الثاني عشر .

وهناك من اعتبر الحروب الصليبية أنها نتيجة عملية الأحياء الديني التي قامت في أوروبا منذ القرن العاشر الميلادي ، الرابع الهجري ، عندما حدث ما عرف في التاريخ باسم حركة الإصلاح " الكيلونية " التي قامت في جنوب فرنسا وترتب عليها إصلاح الجهاز الكنسي بأكمله ، حتى أصبحت الكنيسة أقوى سلطة روحية ودينية في غرب أوروبا وسيطر البابا على قلوب وعقول الناس ، فأصبح لدى الكنيسة قوة معنوية هائلة كان لابد من استنفاذها في طريق جديد هو طريق الحروب الصليبية .

هذه هي تعريفات الحروب الصليبية وقد عرضها الدكتور سعيد عاشور في كتابه وخرج منها بتعريف هو التالي يقول فيه : بأن الحركة الصليبية هي حركة كبرى قام بها الغرب الأوروبي واتخذت شكل هجوم استعماري على بلاد المسلمين بقصد امتلاكها وقد نبعت تلك الحركة عن الأوضاع الدينية والسياسية والاقتصادية

والاجتماعية التي سادت أوروبا في القرن الحادي عشر الميلادي ، واتخذت تلك الحركة من استغاثة المسيحيين في الشرق ستاراً دينياً للتعبير عن نفسها تعبيراً عملياً واسع النطاق .

إذن هي مجمل التعريفات وتعريف الأستاذ سعيد عاشور وهذه التعريفات لا يمكن التسليم بها ، لأنها لا تعبر عن حقيقة الحروب الصليبية ولا تعبر عن وجهة النظر الإسلامية ويجب أن يكون لنا منظور إسلامي من التاريخ وخاصة تاريخ الصراع مع الغرب النصراني ، ففي رأينا أن الحروب الصليبية ليست إلا حلقات في سلسلة الحرب العالمية الأبدية التي شنتها اليهودية والنصرانية على الإسلام منذ ظهوره ، وستظل تلك الحرب قائمة حتى نزول المسيح عيسى بن مريم في آخر الزمان وكسره للصليب وعدم قبوله لغير دين الإسلام .والقرآن الكريم وضّح طبيعة هذا الصراع ، قال تعالى :﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ﴾ وقال تعالى :﴿ ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم وما يضلون إلا أنفسهم ﴾ وقوله تعالى :﴿ ودكثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم ﴾ .

فهذه طبيعة الصراع بين المسلمين وبين العالم النصراني والحقيقة أننا من هذا نستطيع أن نخرج بتعريف يُعبّر عن وجهة النظر الإسلامية ويعبر عن حقيقة الحروب الصليبية وما تولد عنها من نتائج فنقول : الحروب الصليبية ..

" هي حروب دينية عقدية قامت بها أوروبا النصرانية ضد العالم الإسلامي بهدف الاستيلاء على الأماكن المقدسة في بلاد الشام وطرد المسلمين من الأندلس ، ثم اتخذت شكلاً تنصيرياً واسعاً ، وغزوا فكرياً علمانياً شاملاً لتحويل المسلمين عن دينهم وتدمير عقيدتهم "

هذا هو واقع الحروب الصليبية كما حدثت وكما تولد ونتج عنها من نتـــائج عبر القرون ، ولا تزال ذيول الحروب الصليبية قائمة إلى اليوم .

أهمية دراسة الحروب الصليبية :

الحقيقة أن هذه المادة وهذا الموضوع من أهم المواضيع التي يجب علينا دراســته في كل وقت ذلك أن الحروب الصليبية تجربة كبرى من التجارب التي مر بهـــا العـــالم الإسلامي وهي ليست من التجارب المحدودة الأثر ، والنتائج، بل هي تجربة كـــبرى ، ذلك أن هذه الحروب مسئولة إلى حد بعيد عن تدهور العـــالم الإســـلامي ، وذبـــول حضارته بسبب ما استنفذه المسلمون في مواجهة تلك الحروب من طاقات بشـــرية ، ومادية ، بالإضافة إلى أن هذه الحروب لا تزال تلعب دورا مهما في تشـــكيل وتجهـــة النظر الغربية النصرانية إزاء الإسلام والمسلمين ، كما أن التحـــدي الأعظـــم الـــذي يتعرض له العالم الإسلامي اليوم وهو الحركة الصهيونية قد انبعث أيضا عـــن الحروب الصليبية ، لذلك يجب علينا التأمل والنظر في هذه الحروب للخروج بالكثـــير من الدروس التي يمكن بها مواجهة العدوان الغربي الصليبي في العصر الحاضر والخـــروج بنتائج تفيد الإسلام والمسلمين .

جرى الحديث في كتب التاريخ على أن الحروب الصليبية تمتد من سـنة ٤٩٠-٦٩١هـــ بين مجيء الحملة الصليبية الأولى وبين استرداد المسلمين لآخر المناطق الـــتي وقعت في أيدي الصليبين وهي " عكا " عام ٦٩١هـــ ، وهذا هو الـــدور التقليـــدي للحروب الصليبية لكن الحقيقة أن الحروب الصليبية لها جذور أبعد من ذلك ، ظـهرت قبل عام ٤٩٠م ، وقبل مجيء الحروب الصليبية ويتمثل ذلك ما قامت به الإمـــارات النصرانية في شمال الأندلس من حروب ضد المسلمين التي عرفها الغربيون باسم حركـة الاسترداد الأسبانية لطرد المسلمين من الأندلس بالإضافة إلى استيلاء النورمان علـــى المناطق الإسلامية في صقلية وجنوب إيطاليا ، فضلا عما قامت به دولة الروم – الدولة

البيزنيطه – منذ القرن الرابع الهجري عندما انتزعت من المسلمين سائر الثغور الشـلمية والجزرية والأرمنية وانتزعت منهم جزيرة كريت وجزيرة قبرص ، فهذه الجـذور الأولى للحركة الصليبية أو الحروب الصليبية كما أن الحروب الصليبية استمرت قائمة بعـد ذلك بعد استيلاء المسلمين على عكا وسقوطها في أيدي سلاطين المماليك ، ذلـك أن الحروب الصليبية استمرت على مدى قرون ضد المسلمين في حوض البحـر الأبيـض المتوسط فقد قامت زمن الحروب الصليبية مملكة قبرص الصليبية أقامتها أسرة فرنسية ، وهذه المملكة ، ظلت قائمة بعد استرداد المسلمين لعكا وقامت بحملات صليبية كثـيرة تمثلت في الحملات التي قامت بها على سواحل الشام ، ومصر ، سـواء علـى هيئـة هجمات قراصنة أو على هيئة حملات صليبية مثلما قام به ملك قبرص في القرن الثـامن الهجري ضد مدينة انطاليه في جنوب أسيا الصغرى ، وضد الإسكندرية بعـد بضـع سنوات أوماقامت به القوات الفرنسية والإيطالية في شمال أفريقيا ضد مدينـة المهديـة كذلك الحملة التي نهضت بها أوروبا عندما ظهرت الدولة العثمانية وتوغلت في البلقان فقامت تلك الحملة المشهورة التي عرفت باسم " حملة نيقوبولس وحملات كثيرة جـداً ، إلى أن جاءت حركة الاستعمار والكشوف الجغرافية .

واتخذت حركة الاستعمار طابعاً صليبياً واضحاً لذا فـإن امتـداد الحـروب الصليبية لم يقتصر على القرنين التقليديين حيث دارت رحاها على بلاد الشام .

وسوف نقتصر على الحروب الصليبية حتى استرداد المسلمين لعكا، ومـاترتب عليها من نتائج :

جرت العادة في كتب التاريخ بتسمية الحملات أو ترقيمـها بثمـان حمـلات والحقيقة أن هذا خطا شائع في كتب التاريخ ولا نستطيع لـه تفسـيراً ، فـالحروب الصليبية ليست ثمان حملات ، الحقيقة لم يمر عام واحد منذ مجيء الحملة الصليبية الأولى إلا وقد جاءت حملات صليبية ، وجاءت جماعات صليبية محاربة ضد المسلمين .

فمثلاً بين الحملة الأولى سنة ٤٩٠ والحملة الصليبية الثانية سنة ٥٤٢ هذه مدة أكثر من نصف قرن من الزمان وبعد الحملة الصليبية الأولى مباشرة جاءت ثلاث حملات وتم تدميرها على إيدي المسلمين سنة ٤٩٣هـ ثم جاءت بعد ذلك جموع صليبية أخرى ، وجاءت بعد ذلك جموع صليبية أخرى ، وجاء ملك سويدي على رأس حملة صليبية وساهم في استيلاء الصليبين على "صيدا" كان ذلك بعد بضع سنوات،فلم يكن يمر عام واحد إلا وتأتي جموع صليبية لقتال المسلمين والاعتداء عليهم ، علماً أن بعض الحملات التي لم تحظ بأرقام في التاريخ كان لها من النتائج والنجاح الذي حققته لحساب الصليبين أكثر من بعض الحملات التي نالت أرقاماً في كتب التاريخ ، ويمكن أن نشبه الحروب الصليبية مثل أمواج البحر التي تتواصل باستمرار لكن بعض الموجات تكون عالية وشديدة ، فربما بعض الحملات حازت بعض الأرقام أما بسبب النجاح الذي حققته أو بسبب من اشترك فيها من الأمراء والملوك والمشاهير من الأوربيين أو بسبب الوجهة الغربية التي اتجهت إليها ، مثل الحملة الرابعة التي اتجهت إلى القسطنطينية ضد دولة الروم ومثل الحملة الخامسة والسابعة اللتين اتجهتا إلى مصر وليس إلى بلاد الشام .

والحملة الثامنة التي اتجهت إلى تونس ، فلذلك فإن الحروب الصليبية أو الحملات الصليبية ليست ثمان حملات كما هو معروف رغم أن بعض الحملات كانت تستمر بضع سنوات لكن هي في الحقيقة حرب عالمية ، استمرت على مدى قرون كان فيها موجات عالية وموجات عاتيه ، ولذلك يجب التنبيه على الأخطاء الموجودة في كتب التاريخ وتسمية الحملات بثمان حملات فقط .

بواعث وأسباب الحروب الصليبية :

الحقيقة أن هذا الحدث الكبير والعالمي لا يمكن أن يقوم نتيجة دعوة أو استغاثة وإنما لابد أن تتضافر له عوامل مختلفة حتى تبرزه وتخرجه إلى حيز الوجود ، لذلك فإن

الدارس لتاريخ الحروب الصليبية يجد عوامل كثيرة ومختلفة أسهمت في إبـــراز هـــذه الظاهرة التاريخية إلى حيز الوجود ، وإن كان هناك عوامل طاغية ، وعوامل بـــارزة ، وأشهر تلك العوامل والبواعث .

العوامل الدينية :

فالأسباب الدينية هي الأهم ، رغم أن بعض المؤرخين المحدثين يحاولون التقليـــل من أهميتها إلا أننا نركز على أهمية العوامل الدينية في تـــاريخ الحـــروب الصليبيـــة ، والعوامل الدينية مختلفة ومتنوعة ، فلما قامت حركة الفتوح الإسلامية كما هو معروف ، وفتح المسلمون بلاد الشام ، ومصر وشمال أفريقيا وامتدت فتوحـــاتهم إلى أوروبـــا عندما فتحوا الاندلس ، وفتحوا أكبر الجزر في البحر الأبيض المتوسط مـــثـــل قبـرص وصقلية وكريت، وسردينيا ، وجزر البليار ووصل المسلمون في النصـــف الأول مـــن القرن الثالث الهجري إلى إيطاليا ، بل في إحدى الغزوات وصلـــت بعـــض الفـــرق الإسلامية إلى أوروبا وحاصروا الفاتيكان ، ووصلت أيضا فتوحهم إلى جنوب فرنســـا وقام بعض المجاهدين المسلمين وتوغلوا في أوروبا وأقاموا لهم إمارات في جنوب القـــارة الأوروبية مثل إمارة تسمى إمارة " جبل القلال " في جبال الألب بين فرنسا وإيطاليـــا ، فهذا تحدي عظيم بالنسبة للغربيين وبالنسبة للعالم النصراني ، فاعتـــبر رجـــال الديـــن النصارى وخاصة في القسطنطينية وروما وغيرها اعتـــبروا أن الإســـلام انـــتزع مـــن النصرانية بلادا مهمة منها بلاد ترتبط بالمسيحية الأولى فيرون أن بلاد الشام وقد عاش فيـــها المسيح ، الذي يعتقدون أنه الرب وأنه ابن الله ، وهذا من تحريفاتهم الفظيعة ، فيعتبرون أنه في بلاد الشام ولد المسيح وعاش ، وبين مصر والشام تنقلت به والدته مـــريم ، ولا تزال تلك البلاد بها آثار ومزارات يزورها النصارى ويتبركون بها ، مثلمـــا يعتقـــدون فاعتبروا أن الإسلام انتزع من النصرانية بلادا ارتبطت بها أصول المســـيحية الأولى ، فكان من الطبيعي أن يترتب على ذلك أن ينظروا للإسلام نظـــرة غـــير موضوعيـــة

ويكرهونه أشد الكره ويحقدون عليه ، لا سيما رجال الدين ومن هنا بدأت الكنيسة في تشوية الإسلام وفي عكس الصفات التي جاء بها الإسلام ووصفوه بأن دين دموي وأن الإسلام انتشر بحد السيف ، ووصفوا النبي صلى الله عليه وسلم بصفات معاكسة تماما لصفاته صلى الله عليه وسلم ، وأخذت تلك الكتابات تتداول بين الناس مما زرع في نفهوسهم حقدا دفينا وكرها للإسلام ، والمسلمين وظل هذا يتداول في العقول ، وفي العقل الجمعي لتلك الشعوب النصرانية وخاصة الجهاز الكنسي ، ورجال الدين ، وعبر عن نفسه تعبيرا واضحا في الحركة التي قامت بها الدولة البيزنطية ، دولة الروم في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري ، والتي تعتبر مقدمات للحروب الصليبية ،ثم الحرب الصليبية الأولى.

أيضا من العوامل الدينية ، ما حدث من تطور ومن نهوض للكنيسة الكاثوليكية فعندما نستعرض كتب التاريخ نجد أن بابوية روما الكنيسة الغربية في فترة من الفترات وخاصة في القرنين السابع والثامن الميلاديين تعرضت إلى الإنحلال والذبول ، إلا أنه قامت منذ وقت مبكر من القرن الرابع الهجري ، العاشر الميلادي قامت حركة إصلاح في دير في جنوب فرنسا يسمى " دير كلوني " قامت لتلك الحركة وعرفت فيما بعد باسم (حركة الإصلاح الكلونية) وكان الهدف منها إصلاح بعض المفاسد والفضائح والإنحراف الخلقي الذي حدث بين الرهبان وبين رجال الدين ، لكن تلك الحركة لم تلبث أن مست الجهاز الكنسي بأكمله وترتب عليها تقوية الجهاز الكنسي بكامله ، فما أن جاء النصف الثاني من القرن الخامس الهجري – الحادي عشر الميلادي إلا وقد أصبحت البابوية أكبر قوة روحية ومعنوية في غرب أوروبا ، وانتشر عصر عرف باسم " عصور الإيمان " في أوروبا أو عصر الإيمان لكن هذا التمسك بدينهم قائم على أساس باطل ، إذ أن الأساس في النصرانية هو ما حدث من تحريف ، واعتبار المسيح عليه السلام هو ابن الله وأنه إله وإنه من جوهر أبيه بزعمهم ، فبعد ذلك كل الحركات

الإصلاحية التي قامت أنما هي تناولت أمورا أخرى تتعلق بالأخلاق والشعائر، أما الأساس العقدي وهو الشرك بالله وعبادة المسيح من دون الله فقد ظل قائما إلى العصر الحاضر .

على أية حال ، يهمنا من هذا أن الكنيسة الكاثوليكية أصبحت ذات قوة معنوية رهيبة ، رغم أنه لم يكن لها جيش إلا أنه كان لها سيطرة على عقول الناس ، وكان من أشهر أولئك الباباوات البابا "جريجوري السابع " وبعده تلميذه " إيربان الثاني " وهذان البابوان ينتميان إلى أسرة يهودية تسمى أسرة البيرليوني ووصلوا إلى منصب الباباوية ، واستطاع الباب جريجوري السابع أن يصدر عددا من القرارات والمراسيم وضح فيها لأتباعه الكاثوليك النصارى بأن رأس الكنيسة في روما البابا هو خليفة المسيح الرب –بزعمه– في أرضه وأنه من حق البابا أن يعزل الملوك وينصب الأمراء و يتصرف كما يشاء إذ أنه يعبر عن أرادة المسيح ، وفعلا سيطر البابا على عقول وقلوب الناس ، ويتبين لنا ذلك من الصراع الذي نشب بينه وبين الإمبراطور "هنري الرابع" إمبراطور ألمانيا والتي كانت تسمى الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، فأصدر الإمبراطور الألماني " هنري الرابع " مرسوما يقضي فيه بأن تعيين رجال الدين داخل ألمانيا من اختصاص الإمبراطور فغضب البابا جريجوري السابع واعتبر هذا اعتداء على حقوق البابوية وعلى حقوق البابا ، فأصدر ضد هنري الرابع [إمبراطور المانيا] قرار الحرمان أي أنه مقطوع من رحمة الكنيسة ، وهذا يعني من وجهة نظرهم أن مصيره النار وأن هذا محرم عليه الجنة ، إلا أن ترفع عنه الكنيسة قرار الحرمان إذا عاد لصوابه ، لذلك أصبح الإمبراطور محروم من رحمة الكنيسة فقام هنري الرابع في شتاء عام ١٠٧٧م –٤٦٩هـ برحلة من ألمانيا إلى إيطاليا عبر جبال الألب ووصل إلى مقر البابا، ورفض البابا السماح له بالدخول ، فظل الإمبراطور ثلاث أيام خارج الكنيسة وسط المطر والثلج والبرد ، وهو مرتديا ثياب التوبة

المصنوع من الخيش وبعد ثلاثة أيام سمح له الباب بالدخول فانكب يقبل قدمي البابا ويقول له : أغفر لي أيها الأب المقدس ، فرفع البابا عنه قرار الحرمان ، فإذا كانت سيطرة البابا بهذا الشكل على أكبر إمبراطور في الغرب الأوروبي فما أبسط سيطرته على بقية الأمراء والملوك في العالم الأوروبي ، لذلك لا نعجب إذا استطاعت البابوية أن تثير تلك الجموع للاشتراك في الحرب الصليبية الأولى التي اتجهت إلى بلاد المسلمين .

هذه ناحية من النواحي الدينية ، بالإضافة إلى هذا كان البابا في الغرب يرغب في السيطرة على سائر الكنائس العالمية لأن هناك كنيسة خارجة عن سلطه بابا روما وهي الكنيسة الأرثوذكسية في القسطنطينية ، وقد حدث انقسام بين الكنيسة في القسطنطينية والبابا في روما سنة ١٠٥٤م ، ٤٤٥هـ بالإضافة إلى بلاد المسلمين التي تحتضن بعض الكنائس ، مثل الأرمن ومثل الأقباط وغيرهم ، وتلك الكنائس مستقلة ، فكان البابا يريد السيطرة على الكنائس العالمية في العالم كله ليصبح هو رأس الكنيسة العالمية ، وتصبح سيطرته كاملة على الكنائس في جميع أرجاء الأرض ، فهذه هي العوامل الدينية الحقيقة .

أما ما يراه بعض الباحثين الغربيين من أن العوامل الدينية تنحصر فقط فيما زعموه من اضطهاد المسلمين للمسيحيين في بلاد الشام ، فهو زعم باطل لا أساس له من الصحة ، يزعمون بأن الأسباب الدينية تتركز فيما كان يعانية النصارى في بلاد الشام ومصر على أيدي المسلمين ، وأن أولئك النصارى الشرقيين أرسلوا يستغيثون بالغرب الأوروبي ووصلت أنباء وروايات عن ما يعانيه أولئك النصارى من اضطهاد ، فذلك حفز البابا للدعوة للحرب الصليبية وحملتها ضد المسلمين . فهذا زعم باطل عندما نتعرض للتاريخ الإسلامي منذ ظهور الإسلام نجد أهل الذمة من اليهود والنصارى عاشوا بأمن وسلام طيلة عصور الدولة الإسلامية .وهناك من الوثائق النصرانية ما يثبت ذلك ، فعلى سبيل المثال في القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي أرسل بطريك

بيت المقدس رسالة إلى بطريرك القسطنطينية ، يقول فيها " إن المسلمين قوم عادلون وهم لا يكلفوننا أي شيء من العنت " فالوثائق تدل على أن النصارى كانوا يعيشون في أمن وسلام طيلة حكم المسلمين للبلاد ومما يستدل به أولئك المؤرخون المحدثون من اضطهاد حدث على النصارى زمن الخليفة الفاطمي العبيدي الذي عرف باسم الحاكم بأمر الله .

وهذا لا يعتبر دليلا ذلك أن هذا الخليفة كان شاذا متناقضا لا يمثل الإسلام ولا يمت للإسلام بصلة . رغم أنه كان خليفة على مصر والشام وعرف عنه التناقض وكان في بداية حكمه قد قرب النصارى واليهود ويذكر بعض المؤرخين أن امرأة مسلمة مصرية كتبت رقعة وذهبت إلى قصر الخليفة وقذفتها في القصر ، كتبت فيها وكانت مظلومة في بعض القضايا – قالت أسالك بالله الذي أعز اليهود بالوزير يعقوب بن كلس إذا كان وزيرا في عهد الخليفة العبيدي [الحاكم بأمر الله] وأعز النصارى بعيسى بن نسطورس –الوزير – وإذلنا بك إلا نصرتني ورددت على ظلامتي فذلك كان سببا في أنه نكل باليهود والنصارى في بلاد الشام وهدم كنيسة القيامة [كنيسة القمامة] فهذه كلها كانت تصرفات شاذة ، ونادرة من خليفة منحرف عن دين الإسلام ، ومعروف أيضا أنه أدعى الألوهية وكانت نهايته بعد ذلك أنه قتل أو أغتيل ونشأ عنه ما عرف باسم طائفة الدروز وهي طائفة منحرفة لا تمت للإسلام بصلة وهي تعبده من دون الله .

فهذا ليست سياسة إسلامية عامة من خليفة شاذ أما ماحدث بعد ذلك في أطراف الشام من اضطرابات نتيجة غزوات السلاجقة والتركمان فقد أصابت المسلمين والنصارى على حد سواء وحدث اضطراب سياسي في بلاد الشام وحلت كوارث ومجاعات بالمسلمين والنصارى على حد سواء ولذلك لا تصلح هذه أدله على المزاعم التي قيل أن النصارى الشرقيين تعرضوا للإضطهاد من المسلمين .

أما العوامل الاقتصادية والبواعث الاقتصادية للحروب الصليبية :

فهذه العوامل لا يمكن إغفالها بحال من الأحوال لأن الحوادث الكبرى في التاريخ لابد أن يكون لها عوامل مختلفة فعن العوامل الاقتصادية نقول : تذكر مصادر التاريخ الأوروبي والوثائق التي عثر عليها في الأديرة أن غرب أوروبا لا سيما فرنسا شهدت قبيل الحملة الصليبية الأولى موجة من المجاعة حتى أكل الناس الحشائش وحتى مات كثير من الناس من الجوع ، فتلك المجاعات أسهمت في أن كثيرا من الناس ينخرطون في سلك الحملة الصليبية ليس بوحي من دينهم ، وعقولهم ، وإنما بوحي من بطونهم فكثير من الجوعى والمحرومين اشتركوا في الحملة الصليبية لعلهم بذلك يصيبون مغانم ويشعبون بطونهم بالإضافة إلى ذلك هناك المدن التجارية ، فهناك ثلاث دول إيطالية بحرية تعيش على التجارة ، تلك الدول هي البندقية ، وجنوا ، وبيزا ، فكانت هذه المدن مستقلة وكان سكانها يعملون بالتجارة في حوض البحر الأبيض المتوسط وينقلون المتاجر والبضائع من مصر والشام إلى بلاد أوروبا وتحصل مقابل ذلك أرباحا طائلة ، وكان للمدن الثلاث أساطيل تجارية كبيرة ، فلما جاءت الحملة الصليبية الأولى وغيرها من الحملات التالية شاركت تلك الدول بنقل الصليبين وتزويدهم بالمؤن ، والأخشاب وغيرها ، ليس خدمة للصليب وإنما خدمة لمصالحها التجارية ، فحازت مقابل ذلك امتيازات تجارية في البلاد التي احتلها الصليبيون من المسلمين في الشام ، فأصبح لكل من المدن التجارية فنادق وأسواق ومستودعات داخل المدن الصليبية ثم شاركت بعد ذلك مارسيليا لما أصبح لديها أسطول تجاري ورغبت في منافسة المدن الإيطالية الثلاث فاشتركت في الحروب الصليبية ، بدوافع تجارية ومما يدل على ذلك أن البندقية استطاعت أن تحول مجرى الحملة الصليبية الرابعة إلى القسطنطينة بعد أن كان هدف الحملة بلاد الشام ومصر ، حولتها إلى القسطنطينية لما رأت أن مصالحها

التجارية تستدعي أن تستولي على العاصمة القسطنطينية فهذا دليل على دور العوامل الاقتصادية في قيام الحروب الصليبية .

العوامل الاجتماعية :

كان المجتمع الغربي الأوروبي مقسما إلى أقسام طبقية رئيسية حيث كان هناك ثلاث طبقات معروفة هي :

أولا : طبقة الأمراء :

وعلى رأسهم طبقة الملوك .

ثانيا : طبقة رجال الدين .

ثالثا : طبقة الفلاحين : وكانوا يشكلون العدد الأكبر في الدول الأوروبية وكانوا يقومون على خدمة الطبقتين الأوليتين .

أما عن طبقة الإمراء :

هم الذين من أسر نبيلة وهؤلاء شكلوا طبقة كبيرة في المجتمع الغربي ، فعندما يموت الأمير يخلف وراءه عددا من الأبناء يحملون بعده لقب أمير ، وكان الذي يرث الأقطاع هو ابنه الأكبر ، وأفراد هذه الطبقة يتدربون على السلاح وعلى ركوب الخيل وامتلاك الأسلحة وليس لهم ضياع ، و لا ممتلكات في أوروبا .

أما عن طبقة رجال الدين :

فكانت الكنيسة في أوروبا تملك أجزاء واسعة من أراضي أوروبا ونتيجة لقوة البابوية التي ظهرت نتيجة حركة الإصلاح الكلونيه ، زورت وثيقة عرفت باسم هبه قسطنطين وهي تزعم أن الامبراطور الروماني قسطنطين ومنح جميع أراضي الغرب الأوروبي هبة ومنحة للكنيسة الكاثوليكية هذه الوثيقة أصبح البابوات في أوروبا

يسيطرون بموجبها على الإراضي والضياع في غـــرب أوروبـــا فـــأصبح للكنيســـة الكاثوليكية من الموارد الهائلة ما تستطيع أن تمون به أعدادا كبيرة من الجيوش .

أما معظم الفلاحين وعامة الناس فهم الذين يعملون في الأرض الـــتي يملكـــها الأمراء الإقطاعيين والكنيسة فكانوا عبيد الأرض ، ولا كان يحق لهم امتلاك شـيء وإلا يعاقب في محاكم السيد الإقطاعي .

فكان الفلاح في غرب أوروبا يعيش عيشه من الفقر والذل والهوان ، لذلك لمـا جاءت الدعوة للحرب الصليبية عند ذلك انخرط كثير من الأقنان والعبيد ، والمعدمـين والذين عاشوا طيلة قرون في ذلك الهوان في تلك الحروب الصليبية ، بالإضافة لهـــذا فإن النظام الاقطاعي بسبب تقاليد اجتماعية معينة جعلت الاقطاع لا يرثـــه إلا ابـــن الأمير الأكبر بعد موته ، أما بقية الأبناء فلا يرثون شيئا إلا أنهم بـــالرغم مـــن ذلـــك أمراء فأساسهم أبناء أمير فيرثون لقب أمير أو فارس لكنهم بدون مال لذلك يعيشون علـــى النهب والسلب وتشكيل عصابات والإغارة على مناطق مختلفة للحصول على الأموال أو الزواج من أميرة اقطاعية للحصول على الاقطاع .

وهؤلاء كانوا محاربين بطبيعتهم إذا أنهم يتعلمون الفروسية وركـــوب الخيـــل والتدريب على السلاح منذ الصغر لذلك لما جاءت الدعوة للحرب الصليبية اشـــترك كثير من أولئك الأمراء والفرسان فيها ، ليس بدوافع دينية بحته وإنما للتخلص من حياة الحرمان فيذهب الواحد منهم للشرق لعله يتولى أمارة أو يصبح له إقطاع .

العوامل السياسية :

ذلك أن العوامل السياسية أسهمت إلى حد بعيد أيضا أو كانت رافـــدا مـــن عوامل كثيرة أسهمت في الحروب الصليبية ، ذلك أن كثيرا من الإمـــراء والملـــوك لم يشتركوا في الحروب الصليبية بدوافع دينية وإنما لضغوط من البابوية فمثـــال ذلـــك "

فردريك الثاني " الذي جاء بحملته الصليبية السادسة وكان قد وعد منذ وقت مبكر زمن الحملة الخامسة بأن يقوم بحملة صليبية وبعد ذلك تقاعس وتعذر بأعذار مختلفة وظل يسوف ويتقاعس حتى أصدر البابا ضده قرار الحرمان ولم يستطع أن يرفع هذا القرار عنه إلا بأن يأتي في حملة صليبية ، وهي الحملة السادسة لذلك قام بالحملة واستطاع بذلك أن يرفع عنه قرار الحرمان ، بالإضافة إلى أن بعض الأمراء اشتركوا في الحملات الصليبية بتشجيع من الملوك ، لأن الأمراء كان يسببون للملوك كثيراً من المتاعب فكانوا يريدون التخلص من هؤلاء الأمراء .

وكذلك كان من الأمور المسببة في انخراط الأمراء في تلك الحملات أنهم كانوا طبقة كبيرة يجيدون فن الفروسية فهؤلاء شكلوا أخطاراً على المجتمع الغربي وصاروا يهاجمون ويقتلون ويسلبون ويقطعون الطرق ويقومون بأعمال القرصنة والسلب والنهب لذلك جعلت البابوية فترة من السنة سمتها " هدنة الله " يتوقف فيها القتال ويحرم فلما جاءت الدعوة إلى الحملة الصليبية وجدوا فيها مجالاً لإشباع رغباتهم في القتال فاشتركوا في الحملات الصليبية الذاهبة إلى الشرق .

إذن هذه هي العوامل والدوافع التي أدت مجتمعة إلى قيام الحروب الصليبية .

أحوال المشرق الإسلامي قبيل الحرب الصليبية الأولى :

لما جاء رجال الحملة الصليبية الأولى وجدوا أمامهم أمة مفككه وممزقة من المسلمين ، وهذا ساعد على نجاح الحملة الصليبية الأولى ،وساعد على نجاح المشروع الصليبي في الاستيلاء على أماكن مختلفة من بلاد الشام .

وإذا لقينا نظرة مجملة على أحوال العالم الإسلامي قبل الغزو الصليبي ، ونظرنا قبل حوالي قرنين من الزمان نجد أنه في نهاية الثلاثة قرون المفضله التي أشار إليها النبي صلى الله عليه وسلم " خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذي يلونهم" ، بعد ذهاب هذه القرون بدأت الانحرافات العقدية تظهر في الدولة الإسلامية فظهرت موجات من

التصوف ، ثم ظهرت حركات القرامطة والحركات المنحرفة الكثيرة ، بالإضافة إلى أن الخلافة العباسية ضعفت منذ نهاية العصر العباسي الأول ودخلت في مرحلة الضعف ووقعت تحت سيطرة الأتراك وبعدهم وقعت تحت سيطرة البويهيين ، وهم أسرة فارسية شيعية بالإضافة إلى القرامطة .

والقرامطة ظهروا منذ أواخر القرن الثالث الهجري واستطاعوا أن يكوّنوا لهم دولة في شرق الجزيرة العربية وكانوا يدينون بالمذهب الاسماعيلي الشيعي ، وكانوا تابعين للدولة الفاطمية العبيدية في تونس الحالية ، واستطاع القرامطة استغلال ضعف الخلافة العباسية فهاجموا جنوب العراق ، وبلاد الشام ، ومكة المكرمة ، ٣١٧هـ وأغاروا على مناطق واسعة من الشام ، وكانت في الشام ، ومصر الدولة الأخشيدية التي لم تستطع أن تواجههم ، فاضطر الاخشيديون بأن يدفعوا جزية سنوية للقرامطة بلغت ٣٠٠,٠٠٠ ديناره في هذا الوقت [وقت التدهور في العالم الإسلامي] قامت الدولة الفاطمية في شمال أفريقيا قبل أن تستولى على مصر ، وحاولت كثيراً إلى أن استولت على مصر فلما قامت الدولة الفاطمية في شمال أفريقيا أثرت على كثير من القبائل البربرية ، مثل قبيلة مصمودة ، وكتامة وغيرها ، فانقلبت تكل القبائل البربرية المسلمة التي كانت في محل رباط وجهاد في جنوب القارة الأوروبية لتنقلب مغيره ومحاربه على البلاد الإسلامية في الشام ومصر وترتب على قيام الدولة الفاطمية في شمال أفريقية ، أن حدث أن ثار المسلمون في صقلية ضد الحاكم الفاطمي وتمردوا على الولاة الفاطميين مما جعل الكثير من الولاة ينكلون بالمسلمين في صقلية ويقتلون عدداً كبيراً منهم أيضاً هدموا أسوار القلاع والمدن ، مما جعل كثيراً المسلمين في صقلية يفرون إما إلى بلاد الشام أو مصر أو إلى بعض البلاد النصرانية وبالطبع هذاأضعف المسلمين في صقيلة وجنوب إيطاليا ، الأمر الذي مهد السبيل فيما بعد في القرن الخامس الهجري للنورمان القادمين من غرب وشمال أوروبا للإستيلاء على صقلية وجنوب إيطاليا وأقام النورمان دولة نورمانية ، كان لها دور كبير في الحملة الصليبية الأولى وفي الحملات التالية . بعد ذلك جاءت الدولة الفاطمية لتستولي على مصر كما هو معروف عام ٣٥٨هـ وكأن الفاطميون الشيعة كانوا على موعد مع الدولة

البيزنطية [دولة الروم] للإطباق على العالم الإسلامي في المشرق وتطويقه من الشمال والغرب للإنقضاض عليه .ففي هذا الوقت الذي كانت فيه الدولة الفاطمية تهاجم مصر من الغرب كانت دولة الروم قد بدأت في حالة صحوة ونهوض ، زمن الأسرة المقدونية فبدأت في الإغارة على الثغور الشامية والجزرية ، والأرمنية ، فقد قام القائد البيزنطي (حنا كوركواز) وشن وغاراته ثم ماحدث زمن الإمبراطور (نيقفور فوكاس) الذي انتزع من المسلمين جزيرة (قبرص) وجزيرة (كريت) ثم توغل في حملاته التي اتخذت طابعا صليبيا إلى الثغور الشامية فحاصر المصيصة واستولى عليها عام ٣٥٣هـ ثم حاصر طرسوس عاصمة الثغور الشامية ، واستولى عليها قهرا عام ٣٥٤هـ ، وعندما دخل (طرسوس) التي كانت قاعدة متقدمة للمسلمين خلال القرون السابقة ورابط فيها الكثير من العلماء أمثال (عبد الله بن أحمد بن حنبل) ووالده أحمد بن حنبل وعبد الله بن المبارك وغيرهم واشتهرت هذه المدينة بأنها عروس الثغور الشامية ، فهذه المدينة سقطت بسبب الانحرافات التي حدثت داخل البلاد الإسلامية عام ٣٥٤هـ ، عندما دخلها نيقفور فوكاس بجيشه ودخل مع قادته إلى جامع (طرسوس) ذلك الجامع الذي طالما عقدت فيه الاجتماعات لجهاد الروم وصعد على منبر جامع طرسوس وقال :يامعشر الروم أين أنا ؟ قالوا : أنت على منبر طرسوس قال بل أنا على منبر بيت المقدس ، فإن هذه كانت تمنعكم عن تلك ثم تمكن من الاستيلاء على انطاكية عام ٣٥٨هـ ثم اخضع حلب عام ٣٥٩هـ ، وشن غارات في أعالي الجزيرة وفي أعالي نهر الفرات ، ودجلة ، وأرسل إلى الخليفة العباسي ، في بغداد ينذره بأنه يجب على المسلمين الأنسحاب من بلاد الشام والعودة للجزيرة العربية وتسليم بيت المقدس ، لأنه في زعمه أن هذه البلاد كانت أصلا للنصارى ، ويجب أن تعود إليهم ، بل هدد الخليفة العباسي بأنه سيذهب إلى مكة ليهدم الكعبة ويقيم عليها عرش المسيح حسب زعمه ، وجاء بعده الامبراطور (حنا تيزيمسكس) الذي واصل الغارات في بلاد الشام واستولى على اللاذقية واخضع دمشق وغيرها ،فأصبحت

الجيوش البيزنطية في النصف الثاني من الرابع الهجري /العاشر الميلادي ، تتوغل في بلاد الشام وفي شمال العراق وفي أرمينية ولا يستطيع أحد من المسلمين أن يصدها ، بالإضافة إلى هذا فإن الدولة الفاطمية حاولت أن تسيطر على الشام وأصطدمت في بلاد الشام بعدد من القوى ، ودرات بينها وبين تلك القوى حروب استنزفت كثير من الطاقات البشرية ، والمادية ،فواجه الفاطميون في بلاد الشام القرامطة حيث استولوا على دمشق فلما استولى الفاطميون على دمشق ثار عليهم القرامطة ، ودخلوا في حرب معهم ، والسبب أن القرامطة كانوا يحصلون من الأخشيدين على إتاوة سنوية مقدارها ثلاثمائه ألف دينار انقطعت لما سقطت دولة الأخشيدين ، عند ذلك قام القرمطي وهاجم بلاد الشام واستولى عليها وحاصر جوهر الصقلي في عسقلان ، وهو القائد الفاطمي ، وتحالف مع القرمطي قائد تركي في دمشق ، ولم يسمح للجيش الفاطمي بالخروج من عسقلان ، إلا بعد أن وضع سيفه على باب عسقلان وخرج جوهر الصقلي من تحته ذليلاً ، وانسحب الجيش الفاطمي من الشام إلى مصر ، بعد ذلك اصطلح الفاطميون والقرامطة لكن واجه الفلطميون في بلاد الشام قوة أخرى وقفت أمامهم ، لصد الفاطميين عن الاستيلاء على الشام وتلك القوة هي قبائل الشام الرئيسية كلاب في الشمال وقبيلة كلب في الوسط وقبيلة طي في الجنوب فتحالفوا ضد الفاطميين وحشد الفاطميون قبائل البربر وجهزوا جيشاً إلى الشام بقيادة أحد قادتهم فجاء إلى الشام وبعد معركة شديدة بين القبائل العربية الشامية وبين الفاطميين عام ٤٢٠هـ عرفت باسم معركة (الأقحوانة) وفيها انتصرت الدولة الفاطمية انتصاراً كبيراً واستطاعت السيطرة على معظم بلاد الشام . خلال ذلك تطلعت الدولة الفاطمية إلى السيطرة على كل بلاد الشام لذلك دخلت في صراع الدولة البيزنطية ثم تطلع الفاطميون إلى إزالة الخلافة العباسية من الوجود ، وقام بهذه العملية (هبة الله الشيرازي) واستطاع أن يستميل إليه أحد القادة العباسيين وهو أبو الحرث البساسيري وهذا القائد زاد نفوذه في بغداد ، واعتنق المذهب الشيعي

الاسماعيلي الفاطمي وبدا وكأن الخلافة العباسية في طريقها إلى الزوال ،والإندثار ولولا أن الله تعالى قيض لها ظهور دولة السلاجقة ذلك أنه بسبب الانحراف الذي ظهر في الدولة الإسلامية وانتشار المذاهب الشيعة المختلفة ، وانتشار التصوف وأيضاً الإنحرافات العقدية ، وأيضاً فشل المسلمين في حمل رايه الجهاد هناك تحدث السنة الربانية ، قال الله تعالى ﴿ وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾ .

فقد قال بعض العلماء المسلمين في مؤلفاتهم أنه في سنة ٣٤٩هـ دخل في الإسلام من الترك مائتي ألف خيمة ويعني بالخيمة الأسر التي تعيش في الخيمة الواحدة وبعض الخيام كان يعيش في الواحدة ٣٠ نسمة أي ٢ مليون نسمة تقريباً من الأمة التركية دخلوا الإسلام ، وذلك في منتصف القرن الرابع الهجري ، ترتب على دخول الترك في الإسلام ظهور دولة السلاجقة ، وكان من أشهر سلاطينها سلطانها (طغرل بك) الذي استنجد به الخليفة العباسي (القائم بأمر الله) فجاء إلى بغداد عام ٤٤٧هـ وقضى على (البويهيين) ولكن حدث تمرد من أخيه لأمه (إبراهيم) فعلد (طغرل بك) للقضاء على هذا التمرد ، فاستغل الفاطميون ذلك فساعدوا (أبا الحرث البساسيري) الذي هاجم بغداد وأسر الخلفية العباسي (القائم بأمر الله) واعتقله في أحد القلاع على نهر دجلة وظل معتقلا لمدة سنة . وأصبح الفاطميون الشيعة يسيطرون على بغداد والقاهرة وبدا وكأن الخلافة العباسية زالت من الوجود.

لكن السلطان (طغرل بك) عاد مسرعا إلى بغداد ولحق بالبساسيري واشتبك معه في معركة وقتله وأرسل فرقة للإفراج عن الخليفة العباسي ، وأعاده إلى بغداد معززا مكرما .

مات السلطان طغرل بك عام ٤٥٥هـ فخلفة ابن أخيه السلطان (ألب ارسلان) الذي استطاع أن يحافظ على وحدة الدولة السلجوقيه ، بل انه أراد أن يقضي على الخلافة الفاطمية في مصر ، ذلك أنه في مصر حدثت أزمه اقتصادية شديدة

هذه الأزمة عُرفت باسم (الشدة المستنصرية) استمرت من عام ٤٥٦ إلى عام ٤٦٣ بسبب انخفاض النيل فتلك الشدة ترتب عليها انتشار المجاعة في مصر فحدثت (الشدة المستنصرية) وهي شبيهة (بسنين يوسف السبع) فترتب على ذلك انتشار الجوع في مصر حتى أكل الناس الكلاب والقطط بل أكلوا لحوم البشر ، فترتب على ذلك أن الجيش الفاطمي نفسه لم يصبح يستلم رواتب وشعر بالجوع والقحط فثار أحد القادة الفاطميين ضد الخليفة المستنصر فأرسل يستنجد بالسلطان (ألب أرسلان) ويدعوه للقدوم إلى مصر للقضاء على الخليفة الفاطمي ووعده أن يساعده على أن يوليه مصر ، ووصلت تلك الدعوة للسلطان ، فتجهز من الري وجاء لتلبية هذه الدعوة فعبر من خلال نهري دجلة والفرات ووصل إلى حلب ، وأخذ يحاصر حلب للاستيلاء عليها من (المرادسيين) وأثناء حصاره لحلب ، حدثت معركة بينه وبين الروم لم تكن في الحسبان، فجهز إمبراطور الروم جيشه للخروج والقضاء على دولة السلاجقة والسبب أن دولة السلاجقة لما قامت قام اتباعها من التركمان بحملات ضد بلادة فأراد الامبراطور حماية بلاده ورأي أنه لا سبيل لذلك إلا بالقضاء على دولة السلاجقة فجهزا جيشا كبيرا يريد أن يدخل قلب دولة السلاجقة ، فلما علم بذلك السلطان عاد مسرعا دون أن يذهب إلى مصر لمواجهة خطر الروم ، فأرسل إلى الإمبراطور الروماني لأنه لم يكن في ذهنه أن يواجه الروم في ذلك الحين ، فأرسل يطلب الهدنه ، ووقف الحرب ، فرد عليه الامبراطور لا هدنه إلا بالري ، وهي الآن إحدى القرى ناحية طهران وكانت عاصمة السلاجقة فعند ذلك لم يجد السلطان [الب إرسلان] مفرا من القتال ، ولم يكن معه من الجيش إلا عدد يقل كثيرا عن جيش الروم ، ورأي بأن الروم يتميزون بعدد كبير يفوق المئتي ألف بينا هو لا يصل جيشه إلى ربع هذا العدد ، وقرر خوض المعركة واستحث السلطان (الب أرسلان) جنوده على الصمود وقرروا الاستشهاد وفي سبيل الله حتى سمى أحد المؤرخين هذا الجيش (بالجيش المكفن) لأن السلطان ألب أرسلان قبل خوض المعركة دخل إلى

خيمته واغتسل وتحنط ولبس البياض وخرج وخاطب جنوده فقال : إن قتلت فهذا كفني عند ذلك فعل جيشه مثله ولبسوا البياض ودخلوا المعركة عازمين على الاستشهاد في سبيل الله .

في يوم الجمعة ٢٥ ذي القعدة ٤٦٣هـ / ٩ أغسطس ١٠٧١م

فعند ذلك جاء الجيش الرومي والتقى به السلطان وجيشه واستطاع أن يخفي من جيشه فرقاً صغيره خلف التلال المحيطة بساحة المعركة ، واشتبك معهم ، وعندما قامت المعركة انقضت تلك الفرق على الروم في هجمات ساحقة بالسهام ، وكان الجيش الرومي بطيء الحركة بسبب كثرته وكثرة عتاده ، وتمكن السلاجقة المسلمون من إبادة معظم جيش الروم ووقع الامبراطور (رومانوس الرابع) في الأسر وهو أول امبراطور يأسره المسلمون خلال صراعهم الطويل مع دولة الروم وهذه المعركة من المعارك الحاسمة في تاريخ العالمين العالم الإسلامي والنصراني . فهذه المعركة شبيهة بمعركة اليرموك فإذا كانت معركة اليرموك قررت مصير بلاد الشام فإن معركة (ملازكرد) قررت مصير بلاد الروم التي في أسيا الصغرى التي هي تركيا حالياً ، ترتب على هذه المعركة أن أسيا الصغرى أصبحت مفتوحة على مصراعيها تتوغل فيها قبائل [التركمان] وأحضر السلطان السلجوقي الأمبراطور بين يديه وعفي عنه بعد أن فرض عليه أن يدفع جزيه كل عام قدرها ٤٠٠,٠٠٠ دينار ولكنه عندما عاد إلى بلاده وجد رجلاً استولى على عرشه اسمه [ميخائيل السابع] حيث قاد ثورة ضده ، وقبض على رومانوس وقتله ترتب على تلك المعركة أن الأتراك السلاجقة توغلوا في أسيا الصغرى واستطاع ابن عم السلطان (ألب أرسلان) فتح نيقية (نيقية) غرب أسيا الصغرى وتقع على بحر مرمرة ، واتخذ منها قاعدة وعاصمة لدولته التي أصبحت تسمي بسلاجقة الروم وأراد السلطان الب أرسلان فتح الصين ولكنه أغتيل ووهو يحاصر بعض المناطق للاستيلاء عليها عام ٤٦٥هـ لكن الفترة من ٤٦٥إلى ٤٨٥ حكم فيها ابنه [ملك شاه] واستمرت زمن هذا السلطان الدولة السلجوقية موحدة

تمتد شرقاً من حدود الصين إلى البحر المتوسط غرباً ، وظل السلطان ملك شاه يتلقى الجزية المفروضة على الروم وكان بإشارة وزيرة (نظام الملك) يأمر الروم الذي يحملون الجزية بأن يحملوها إذا دخلوا حدود البلاد الإسلامية وإن يذهبوا إلى بلاد ما وراء النهر ليدفعوا الجزية هناك حتى يروا سعة دولة السلاجقة واتساع حدود الدولة الإسلامية ليقع الرعب في قلوبهم ولو قدر للحملة الصليبية الأولى أن تأتي زمن السلطان ملك شاه لقضي عليها ، ولد مرت ولا استطاعت الاستيلاء على بلاد المسلمين ، لكن حدث عندما مات ملك شاة عام ٤٨٥ هـ ما يؤسف له ، ذلك أن هذا السلطان قام عام ٤٧٩هـ برحلة إلى الشام ، ووزع بلاد الشام بين قادته وجعل على حلب قسيم الدولة الدول (اقسنقر) الذي سيصبح بعد ذلك أبا (لعماد الدين زنكي) وجعل على انطاكية حاكم آخر هو (ياغي سيان) وعلى دمشق أخوه (تتش وحدث أن كان ولي عهده) ابنه الأكبر بركيا روق الذي كان المعهود إليه بالسلطنة ولكن السلطان ملك شاة في أواخر عهده تزوج من فتاة تسمى (تركان خاتون) وولدت وهو في آخر عمره ابنه (محمد) فلما ولد اقنعته زوجته بنقل ولاية العهد إلى ابنه (محمد) وقد استجاب لها وفعل هذا ومات . فلما مات حدث الانقسام والتمزق داخل حدود الدولة السلجوقيه ، إذا رفض الابن الأكبر التخلي عن ولاية العهد ، فقد أعلن نفسه بعد موت أبيه سلطانا على الدولة السلجوقية أما زوجة أبيه وابنها فقد انضم إليهما عدد كبير من القادة ليسيطروا على أمور الدولة ، فوقعت بين الابن الأكبر وبين زوجه ابية وابنها حرب أهلية ، وفي هذه الأثناء قام (تتش) أمير دمشق بالحرب ضدهما لاعتقادة بأنه أولى بالسلطنة من ابني أخيه الأكبر والأصغر فأعلن نفسه سلطانا في دمشق ، ثم شن الحرب ضد الابن الأكبر بركيا روق وفي عام ٤٨٨هـ وقعت معركة عند اصفهان قتل فيها (تتش) لكن الحرب ظلت قائمة بين (بركيا روق) وبين (تركان خاتون) وترتب على مقتل (تتش) وقوع انقسام وتمزق في بلاد الشام ، فاستقل بحلب ابن تتش واسمه (رضوان) واستقل بدمشق ابنه

الآخر (دقاق) ووقعت بين الأخوين حروب ، وانقسم القادة السلاجقة في الشام بين هذا وذاك ، واستمرت الحروب لمدة سنتين بين الجانبين .وفي هذه الأثناء سمعوا بقدوم الحملة الصليبية إلى شمال الشام فجاءت هذه الحملة ووجدت أمامها أمة ممزقة لها خمس سنوات وهي تتنازع في حرب أهلية مستمرة وطاحنه بين أمراء وقادة الدولة ، عند ذلك نجحت تلك الحملة واستولت على انطاكية وغيرها من البلاد في الشام ، وسلروا بكل سهولة حتى استولوا على بيت المقدس ، وأصبح لكل مدينة في بلاد الشام أمير حاكم بأمره ، ليس له هم إلا مصلحته الشخصية ، ولم يحفل بما هدد المسلمين من خطر ، وكان على المسلمين بعد ذلك أن يكابدوا المشقات بالتصدي لهذا الغزو الصليبي الغربي النصراني الأوروبي الذي قام في تلك الحقبة .

وبذلك ننتهي من إلقاء نظرة على أحوال المسلمين قبل الحملة الصليبية الأولى .

مجمع كليرمون والدعوة للحملة الصليبية الأولى :

بعد هزيمة الامبراطورية البيزنطية (إمبراطورية الروم) في معركة (ملاذكـــرد) سنة ٤٦٣هـ - ١٠٧١ م - أرسل الامبراطور البيزنطي ميخائيل السابع الذي اعتلى العرش في القسطنطينية أرسل رسالة إلى البابا جريجوري السابع يطلب منه نجده لدولـة الروم (الدولة البيزنطية) وكان البابا قد رفع من مكانة البابوية حـــتى اســتطاع أن يخضع الامبراطور " هنري الرابع " أمبراطور الدولة الرومانية المقدسة ، فأرسل البابـــا منشوراً إلى سائر أنحاء أوروبا يطلب من الملوك والأمراء مساعدة الدولة البيزنطية ضـد خطر الأتراك السلاجقة المسلمين الذين توغلوا في بلاد الدولة البيزنطية حتى وصلوا إلى شواطئ البيسفور التي تقع عليها العاصمة القسطنطينية ، إلا أن ظروف أوروبا في ذلك الحين بسبب النزاع بين البابا وهنري الرابع فضلاً عن مشـــكلات أخـــرى في غـــرب أوروبا لم تكن لتسمح بقيام حملة صليبية في ذلك الحين ، كما أن دولة الســـــلاجقة في ذلك الوقت كانت في عز قوتها وعنفوانها وكان مجرد التفكير في غزوهـــا مـــن قبـــل الأعداء الصليبين كفيل بإثارة الرعب في نفوس هؤلاء الأعداء ، ولما تغيرت الظـــروف بعد ذلك ووصل إلى عرش الامبراطورية البيزنطية أسرة جديدة هـــي الـــتي أسســـها الامبراطور [اليكسيوس كومينين] فعندما اشتدت غزوات السلاجقة في أسيا الصغرى أرسل الأمبراطور بعثة من القسطنطينية إلى إيطاليا وقابلت تلك البعثة البابا الجديـــد " إيربان الثاني " الذي خلف أستاذه البابا جريجوري السابع على عرش البابوية والـــذي سيثير الحرب العالمية الكبرى التي شهدتها العصور الوسطى ضد الإســـلام والمســـلمين المعروفة باسم الحروب الصليبية. وصلت تلك البعثـــة الـــتي أرســـلها الإمـــبراطور اليكسيوس كومينين وقابلت البابا " إيريان الثاني " وهو يعقد مجمعاً دينيـــاً في مدينـــة بياكيتزا في إيطاليا ولا شك أن تلك البعثة رسمت أمام البابا صورة قاتمة لما كان يعانيـــة الروم من غزوات المسلمين السلاجقة ، والحقيقة أن الامبراطور اليكسيوس كومينـــين لم

يكن في ذلك الحين يتخيل أن حرباً عالمية كبيرة سوف تشنها البابوية على العالم الإسلامي وإنما كان كل ما يرجوه ويتطلع إليه إرسال مجموعة من العساكر لتساعد الدولة البيزنطية " دولة الروم " وتعمل تحت قيادة الامبراطور لمكافحة الاتراك السلاجقة ولاشك أن فكرة الدعوة إلى حرب صليبية أخذت تختمر في ذهن البابا " أيربان الثاني " وأخذ يقلب هذا المشروع في ذهنة وهو متجه إلى فرنسا ليعقد مجمعاً دينياً كبيراً في مدينة كليرمون في جنوب فرنسا وبدأت جلسات هذا المجمع في ١٨ نوفمبر ١٠٩٥ م – ٤٨٨هـ واستمرت جلسات ذلك المجمع تسعة أيام وبعد أن عالج المؤتمر الكثير من الأمور الكنسيةوالأمور الدينية المتعلقة بالكنيسة ، في أخر يوم خطب البابا في الجماهير المحتشدة خارج كنيسة كليرمون وكانت الجماهير مشكلة من مندوبين عن الأمراء والملوك ورجال الدين والأساقفة ، وفي ذلك الخطاب والذي يعتبر أشهر خطاب عرفته أوروبا في تاريخها أعلن فيه البابا مشروع الحرب الصليبية ضد المسلمين .

والحقيقة أن نص الخطاب لم يحفظ كاملاً وإنما هناك العديد من رجال الدين الذين حفظوا فقرات من ذلك الخطاب ، مثل الراهب بودري دي دول ، والراهب روبير لاموان وغيرهما وفي ذلك الخطاب الذي تحدث فيه البابا مما جاء فيه من الفقرات قوله ما ترجمته :" إنني أدعوكم ليس باسمي أنا ولكن باسم الرب المسيح أن يعيش كل واحد منكم مستمسكاً بالقانون الألهي فيعيش في هدنة مع الرب، وأدعوكم أيضاً باسم الرب أن تقوموا بعمل خيري وهو إغاثة إخوانكم في الشرق فقد هاجمهم الأتراك والعرب ودمروا الكنائس وحطموا الأديرة ، لذلك أدعوكم باسم الرب لتنهضوا فرساناً ومشاة أغنياء وفقراء لإغاثة إخوانكم في الشرق وطرد الجنس الزنديق [المسلمين] وأدعوكم إلى القتال في سبيل الصليب من أجل إنقاذ القدس صرة العالم " أيضاً من الفقرات التي وردت في ذلك الخطاب التاريخي ما ترجمته :" أن الفقر وقلة

مصادر الطعام كانت سبباً من أسباب الحروب في العالم المسيحي " ولكأنه بذلك يشير إلى الدوافع الاقتصادية في الحرب الصليبية أي أن موارد الطعام ، في غرب أوروبا لم تعد تكفي لإطعام الأفواه الجائعة ، ولا سبيل لحل هذه المشكلة إلا بإخراج عدد كبير من الناس إلى بلاد المسلمين للإستيلاء على بلادهم وعلى ممتلكاتهم ".

هذا الخطاب أثار موجة كبيرة من الحماسة في نفوس الحاضرين حتى ذكر المؤرخون الذين حضروا هذه الجلسات أنه قوطع بعدة صرخات مدوية قائلين فيها " هكذا يريد الرب " " هكذا يريد الرب " هكذا يريد الرب " وعلى الفور عندما انتهى البابا من الخطاب استغل على التو موجه تلك الحماسة ولم يدعها تخمد أو تضعف وأعلن أن كل من أراد الاشتراك في الحرب الصليبية عليه أن يخيط صورة صليب أو ينقش على كتفيه صليباً أحمر وأنه إذا فعل ذلك فإنه لا يحل له أن يتوقف حتى يفي بنذره ، والذهاب للقتال في سبيل الصليب ، وكان أول من فتح باب التطوع الأسقف " ادهيمار " أسقف مدينة " بوي " في فرنسا الذي تقدم وجثا على ركبتيه أمام البابا ، مفتتحاً باب التطوع في سلك الحرب الصليبية ، فأعلن الباب اختيار " أدهيمار "مندوبا عنه وممثلاً شخصياً له ومشرفاً عاماً على الحملة الصليبية ، ثم أعلن البابا ما عرف في التاريخ باسم امتيازات الصليب وهي ، أن كل من يشترك في الحرب الصليبية تغفر له سائر ذنوبه ، وأن ممتلكات الصليبيين وضياعهم ، وأموالهم في الغرب تصبح في حماية الكنيسة ، ومعفاة من الضرائب ، وبذلك أضفى على ممتلكات الصليبيين نوع من القداسة والتجبيل بحيث لا يجرؤ أحد على الاعتداء عليها أثناء غيابهم في الشرق ، والامتيازات الأخرى من امتيازات الصليب أن نساء وأولاد الصليبيين يصبحون في حماية ورعاية الكنيسة عندما يذهب أبائهم للقتال في الشرق ومحاربة المسلمين وبعد ذلك أي بعد نهاية مجمع كيلرمون قام البابا بالتجول في أنحاء أوروبا يعقد المجامع الدينية ويدعو إلى شن الحرب الصليبية ضد المسلمين كما أوعز إلى رجال الدين والأساقفة

والرهبان بالتجول في غرب أوروبا ودعوة الناس للإنخراط في سلك الحملة الصليبية ، وكان الباب يعرف الظروف التي ستمر بالحملة الصليبية ، وأنها لابد وأن تحتاج إلى رجال محاربين أشداء لذلك وجه همته ووجه خطته لتجنيد الفرسان والمحاربين من الأمراء المدربين من الأسر النبيلة الذين دربوا تدريباً شديداً منذ الصغر ، ولم يكن مهتماً بتجنيد العامة أو تجنيد الغوغاء لكن حملة شعبية من العامة تشكلت للذهاب إلى الشرق وكان باعث تلك الحملة الشعبية هو الراهب " بطرس الناسك " وكان بطرس الناسك هذا قد زار الديار المقدسة في بلاد الشام وعاد إلى الغرب وقد أمتلأ قلبه بالحقد والضغينة على المسلمين ثم أخذ لما سمع خطاب البابا يدعوا إلى الحملة الصليبية وكان بطرس أعرجاً ويلبس ثياباً مهلهلة وممتطياً حماراً ولكنه كان خطيباً مفوهاً بالغ التأثير في الجماهير، وقد وصفه أحد الرهبان المعاصرين له ويسمى جيوبرت نوجنت وهو من مؤرخي الحملة الصليبية فوصف " بطرس الناسك " بأنه كان نحيل الجسم قصير القامة داكن اللون ، قبيح الوجه لا يشبهه في قبحه أحد إلا الحمار الذي يمتطيه والذي نال من التبجيل ما ناله بطرس الناسك ، حتى أن الناس والجماهير وهم يستمعون إليه ويلتفون حوله ، كان الواحد منهم يسعى ليظفر بشعره أو شعرات من ذلك الحمار ليحتفظ بها ويتبرك فيها ويعتقد فيها شيء من القداسة وقد أثارت دعوة بطرس الناسك جماهير كثيرة من العامة والغوغاء والدهماء ، والمجرمين ، فتكونت خمسة جيوش شعبية بزعامته وزعامة " ولتر المفلس "وليم النجار وفولشر وجوتشلك فهؤلاء كانوا من عامة الناس ، لكن ثلاثة من تلك الجيوش وأثناء الحماسة سارت في حوض نهر الراين ، وقتلوا في مذابح عديدة نحو العشرة الآف من اليهود ، ثم اتجهوا شرقاً عبر بلاد المجر يريدون الوصول إلى الشرق لكنهم في الطريق ارتبكوا أعمالاً شائنة من النهب والسلب ، ضد المجريين النصارى مما جعل الجيش المجري يخرج إليهم ويبيد ثلاثة من تلك الجيوش ولم يتمكن من الوصول إلى القسطنطينية إلا جيشين من تلك الجيوش بقيادة بطرس الناسك " وولتر المفلس " فلما وصلت تلك الجموع من الدهماء إلى

القسطنطنية ذُهلوا بروائع العاصمة البيزنطية ، والحضارة الرومانية وتقـــدم "بطـــرس الناسك " ودخل القسطنطينية وقابل الامبراطور " اليكســـيوس كومينـــين " وهـــذا الامبراطور عرف بأن هذه الجيوش من الدهماء والغوغاء لا تستطيع بأي حـــال مـــن الأحوال أن تذهب وتنتصر على المسلمين ، لذلك نصح بطرس بأن يأمر اتباعه بالخلود إلى الهدوء والسكنية وأن يظلون مقيمين خارج أسوار القسطنطينية حتى تأتي الجيـــوش الرسمية تلك التي يقودها الأمراء والفرسان الجيوش المدربة حتى تستطيع الانتصار علـى المسلمين إلا أن أتباع بطرس الناسك من الدهماء والغوغاء رفضوا البقـــاء في هـــدوء وأخذوا يغيرون على القرى التابعة للإمبراطور البيزنطي ، فنـــهبوا الطيـــور الأليفـــة للسكان اليونانيين ، وتوغلوا بغارتهم حتى هاجموا الكنائس الأرثوذكسية ونزعوا ما فيها من حلي وقصدير ونحاس فجأت الرعية بالشكوى للإمبراطور " اليكسيوس كومنـــين " عند ذلك ، تجنباً لشر هؤلاء الدهماء ، أصدر أوامره للجيش والأســـطول البـــيزنطي بنقلهم من عند أسوار القسطنطينية إلى الضفة الشرقية بعيداً عن ممتلكات البـــيزنطيين ، وأوصى الأسطول بأن يزودهم بالمؤمن والأغذية والطعام بأسعار زهيـــدة ، ولكنـــهم عندما استقروا في غرب أسيا الصغرى ، شرعوا في الإغارة والعـــدوان علـــى المـــدن المحيطة، وكان كثيراً من تلك القرى خاضعاً للأتراك السلاجقة ، وتوغلوا في غـــاراتهم لأنهم غنموا كثيراً من الماشية والأغنام والخيول ، فباعوها للبيزنطيين عند القســـطنطينية فزادت شهيتهم للنهب والسلب ، عند ذلك توغلوا في غـــاراتهم إلى أن وصلـــوا إلى مدينة (نيقية) عاصمة السلطان السلجوقي " قلج أرسلان الأول " سلطان ســـلاجقة أسيا الصغرى ، وكان السلطان هذا غائباً عن عاصمة في الشرق حيث كان مشتبكاً في حرب مع أمارة الدانشمند على مدينة ملطية في أعالي نهر الفرات ، وفي أحـــد الأيـــام وبينما كان بطرس الناسك ، في بلاط الإمبراطور فتقدم أولئك الدهماء والغوغاء حـــتى وصلوا في غزواتهم إلى مدينة نيقية فخرجت إليهم حامية " نيقية السلجوقية " المســـلمة وقطعت عليهم خط الرجعة وأبادتهم عن أخراهم ولم يبق منهم إلا كومة من العظـــام ،

لتشهد من تلاهم من الصليبيين على مصير حملة الشعوب وبذلك انتهت حملة الشعوب الأوروبية نهاية كاملة عند مدينة " نيقية " ولم يستطيع أحد من أولئك الدهماء والغوغاء الوصول إلى الشرق .

أما عن الحملة الرسمية حملة الفرسان والأمراء ، فقد حدد البابا " إيربان الثاني " شهر اغسطس عام ١٠٩٦م موعد الرحيل الكبير ، وكان أول الأمراء تطوعاً في تلك الحرب هو الأمير " ريموند الصنجيلي " أمير تولوز ، وكان يتولى مقاطعة كبيرة في جنوب فرنسا وهي المنطقة المعروفة باسم " بروفنسال " وكان " ريموند الصنجيلي " من أكبر الأمراء الصليبين وأكثرهم جاهاً وثروة ، وكان له خبرة طويلة في حرب المسلمين حيث شارك في الحروب النصرانية الصليبية ضد المسلمين في الأندلس التي يعرفونها في أوروبا باسم حروب الاسترداد الأسبانية وكان ريموند الصنجلي يتطلع أن أن يعينه البابا قائداً عاماً على الحملة الصليبية إلا أن البابا لم يفعل ذلك .

على أية حال بالإضافة إلى الأمير ريموند الصنجلي اشترك بتلك الحرب أكثر من عشرين أميراً من أمراء الغرب الأوروبي ، وكان من أشهر هؤلاء الأمراء جودفوي دي بويون الذي قاد مع أخيه بلدوين الصليبين القادمين من اللورين وهي منطقة انتقال بين ألمانيا وبين فرنسا ، في حين قاد الأمير بوهيمند النورماني مع ابن أخته "تانكرد" النورمان القادمين من صقلية وجنوب أيطاليا ، أما روبرت أمير الفلاندر فقد قاد النورمان من غرب فرنسا كما اشترك في تلك الحرب عدد من الأمراء منهم شقيق ملك فرنسا واستيفن أمير بلواء وغيرهم من الأمراء. وعلى أية حال اجتمعت جيوش كبيرة وأخذت تتدفق في انضباط كامل حتى وصلوا عند أسوار القسطنطينية وما أن جاء ربيع عام ١٠٩٧م إلا قد تكامل وصول الأمراء الصليبين فعسكروا خارج أسوار القسطنطينية وكان عددهم كبيراً جداً ، قدرهم أحد المؤرخين بـ ٦٠٠,٠٠٠ مقاتل بينما قدرهم إيريان الثاني بابا الكنيسة بنحو ٣٠٠,٠٠٠ ويرجح المؤرخ الإنجليزي

الحديث أرنست باركر أن عددهم الحقيقي نحو ١٥٠,٠٠٠ من الرجال الأشـــداء ، ولنا أن نتصور مدى ما يمكن أن يحدثه هذا الحشد ، أو تلك الحرب التي أعلنها البابـــا والتي كانت حرباً عالمية بكل المعنى الشامل في تلك العصور .

أما الأمبراطور اليكسيوس كومينين فقد ذهل لتلك الأعداد الهائلة من الصليبيين ، أرسل يطلب استغاثة أو نجدة ولكنه فوجيء بحشد هائل قد يشـــكل خطـــراً علـــى الإمبراطورية البيزنطية " إمبراطورية الروم " وهذا ما حدث فعلاً ، لذلك يشبه أرنست باركر " الإمبراطور البيزنطي مع الصليبين بأنه مثل ساحر أراد أن يســـتحضر جنيـــاً ليساعده فإذا به أمام حشد كبير من العفاريت لا يستطيع التصرف إزاءهم أو ردهـــم لذلك أخذ الإمبراطور " الكيسيوس كومنين " يجتمع مع أمراء الصليبين الواحد تلـــو الآخر ويتودد إليهم بالهدايا والأموال لعله يحصل منهم على يمين الولاء بـــأن يعيـــدوا للإمبراطورية البيزنطية (امبراطورية الروم) كل ما فقدته من بلاد لحســـاب الأتـــراك السلاجقة المسلمين منذ معركة (ملاذ ذكرد) ٤٦٣هـــ أما ما قبل هـــذا التـــاريخ فيحتفظ الصليبيون بما يستولون عليه من بلاد المسلمين وكان أشد ما يخشاه الإمبراطور الكيسيوس كومنين هو الأمير النورماني " بوهيمند "الذي كان قـــد سبق وقاتل الامبراطورية البيزنطية هو ووالده " جويســـكارد " الـــذي انـــتزع مـــن الامبراطورية البيزنطية [امبراطورية الروم] أملاكاً مهمة في صقليةوفي جنوب إيطاليـــا . على أية حال بعد مناورات عديدة وتقديم هدايا كثيرة تمكن الكيسيوس كومنين مـــن الحصول على يمين الولاء ، من معظم أولئك الأمراء ثم أخذوا يعبرون " البوســـفور " واتجهوا لحصار مدينة " نيقية " عاصمة السلطان قلج أرسلان الأول ودام حصار تلـــك المدنية شهراً كاملاً لكن " قلج أرسلان" لما سمع بعبورهم في البداية لم يحفـــل أو يـــهتم بذلك وظن أن الأمر لا يعدو أن يكون حملة من الشعوب والدهماء غير المدربين مثـــل حملة بطرس الناسك تستطيع حامية "نيقيه " التغلب عليهم لكنـــه لما وصلتـــه الانبـــاء

بخطورة هذا الحشد ، هرع مسرعاً لنجدة عاصمته ووصل وهاجم الصليبين ، فهزموه بسرعة وارتد على أعقابه فلجأ إلى بعض الجبال وأرسل رسالة على جناح طائر إلى حامية (نيفية) يترك لهم الخيار في الاسستلام أو الصمود .

على أيه حال كان الصليبيون يتطلعون للاستيلاء على (نيقية) قهراً حتى ينهبوا المدينة ويستولون على المدينة وما فيها من أموال ، وحتى يأسروا زوجة قلج أرسلان وأولاده ليتمكنوا بعد ذلك من الحصول على فدية ضخمة ، وشعرت حامية (نيقية) بما كان يتطلع إليه الصليبيون ، لذلك اتصلوا سراً بمندوبي الإمبراطور اليكسيوس كومنين واتفقوا معهم على تسليم المدينة لهم على أن تأتي سفينة بيزنطية إلى داخل نيقية التي تقع على بحر مرمرة وتحمل زوجة السلطان وأولاده وحاشيته إلى القسطنطينية وفوجيء الصليبيون في جمادي الثاني ٤٩٠هـ بعد شهر واحد من الحصار وإذ بالأعلام التابعة للدولة البيزنطية ، (دولة الروم)وهي ترفرف على الأسوار فأسقط في أيديهم وشعروا بأن المدينة قد استسلمت لمندوبي الإمبراطور وهناك شعروا بالحقد تجاه الامبراطور الذي حرمهم من تلك الغنيمة ومن هناك بدأ نوع من الخلاف أو الصدع . سوف يتطور إلى أن يتجسد في نهاية المطاف بأن تقوم حملة صليبية ، وهي الحملة الرابعة ضد القسطنطينية ذاتها فشعر الصليبيون بأن الإمبراطور غرر بهم واستولى على مدينة كانوا يتطلعون للإستيلاء عليها ونهبها ولكنه يعتبرها أنها من أملاكه لأنها كانت أقرب المدن إلى القسطنطينية وفقدها البيزنطيون لحساب . الأتراك السلاجقة بعد معركة (ملاذكرد) ويمين الولاء التي أقسمها الأمراء للإمبراطور بأن يعيدوا إليه جميع ما فقدته الامبراطورية اليزنطية منذ معركة (ملاذكرد) مقابل أن يزودهم بالمؤن وفرق من الجيش البيزنطي وأن يرافقهم بنفسه إن استطاع .

على أية حال بعد ذلك انقسم الصليبيون والجيش الصليبي إلى شعبتين في مسيرهم من غرب أسيا الصغرى لتسهيل عملية التموين ، فشعبة من الصليبين كانت

بقيادة (بوهيمند) وابن أخته (تانكرد) وأمير الفلاندر اتخذوا الطريق الشمالي الشرقي وكان معظمهم من النورمان ، أما بقية الصليبين فكانوا بقيادة (ريموند الصنجلي) والمندوب البابوي وغيرهم فقد اتخذوا الطريق الجنوبي الشرقي على أن تلتقي الشعبتان عند (دورولیوم) في غرب أسيا الصغرى ، أما السلطان (قلج أرسلان) فقد شعر بالخطر ، فاتجه شرقاً واتصل بالأمير (ابن دانشمند) واصطلح معه وتحالف معه بعد أن شعر الأثنان أن الخطر سوف يعصف بهما جميعاً لذلك اتجها بقواتهما لمواجهة الصليبين وفي (اسكي شهر) أو دور وليوم دارت معركة حامية فقد انتظر قلج أرسلان وابن دانشمد وصول بوهيموند إلى دورولیوم) وكان ذلك في رجب عام ٤٩٠هـ - ١٠٩٧م ، وما أن وصل الصليبيون إلى ميدان المعركة حتى هاجمهم الأتراك السلاجقة المسلمون بقيادة (قلج أرسلان) في جرأة وبسالة أثارت أعجاب الصليبين وكادت أن تحل الهزيمة بتلك الشعبة من الصليبين إلا أن (بوهيمند) استطاع أن ينظم صفوفه ويمد وأرسل على عجل يستعجل الشعبة الثانية من بقية الصليبين فوصلت إلى ميدان المعركة ودارت معركة حامية الوطيس استمرت يوماً كاملاً وفي تلك المعركة اريقت دماء كثيرة من المسلمين السلاجقة ومن الصليبين ، إلا أن التفوق العددي الكاسح كان للصليبين ، ومعروف عن السلاجقة الأتراك أنهم كانوا محاربين بطبيعتهم ، وكانوا يعتمدون في حربهم على الرمي بالسهام حيث كانت تأتي موجه فترمي ، فتنسحب فتأتي موجه أخرى فترمي على الصليبين حتى أن أحد المؤرخين المرافقين للحملة وهو من أتباع بوهيمند ألف كتابا عن الحملة الصليبية الأولى ، تمنى لو أن الأتراك كانوا مسيحيين لما استطاع أحد أن يحاربهم أو يجاريهم في شجاعتهم وبسالتهم.

على أية حال انتهت المعركة بهزيمة (قلج أرسلان) وتدمير معظم جيشة الذي اشترك في المعركة ، واقتنع (قلج أرسلان) أنه لم يعد في مقدوره الصمود أمام

الصليبين في ميدان مشكوف لذلك اتخذ سياسة الأرض المحروقة وهي تدمير كل ما يمكن أن يفيد الصليبين في طرقهم من غلات أو خضروات أو فواكه ، وهذا أثر على الصليبين كثيراً ولكنهم ظلوا يتقدمون .وأنزلوا هزيمة ساحقة أخرى بقلج أرسلان عند مدينة هرقلة وتقدموا شرقاً وقبل وصولهم إلى قيصرية في شرق أسيا الصغرى انفصل عن الجيش الصليبي الرئيسي قائدين مهمين هما (بولدوين البولوني) (وتانكرد) وذهبا إلى أقليم قيليقية (منطقة الثغور الشامية) وشرعاً في الاستيلاء على مدنة فاستولى " تانكرد " على طرسوس فجاء " بولدوين " وطرده منها وهذا يبين مدى التنافس بينهما وكل واحد يرغب في أن يكون له نفوذ لحسابه ، لكن بعد ذلك تركا قيليقية والتحقا بالجيش الرئيسي عند " قيصرية " ولما وصل الصليبيون عند قيصرية وجدوا أمامهم شعباً نصرانياً يرحب بهم ، ذلك الشعب هم الأرمن ، والأرمن هم من العناصر النصرانية الشرقية ، وموطنهم الأصلي هو هضبة أرمينيا في شرق أسيا الصغرى ، وكانت تلك الهضبة فتحها السلطان ألب أرسلان في عام ٤٥٦هـ وترتب على فتحها أن هاجر عدد كبير من الأرمن من هضبة أرمينيا ولجأوا إلى ا لمناطق التي في أواسط جنوب أسيا الصغرى مثل قيصرية وقيليقية وفي أعالى الفرات وغيرها ، وتسببت تلك الهجرة من قيام إمارات أرمينية مثل إمارة أقامها رجل يسمى (فيلارتيوس) في إنطاكية ، قبل أن يفتحها السلاجقة وإمارة أسسها ثوروس الكوربلاط في الرها.) وإمارات أخرى فلما رأي الأرمن أولئك النصارى الغربيين الصليبيين ابتهجوا لوصولهم واعتبروهم شعباً واحداً ، وقدموا لهم المؤن والطعام وزودهم بالأدلاء ، واعتبروا أن ذلك يحقق الوعد الإلهي الذي جاء في الكتب المقدسة بأن بلاد الديار المقدسة ستبقى بأيدي الشعب المختار ، واعتبروا أن شعب الله المختار هم النصارى ، وليس هم اليهود كما يعتقد اليهود ، فهذا يبين مدى الانحرافات الموجودة في كتبهم ومعتقداتهم وتفسيراتهم الخاطئة .

على أية حال اتجه الصليبيون بعد أن خرجوا من قيصرية جنوباً متجهين إلى بلاد الشام ، إلى مدينة انطاكية ، وفي أثناء الطريق كان أمير الرها، والرها هي من المدن المقدسة في عالم النصرانية ، كان قد سيطر عليها حينذاك أمير أرمني هو ثوروس الكربلاط ذلك أنه لما ضعفت دولة السلاجقة وقامت الحرب الأهلية تمكن ثوروس من انتزاع الرها بعد مقتل إميرها (بوزان) وكان من أتباع توتش ، فسسيطر على الرها ولكن سكان الرها وكانوا من الأرمن ، كانوا يكرهون (ثوروس) الأرمني لأنه اعتنق المذهب الأرثوزكسي وهو مذهب الامبراطورية البيزنطية وكان ثوروس عقيماً لم يكن له أولاد ، وكان يخشى من قومه الأرمن فأراد أن يكون له معين وخاصة وقد اشتدت غارات المسلمين على الرها ، فأرسل يستنجد بالصليبين ووصلت رسالته إلى (بلدوين) شقيق (جود فري) فانفصل عن الجيش الرئيسي ومعه مئات من اتباعه .وذهب إلى الرها فدخلها فاستقبله ثوروس الأرمني وأعلن أمام الأرمن أنه تبنى (بلدوين) وجرت طقوس معينه لهذا التبني وهو أن ثوروس طبقاً لتقاليد الكنيسة الأرمنية جاء بثوب واسع دخل معه فيه (بلدوين) وحك صدره في صدره وبعد ذلك أعلنه ابناً له لأنه كان عقيماً ، لكن (بلدوين) لم يحفل بتلك الأبوة المزيفة واستغل بعد أن بسط نفوذه في الرها استغل حالة التذمر بين الأرمن إزاء ثوروس ، فأوعز إلى الكارهين له ، بقتله ، ودبر (بلدوين) مؤامرة ، راح ضحيتها (ثوروس الأرمني) فاستولى (بلدوين) على الرها وتقرب إلى الأرمن وتزوج منهم بنتاً أرمنية ، فأحبه الأرمن واعتبروه صهراً لهم ، وخاصة أنه نجح في صد الغارات التي كانت تتعرض لها (الرها) من قبل المسلمين ، أما بقية الجيش الصليبي فقد اتجه إلى بلاد الشام فوصل إلى مرعش ، وهي من المناطق التي في الثغور الشامية في شمال الشام ، في جنوب تركيا حالياً وكان معظم سكانها من الأرمن فاستقبلوا الصليبيين بالابتهاج والفرح ، وقدموا لهم المؤمن والأقوات والزاد ، ثم اتجهوا إلى انطاكية وكانت في ذلك الحين تابعة للأمير السلجوقي (ياغي سيان) وكان قدأقطعهُ السلطان ملك شاة مدينة انطاكية ٤٧٩هـ ولكن لما حدثت وفاة ملك

شاة وحدثت الحرب الأهلية واشترك فيها توتش شقية ملك شاه ، اشترك (ياغي سيان) مع توتش ولما قتل توتش ، حدث النزاع بين ابني (توتش) (رضوان) في حلب ، ودقاق في دمشق ، فأخذ (ياغي سيان) يشترك في تلك الحرب الأهلية بين الأخوين ،مرة ينضم إلى رضوان ومرة أخرى إلى أخيه ، واستهلكت الحرب الأهلية منهم كثير من الطاقات ، البشرية والمادية التي كان يمكن أن يدخروها في مواجهة الصليبين .

علي أية حال في الوقت الذي كان فيه (رضوان) يحاصر (دقاق) في دمشق وكان منضما إلى رضوان (ياغي سيان) أمير انطاكيه ، وهم يحاصرون دمشق ، وإذ بهم يسمعون بقدوم الجيش الصليبي ، إلى شمال الشام متجها إلى انطاكية ، فكل واحد ذهب إلى بلده ، فعاد (ياغي سليمان) إلى انطاكية للدفاع عنها ، وقام على عجل بحفر خندق خارج أسوار انطاكية ، وأمر النصارى من الأرمن وغيرهم بالخروج للإشتراك في حفر الخندق ، ولما حان وقت المساء رفض السماح لهم بالدخول إلى انطاكية فعند ذلك جاء الصليبيون وكان على رأسهم (بوهيمند) وكان معه ٤٠٠٠ فارس كانت طليعة للجيش الرئيسي فعسكروا خارج أسوار انطاكيه عام ٤٩٠هـ ، ١٠٩٧م .

وانطاكيه كانت مدينة محصنة تحصنيا طبيعيا ذلك أنها تقع على هضبة مرتفعة ذات حواف عالية يحيط بها من جهتي الشرق والجنوب والغرب نهر العاصي وأيضا جبال توجد إلى الجنوب وفي الشرق كما تكثر المستنقعات والأحراش في شمال المدينة بالإضافة إلى هذا هناك سور يحرس انطاكية على الهضبة ، وهو سور كبير ، بناه البيزنطيون لأن المسلمين فتحوها زمن الخلفاء الراشدين ولكن الروم انتزعوها عام ٣٥٨هـ ، وظلت في أيديهم أكثر من مائة سنة ، فزادوا في تحصينها تحصينا كبيرا ، وكان بسورها ٣٦٠ برجا وكان من الصعب جدا الاستيلاء عليها بالقوة بل من

المستحيل ، ولم تقع بيد الصليبين إلا بسبب الخيانة كما سنشير ، فبدأ حصار إنطاكية في ذي القعدة عام ٤٩٠هـ أكتوبر عام ١٠٩٧م واستمر الحصار أكثر من ستة أشهر، وخلال تلك المدة ما قدمه الأرمن للصليبين ، من أقوات ومؤن ، لم تكن لتكفي هذا الجيش الضخم الذي يتجاوز مائة ألف ، كفاهم عدة أيام فقط خاصة والفترة في أكتوبر ونوفمبر بداية وقت الشتاء في هذه المناطق تتساقط الثلوج ، وتساقط الأوراق ، ويصبح من الصعب جداً إيجاد العلف للدواب وإيجاد مصادر للطعام لأنه لا توجد فاكهة في البساتين ، أو محاصيل ، فالوقت اشتد على الصليبين وعانوا كثيراً من نقص المؤن فعقد زعماء الجيش الصليبي اجتماعاً تقرر على أثره أن يقوم بوهيمند و(روبرت) أمير الفلاندر بغارة بهدف الحصول على الأسلاب والمؤن من القرى الواقعة على نهر وادي العاصي فجهز (بوهيمند وروبرت) جيشاً من عشرين ألف مقاتل واتجهوا جنوباً ، وهاجموا القرى الواقعة على نهر العاصي وفي نفس الوقت كان يتقدم من دمشق (دقاق) ابن توتش ومعه أتابكه طغتكين ومعهما جيش كبير . فكان (دقاق وطغتكين يتقدمان بجيش دمشق لمساعدة انطاكيه ، فالتقى بهما بيهموند وروبرت على نهر العاصي وقامت معركة لم ينعقد فيها النصر لأي من الجانبين ، عاد بعدها دقاق وطغتكين إلى دمشق وعاد بوهيمند إلى الصليبين في انطاكيه ، وليس معه إلا القليل من المؤن وكانت هذه المعركة في محرم عام ٤٩١هـ ديسمبر وكان ياغي سيان قد أرسل إلى السلطان السلجوقي (بركيا روق) والخليفة العباسي وسائر الأمراء يدعوهم لمساعدته أمام ذلك الخطر ، فنجدة (دقاق) فشلت وبعد ذلك اقتنع بعدم قدرته على مواجهة الصليبين ، ثم تقدم رضوان وسقمان بن أرتق) لنجدة انطاكيه ، فخرج بوهيمند ، لصدهما عن انطاكيه ، والتقى الجانبان عند مدينة (حارم) في منتصف الطريق بين انطاكية وحلب وانتصر بوهيمند وانهزم أهل حلب ولم يستطعوا نجده انطاكية خلال ذلك وصلت إلى الصليبين بعثه من قبل الفاطمين (العبيدين) من قبل الوزير (الأفضل بن بدر الجمالي) يطلب من الصليبين التحالف معهم ، ضد السلاجقة ، بعض

المؤرخين المحدثين دافع عن الدولة الفاطمية ولكن ظهرت مخطوطة المؤلف غربي عاصر الحروب الصليبية يسمى (كيفارو) فذكر أنه وصلت فعلا بعثة من (الأفضل بن بدر الجمالي) إلى النورمان في جنوب أيطاليا وإلى الجنوبيين يطلبون المساعدة ضد السلاجقة أما هذه البعثة الثانية التي بعثها الأفضل إلى الصليبين المحاصرين لانطاكية فقد حملت إليهم عرضا بحيث يحتفظ الصليبيون بانطاكية وشمال الشام لهم بنيما يحتفظ الفاطمون لهم ببيت المقدس وجنوب الشام ، وهو لا يعلم أن الصليبين لا يريدون إلا بيت المقدس وكان بيت المقدس في ذلك الحين تابعا للسلاجقة ، لما وصلت الحملة الصليبية وانشغل السلاجقة بها قام (الأفضل بن بدر) بإرسال بعثة للصليبين وقاد جيشا كبيرا مكونا من ثلاثين ألف وحاصر السلاجقة في بيت المقدس وانتزع بيت المقدس منهم عام ٤٩١هـ وأخرج من بيت المقدس (سقمان بن أرتق) وأخيه وتركهما أن يغادرا بأمان ، ثم عاد إلى مصر بعد أن عهد بأمر بيت المقدس لأحد اتباعه ويسمى افتخار الدولة .

استمر الصليبيون يحاصرون انطاكية أكثر من ٦ شهور وعانوا أثناء الحصار من نقص كبير في المؤن والطعام حتى أن عددا من الأمراء فروا من عند انطاكية .

فاشتد حصار الصليبين لأنطاكية ودافع عنها أميرها دفاعا مستميتا وهو (ياغي سيان) وعاني الصليبيون من نقص المؤن والطعام ، ولم تكن انطاكية لتسقط لولا الخيانة التي حدثت ذلك أنه كان يحرس أحد الأبراج في سور انطاكية أرمني اسمه (فيروز) وقد اعتنق الإسلام أو تظاهر بذلك ، في وقت مبكر فأكرمه (ياغي سيان) واعتمد عليه فكان أحد قادته وكان يحرس أحد أبراج أنطاكية المكونة من ٣٦٠ برجا لكن اتصل فيروز سرا ببوهيمند وطلب منه أن يقطعه إقطاعا إذا استولوا على انطاكية أو يعطيه بعض الضياع والأراضي والبساتين مقابل أن يسلمه هذا البرج فاتفقا معا سرا وكان العهد الذي أخذه الصليبيون على انفسهم أنهم إذا استولوا على انطاكية أن يعيدوها كاملة إلى الدولة البيزنطية ، لأنها من المدن التي فقدها الروم لحساب الاتراك السلاجقة

بعد معركة (ملاذكرد)وأراد (بوهيمند)أن يستولى على انطاكيـــة لحســابه الخــاص ،فأعلن للأمراء الصليبين بأنه سوف يعود إلى صقلية وإيطاليا لأن امارتـــه تســتدعي عودته ، فخاف باقي الأمراء إن عاد بوهيمند وتركهم ألا يستطعيوا الاستيلاء علـــى انطاكية وأخذوا يترجونه أن يبقى معهم لكنه تظاهر بالأصرار حتى يحصل منهم علـــى التنازل عن انطاكية له ، وبالفعل قالوا إذا بقيت معنا وفتحنا انطاكية فتصبح لك فعنـد ذلك اتفق مع فيروز وأرسل جنودا تابعين له ودلى لهم (فيروز) السلالم فصعـــدوا إلى ذلك البرج الذي يحرسه (فيروز) واستولوا عليه وفتحوا الأبواب وتدفقت جيـــوش بوهيمند إلى داخل انطاكية في ٢٠ رجب ٤٩١هـ فاستولوا على انطاكية فلما سمع (ياغي سيان) هو ومن معه فر هاربا فسقط من على ظهر فرسه وخر مغشيا عليه فقابله أحد الأرمن فقتله وقطـع رأســه وســلمه للصليبين ، وبذلك سقطت انطاكية في أيدي الصليبين إلا أن القلعـــة داخـــل مدينـــة انطاكية ظلت صامدة وكان يتولى هذه القلعة أحد القادة ويسمى أحمد بن مروان أحـد القادة السلاجقة ، والاستيلاء على انطاكية جاء في وقت حرج ، وكان أن نهضت نجدة كبرى لمساعدة (ياغي سيان) في انطاكية نجدة قام بها (كربوجا) أمـــير الموصـــل ، وانضم إليه كثير من أمراء العرب وغيرهم وقاد جيشا كبيرا لو وصل إلى انطاكية قبـل سقوطها في يد الصليبين لأصبح الصليبيون محاصرين بقوات (كربوجا) ومن معه مـــن الخارج ، وبقوات (ياغي سيان) من الداخل ، إلا أن (كربوجا) أضاع وقتـــا ثمنيـــا عندما ذهب إلى الرها التي بها (بلدوين) وظل يحاصرها عدة اسابيع ويضربها بالمنيجيق ولكنه لم يستطع فتحها فذهب إلى انطاكية ، وقد دخلها الصليبيون واستولوا عليـــها ماعدا القلعة داخل انطاكية وعند ذلك حاصر كربوجا الصليبين داخل انطاكية ، مدة ٢٥ يوما تعتبر من أشد الفترات على الصليبين حيث نفذ ما في انطاكية من الأقوات والطعـــام والمؤن فعانى الصليبيون المجاعة حتى أكلوا أوراق الشجر والحشائش والميتـــة داخـــل انطاكية خلال ذلك حدثت أمور لرفع روح الصليبين المعنويـــة ، وهـــي أن (ريمونـــد الصنجلي) كان له أحد الأتباع ويسمى (بطرس بارثو لوميو) كـــان صـــاحب رؤى

وأحلام ، ففي أحد الليالي قال أنه رأي المسيح في المنام وأخبره بأن الحربه التي اخترقت جسم المسيح مدفونة داخل كنيسة انطاكية ، وأنه لا يمكن لهم الانتصار إلا إذا عثروا على هذه الحربة المقدسة ، طبعا بطرس هذا كان قد عمل خدعة فاحضر حربة ووضع عليها الدم ودفنها في ذلك المكان الذي أدعى أنه رأي مناما بشأنها ، فأخذ الصليبيون يبحثون عن تلك الحربة وبعد أيام ، عثروا عليها في كنيسة إنطاكية ، فأخرجوها ووجدوها حديدة قديمة عليها صدأ وملطخة بالدم اليابس وقالوا أن هذه هي الحربة المقدسة التي اخترقت جسد ربنا يسوع المسيح ، فطبعا تأثر الصليبيون بذلك وخاصة وأنهم يعتقدون بأن المسيح قد صلب على الصليب وكان نتيجة لذلك أن هانت عليهم أنفسهم واستجابوا لقادتهم للخروج للقتال ضد كربوجا ومن معه من المسلمين قتالاً مستميتاً ، فأخذوا يخرجون لقتال المسلمين خلال ذلك حدثت أمور داخل صفوف المسلمين أدت إلى الهزيمة السبب في ذلك أنه أثناء الحصار (رضوان) في حلب لم يشترك معهم في الحرب وخاف أن يستولي (كربوجا) على انطاكية ويصبح رضوان محاصراً منه ، ففكر في مصالحه الخاصة ونسى مصالح المسلمين أمام العالم النصراني فأخذ يطلب من أتباعه الانسحاب عن (كربوجا) وأيضاً خاف (جناح الدولة حسين) وكان أميراً على حمص ، وكان خائفاً من بعض (التركمان) أتباع (يوسف ابن أبق) وكان اشترك (جناح الدولة) في قتله منذ سنة فخاف من أخيه ، ومن اتباعه أن يقتلوه وفوق هذا وذاك حدثت عصبية بين العرب وبين التركمان ، العرب الذين مع (وثاب بن محمود المرداس) أمير كلاب فحدثت أمور كثيرة ومشاحنات داخل المعسكر الإسلامي ، إضافة إلى أن (كربوجا) أعتبر نفسه القائد العام وتكبر على الذين معه ، ولم يستمع لآرائهم ، فلما رأوا خروج الصليبين على دفعات صغيرة ، أشاروا عليه بأنه كلما خرجت كتيبة يقتلوهم ، ولكنه رفض ،حتى يخرج الجيش بالكامل ويهاجمهم ، فلما اكتمل خروج الجيش الصليبي بالكامل حدثت معركة وقاتل الصليبيون باستماتة بعد أن تأثروا بالحربه المزعومة وحلت الهزيمة بجيوش

المسلمين ، وفروا من أمام الصليبين هربا ولم يثبت في المعركة إلا بعض المطوعين الذين خرجوا طلبا للشهادة وبذلك حسمت تلك المعركة الوضع العسكري في شمال الشام ، وانتصر الصليبيون انتصارا حاسما ، وبعد ذلك استسلمت حامية انطاكية بقيادة (أحمد بن مروان) وتسلم الصليبيون انطاكية وكان ذلك في ٤٩١هـ -١٠٩٨م .

بعد الاستيلاء على انطاكية حل بالصليبين وباء بسبب تعفن جثث الذين قتلوا داخل وخارج انطاكية ، وانتشر الوباء بين الصليبين فمات عدد كبير منهم ، كما حدث نزاع بين (بوهيمند النورماني) الذي دبر أمر الاستيلاء على انطاكية وبين (ريموند الصنجلي) .السبب أن (ريموند) حسد (بوهيمند) بأن يصبح أميرا على انطاكية ولذلك أعلن أن انطاكية يجب أن تسلم إلى الدولة البيزنطية ، ولكن (بوهيمند) أحتج بأن الدولة البيزنطية وأمبراطور الروم (الكيسيوس كومنين) أنه غرر بالصليبين وأن مندوبية انسحبوا أثناء حصار انطاكية ولم يبقوا معهم وأنهم لذلك في حل من أن يسلموا انطاكية إليه ، فاحتفظ بانطاكية ولكن (ريموند) ظل ينازع ويعتبر انطاكية تابعة للإمبراطورية البيزنطية وظل اتباعه يحتلون موقعين في جنوب انطاكية لمدة سنة ، وطال الوضع بين الصليبين وفي نهاية المطاف شعر بقيه الأمراء بأنهم تأخروا.في مهمتهم التي هدفها بيت المقدس لذلك أجبروا (ريموند) على أن يغادر انطاكية ، وأن يتنازل لبوهيمند عنها ثم هاجم الصليبيون خلال تلك السنة بعض المناطق المحيطة بحلب منها (معرة النعمان) وهاجموا مسجدها ودمروه وقتلوا جميع سكانها ، والحقيقة أن هذا يبين مدى ما كان يتعطش إليه الصليبيون من سفك الدماء ومن القتل ، ثم بعد ذلك اتجهوا نحو الجنوب يريدون بيت المقدس ، ولم يبق أمامهم في الجنوب من يقف أمامهم ، فكان في شيرز أماره عربية هي إمارة (سلطان بن علي بن منقذ) فأرسل إلى الصلبين الهدايا وتعهد بدفع أتاوة سنوية للصليبين ، فقبلوا منه ثم اتجهوا إلى حصار (حصن الأكراد) واستولوا عليه ثم حاصر الصليبيون (عرقه) وهي

مدينة تابعة لطرابلس ، وكان في طرابلس أمارة عربية مستقلة هي إمارة (بني عمـــار) فدفع لهم ابن عمار أيضا جزية ، فانسحبوا عن عرقة ، واتجهوا إلى الجنوب ، وكـــانت كل مدن الساحل الشامي في أيدي الفاطميين ، بيروت وصيدا وعسقلان ، وغيرهمـــا ، فاتجه الصليبيون بعيدا عن الساحل ، وكان معهم أساطيل في البحر تزودهم بـالمؤن ، ثم اتجهوا جنوبا إلى بيت المقدس ، وكان بيت المقـــدس في ذلـــك الحـــين قـــد انتزعـــه (الأفضل بن بدر الجمالي) من سقمان بن ارتق وأخيه ثم وصل الصليبيون إلى (الرملة) واستولوا عليها ، ولما سمع الوالي الفاطمي (افتخار الدولة) باقتراب الصليبـــين عنـــد ذلك قام بتحصين بيت المقدس يريد الصمود فيها وأرسل إلى الأفضل لطلب المســـاعدة لصد هذا الخطر ولما وصل الصليبيون إلى فلسطين أستولوا في طريقهم على بعض المـــدن الساحلية ، وهي المدن الصغيرة أما المدن الكبيرة فلم تستسلم لهم ، ودفعت لهم الآتاوة ، فلما وصلوا إلى بيت لحم كان بها مسيحيون كثيرون فخرجوا إليهم يرحبـــون بهـــم ويعتبروهم منقذين لهم ، فانضم سائر النصارى المحليين إلى الحملة الصليبيـــة وقدمـــوا إليهم الطعام والمؤن واعتبروهم أخوانهم في الدين ثم وصلوا إلى بيت المقدس وحـاصروه ، وكان هذا الجيش الصليبي لا يتجاوز الثلاثين ألف بعد أن قُتل ومات الكثـــير منـــهم، كان ذلك في شهر رجب عام ٤٩٢هـ – ١٠٩٩م ، استمر حصارهم لبيت المقـــدس أربعين يوما ، وبعد ذلك استطاع القادة الصليبيون الحصول على الأخشاب من بعـــض الأساطيل الجنوبة ، والإنجليزية وصنعوا أبراجا وهاجموا بيت المقدس إلى أن تمكنوا مـــن اقتحامه خلال ذلك كانا يهتمون بأمورهم الدينية حتى أنهم كانوا يطوفون حول بيـــت المقدس وصاموا ثلاثة أيام ، ثم اقتحموا بيت المقدس فهرب (افتخار الدولة) إلى بـــرج من أبراج بيت المقدس وهو برج (دواد) وتحصن فيه مع حاميته أما بقيه سكان بيـــت المقدس فقد أصبحوا ضحية مذبحة كبرى قام بها الصليبيون عدة أيام يقتلون ويذبحـــون كل من يلقونه من المسلمين من طفل وامرآه وشيخ وتحصن عدد كبير من المســـلمين

عند قبة الصخرة فذبحهم الصليبيون عن آخرهم ، وبلغ عدد القتلى حوالي ٧٠,٠٠٠ قتيل مسلم ، داخل بيت المقدس .

وذكر المؤرخون الصليبيون الذين عاصروا الحملة الصليبية واشتركوا فيها بأنهم كانوا يخوضون في دماء المسلمين إلى ركبهم ، ونهبوا حوالي عشرين قنديلا من الذهب داخل الأقصى في بيت المقدس ، وبعد تلك المذبحة نجا (افتخار الدولة) وذلك بعد تسليم برج داود ، فذهب إلى عسقلان وتحصن بها أما (الأفضل بن بدر الجمالي) فقد خوج على رأس جيش عدده ٣٠,٠٠٠ مقاتل لإنقاذ بيت المقدس ولكنه أضاع وقتا ثمينا جدا ، لما شعر بالخطر الصليبي وأنه لا يفرق بين فاطمي عبيدي وبين سلجوقي وبين شيعي أو سني عند ذلك خرج لإنقاذ بيت المقدس بعد فوات الأوان لذلك وصل إلى بلاد الشام فعلم به الصليبيون فباغتوه وهاجموه هجوما كاسحا فحلت الهزيمة بالجيش الفاطمي ، ففر (الأفضل) وتحصن بعسقلان ودُمّر سائر جيشه ووقع معسكره بالكامل غنيمة للصليبين . عند ذلك حسمت تلك المعركة الموقف في جنوب بلاد الشام مثلما حسم الوضع في شمال بلاد الشام ، عند انطاكية لصالح الصليبين ،بعد ذلك وبعد أن فرغ الصليبيون من تلك المعركة ، وبعد سيطرتهم على بيت المقدس فإن المشكلة التي واجهتهم هي من يتولى بيت المقدس فكان المفترض كما خطط البابا (إيريان الثاني) أن يصبح المندوب البابوي (أدهيمار) هو المشرف على بيت المقدس لكنه مات في الوباء عند انطاكية ولم يكن هناك من رجال الدين من كان في مكانه (أدهيمار) لذلك حدث الخلاف بين الصليبين فيمن يتولى بيت المقدس ، فتشاور قادة الحملة وعرضوا على ريموند أن يكون ملكاً على بيت المقدس لكن باعتبار (ريموند) كان متديناً رفض ، وقال أنه لن يرتدي التاج في مكان ارتدى فيه الرب المسيح تاجاً من الشوك فعند ذلك عرضوا الأمر على جود فري، وهذا ماكر له أطماعه فأعلن أنه يقبل أن يتولى بيت المقدس ليس بوصفه ملكاً ولكن بوصفة حامياً لقبر السيد المسيح ،

وبذلك اصبح ملكاً في الواقع ولكنه تلقب بلقب حامي القبر المقدس ، عند ذلك شعر (ريموند) بالغبن وتمنى لو أنه عمل تلك الحيلة مثلما فعل جود فري ولكنه لم يتمكن من ذلك وتطلع إلى أن يكون أميراً لأحد المناطق وهي عسقلان فنازعه عليها (جود فري) وبسبب النزاع حول عسقلان ظلت في أيدي الفاطميين لم يحظ بها لا هذا ولا ذاك فانتهت الحملة الصليبية ، وعند ذلك غادر معظم الصليبين إلى أوروبا ولم يبق مع الأمراء إلا بضع مئات من الفرسان الخاصين لهم أما بقيه الجيش الصليبي فقد عاد إلى أوروبا وهذا يبين أن الدافع الأساسي للحملة الصليبية كانت الدوافع الدينية بالدرجة الأولى وذلك فقد حسم الوضع العسكري ، من الشمال إلى الجنوب وظل بيت المقدس في أيدي جود فري نحو سنة ثم مات ، أما البابا (أيربان الثاني) فلم يكن يعلم بسقوط بيت المقدس وقد مات بعد سقوطة بأسبوعين قبل وصول النبأ إلى أوروبا ، وكان البابا يدعو لمزيد من الحملات والجيوش لبيت المقدس ، لدعم جند المسيح بزعمه عند ذلك وصل الصليبيون إلى أوروبا ليخبروا البابا الجديد (باسكال الثاني) بما حدث من انتصار لهم وما حققوه من نتائج فعقد البابا مجمعاً دينيا ودعا إلى مواصلة الحرب ، وإلى خروج جموع جديدة فتشكلت حملة صليبية تضاهي الحملة الصليبية الأولى ، ومع ذلك لم تشر إليها المصادر باعتبارها حملة صليبية ثانية .

فبعد موت جود فري انقسم الصليبيون في بيت المقدس إلى قسمين : قسم أرادوا أن يرسلوا رسالة إلى (بولدوين) أمير الرها ليتولى أمر بيت المقدس بعد وفاه أخيه ، وقسم آخر اختلف معهم وأرسل رسالة إلى (بوهيمند) أمير انطاكية ليستولى على عرش بيت المقدس .

فذهبت الرسالتان في نفس الوقت وشاء الأقدار أن تصل الرسالة إلى (بلدوين) دون الأخرى والسبب في عدم وصول الرسالة إلى (بوهيمند) مايلي :

أراد بوهيمند بعد أن استولى على انطاكية أن يتوسع على حساب المسلمين وخاصة أنه وجد حول انطاكية سكان أرمن ونصاري فجندهم في جيشه ، وأراد أن يستولى على حلب فحاصرها ، لكن حدثت أمور جعلته يتجه إلى الشمال ، ليقع في كمين وقع في الأسر في قبضة القائد التركي المسلم كمشتكين بن دانشمند وذلك في رمضان عام ٤٩٣هـ ، ودمر معظم جيش (بوهيمند) فلما أحس بالخطر قطع خصله من شعره الأصفر وأعطاها أحد الرجال ليذهب بها إلى (بلدوين) لينقذه فسلمها إليه ، فأخذ بلدوين جيشه واتجه لإنقاذ بوهمند ، أما كمشتكين فقد سار بقواته وعلى رؤوس الرماح رؤوس القتلى من الصليبين ، ومعه أسراه على رأسهم بوهيمند وحاصر ملطيه يريد من جبريل أميرها تسليم ملطية وفي ذلك الحين بيما كان كمشتكين يحاصر ملطيه سمع بأن بلدوين جاء لإنقاذ بوهيمند فأدرك أمير الجيش كمشتكين يصبون إليه فلم يشأ المجازفه بجيشه فصعد إلى هضبة الأناضول واتجه شمالاً إلى أن وصل إلى قلعة نكسار على البحر الأسود ، فعاد (بلدوين) إلى الرها ووجد الرسالة بوفاة أخيه في بيت المقدس فذهب إلى بيت المقدس بعد أن ولّى على الرها ابن عمه ويسمى بلدوين لي بورج وتولى عرش بيت المقدس وأصبح يسمى بلدوين الأول وظل يحكمها زهاء عشرين سنة ، واستولى على الساحل الجنوبي وسيطر على معظم فلسطين وبعد ذلك تكونت حملة صليبية جديدة لم ترقم في كتب التاريخ وتكونت من نحو ٣٠٠,٠٠٠ مقاتل ، وكان معظمهم من الإيطاليين ومن الألمان والنمساويين والفرنسيين ،ولما وصلوا إلى القسطنطينية استقبلهم الإمبراطور (اليكسيوس كومنين) أما ريموند الصنجلي فقد ذهب إلى القسطنطينية ليطلب مساعدة الإمبراطور البيزنطي ليستولى على طرابلس ويؤسس فيها إمارة صليبية وهناك سمع ريموند بوصول جيوش جديدة من أوروبا بقيادة مجموعة من الإيطاليين والفرنسيين ، فلما وصلوا استقبلهم (اليكسيوس كومنين) وطلب منهم أن يتولى قيادتهم (ريموند) وأن يسيروا عبر أسيا الصغرى وبالقرب من سواحلها بعيداً عن السلاجقة ، لكنهم سمعوا بأمر (بوهيمند)

فصمموا على تخليص (بوهمند) وقد أخذ كمشتكين بن دانشمند يستدرج الصليبيين إلى مجاهل وجبال ومرتفعات الأناضول حتى يدمرهم واستطاع فعلا أن يرهقهم بغارات من الخلف والأمام والجانبين ومن يخرج منهم للطعام أو لأي غرض كان يقتل ، فأرهقهم بتلك الطريقة دون معارك حاسمة حتى توغلوا إلى نهر يسمى نهر (قزل إرمق) فعبروه وأجهدوا كثيرا فانقض عليهم (كمشتكين بن دانشمند) حيث نصب لهم كمينا ودمر الجيش الصليبي بأكمله وكانوا أكثر من مئة ألف، فلم ينج إلا بعض الأمراء وعلى رأسهم (ريموند) بعد ذلك جاء جيش فرنسي جديد فهزه كمشتكين بن دانشمند أيضا عند هرقلة ثم جاءت جيوش أخرى ألمانية وقام بنفس الخطة كمشتكين بن دانشمند) وهزمهم فقد كان خلف هرقلة صحراء كان طولها ١٠٠ كم متر وبعدها كان يوجد نهر ، عند ذلك اشتد بالصليبين العطش في الطريق وكمن لهم القائد المسلم كمشتكين على ضفة النهر فعندما أرادوا الشرب منها انقض عليهم المسلمون بالسهام وقتلوهم عن آخرهم فلم يبق منهم إلا بعض الأمراء الذين فروا فهذه الانتصارات كان لها أثر كبير وهو أن الأتراك في أسيا الصغرى [الأناضول] استودوا مكانتهم وسمعتهم الحربية التي فقدوها قبل سنتين من الزمان وأيضا الطريق البري عبر أسيا الصغرى إلى بلاد الشام أصبح مقفلا أمام الصليبين ولم يعد في مقدور الحملات الصليبية القادمة إلى بلاد الشام الوصول إلا عن طريق البحر ، ورغم هذه الانتصارات إلا أنه حدثت انقسامات في آسيا الصغرى ، ذلك أن كمشتكين بن دانشمند) استولى بعد سنتين على ملطيه لكن لما مات انقسمت مملكته بين أولاده أما قلج ارسلان الأول فقد تنازع مع أتابكه الموصل وَقتل وانقسمت أسيا الصغرى بين أتباعه .

توسع الصليبيين

قيام حركة الجهاد

عماد الدين وجهاده

بداية نود أن نشير إلى عاملين أساسين في ضعف الجبهة الإسلامية تجاه الصليبيين

العامل الأول :

هو الانحراف العقدي الذي ساد العالم الإسلامي في المشرق ومن أبرزه ظهور فرقة الإسماعلية وهي من الفرق الشيعية المتطرفة التي تعتقد بأن الإمامة في اسماعيل بن جعفر الصادق وكانت كل الفرق الشيعية سواء الاثنا عشرية أو الإسماعيلة في حقيقتها أنها من أنشاء وتأليف بعض الاشخاص الذين يمتون بصلة لليهود لأن هناك مظاهر يهودية كثيرة إذا قارناها يمكن أن نجد في جذور هذه الطائفة الكثير من المظاهر والترتيبات اليهودية

وقد انبثق عن فرقة الاسماعيلية الدولة العبيدية التي يسميها البعض باسم الدولة الفاطمية وقد انبثق عن الدولة الفاطمية الفرقة الباطنية أو الفداوية وذلك عند وفاة الخليفة الفاطمي المستنصر بالله ٤٨٧هـ حيث حدث خلاف داخل دولة العبيدين في مصر حيث انقسم أهل الدولة بين طائفتين نزاريه مع ابنه نزار الذين يريدون أن تكون الإمامة في نزار والأخرى تؤيد ابنه المستعلي فنشأت طائفة النزارية والمستعلية ولايهمنا سوى أن أشهر الذين ناصروا نزار هو الحسن ابن الصباح وهو رجل فارسي جاء إلى الخليفة المستنصر وتلقى منه أصول المذهب الشيعي ثم عاد إلى غرب إيران وأنشأ طائفته التي قسمها إلى خمسة مراتب بداية من شيخ الجبل وأنتهاء بالفداويه الذين علمهم تعليماً عقدياً وعسكرياً بحيث يطيعونه طاعة عمياء وناصر نزار بعد ذلك

ودرب طائفته تدريباً عجيباً ثم استطاع بعد ذلك أن يسرب بعض دعاته إلى بلاد الشام كي ينشيء في بلاد الشام طائفته الباطنية الذين شكلوا معول هدم في جبهة المسلمين في معظم عصر الحروب الصليبية حتى جرى القضاء عليهم قضاء مبرماً أمام السلطان المملوكي الظاهر بيبرس وكانوا قد استولوا على عدة حصون في أعالي الجبال في جبال النصيريه في سوريا الحالية مثل قلعة جبل أبي قبيس وقلعه مصياف وقلعة القدموس وغيرها من القلاع وأصبح الفدائية في بلاد الشام بزعامة شيخهم يشكلون خطراً عاماً على زعماء المسلمين في بلاد الشام والذين نهضوا بفريضة الجهاد ضد الصليبين .

العامل الثاني :

هو التفكك والتمزق السياسي فما أن نجحت الحملة الصليبية الأولى في الوصول إلى بلاد الشام وهزيمة السلاجقة في بلاد الشام والاستيلاء على بيت المقدس وتأسيس مملكة بيت المقدس الصليبية إلا وكان المسلمون في غاية التمزق والأنقسام فكان في كل من مدن الشام حاكم مستقل بأمره وإن كان أحياناً يعلن التبعية للخليفة العباسي والسلطان السلجوقي كذلك الأمر في بلاد الجزيرة التي تقع بين نهري دجلة والفرات وأحياناً ما يطلق عليها الجزيرة الفراتية خاصة التي تقع بين فروع نهر الفرات ومنها قامت حركة الجهاد ولكنها في وقت قيام الحملة الصليبية الأولى كانت ممزقة بين حكومات مختلفة وبين زعماء متنازعين وأشهر مدن الجزيرة هي الموصل والرها وحران ونصيبين وسنجار وماردين وحصن كيفا وميافارقين وجزيرة ابن عمر وملطية وغيرها ، لكن من هذه الجزيرة قامت حركة الجهاد فبعد القضاء على الحملات الثلاث سنة ٤٩٤هـ التي قضى عليها كمشتكين بن دانشمند والتي لو صلت ربما تغير مجرى الحروب الصليبية ولكان استولى الصليبيون على دمشق وحلب ومن الممكن أن يكونوا قد استولوا على مصر أيضاً وتغير مجرى التاريخ ولكن قضاء كمشتكين بن دانشمند على الحملة الصليبية التي جاءت بعد الحملة الأولى حرم الصليبين من المادة البشرية

التي يمكن أن يستعين بها الزعماء الصليبيون في توسعهم أكثر وأكثر على حساب المسلمين وكان ذلك النقص في المادة البشرية عاملاً مهماً حال دون توسعهم بشكل ساحق على حساب المسلمين ولكن أتراك أسيا الصغرى بعد وفاة كمشتكين بن دانشمند ووفاة قلج أرسلان تمزقت بلاد أسيا الصغرى بين عدد من البيوت الحاكمة التركية والتركمانية وبذلك بدأت حركة الجهاد من الجزيرة الفراتية التي تقع بين دجلة والفرات وإذا نظرنا إلى الأسباب التي جعلت حركة الجهاد تنبع من الجزيرة وجدناها كما يلي :

أولا : أن بلاد الجزيرة الفراتية هي أول بلدان المسلمين في المشرق التي أكتوت بنار الغزو الصليبي عندما أسس بلدوين البولوني إمارة الرها الصليبية وذلك أن الرها تمثل موقعا مهما حيث تقع بين فرعين من نهر الفرات وهي حاليا في تركيا ويشيرون إليها باسم أورفه وكانت تشير إليها المصادر الفرنجية باسم أدسا وقد اهتم بها الصليبيون والسبب هو أن هذه المدينة تعد من المدن المقدسة في عالم النصرانية والنصارى يقدسون الرها بسب أسطوره قديمة تذكر الرواية النصرانية أن ملك الرها زمن المسيح عليه السلام أرسل إلى المسيح يطلب منه شيئا يعالج به المرضى في مدينة الرها فمسح المسيح عليه السلام وجهه بمنديل فانطبعت صورة المسيح بزعمهم في ذلك المنديل ثم أرسله إلى الرها فأخذ ملك الرها يمسح بذلك المنديل على البرصى والعميان فيشفيهم من أمراضهم وأصبح ذلك المنديل مقدسا عند النصارى وجرى الأحتفاظ به في كنيسة الرها فترة طويلة من الزمان ومن هنا حازت مدينة الرها قداسة عند النصارى وكانت هذه المدينة قريبة من العراق وكان من الممكن أن تكون بوابة يطل منها الصليبيون على العالم الإسلامي ويتوغلون حيث يشاؤون فكان ذلك هو العامل الأساسي لتنهض حركة الجهاد من الجزيرة الفراتية لصد الخطر الداهم .

ثانياً :أن منقطة الجزيرة منطقة خصبة يجري فيها نهري دجلة والفرات فتوافرت فيها موارد اقتصادية كبيرة يمكن أن تمد المجاهدين بما يحتاجون إليه من الخيل ورباط الخيل والسلاح ومن الإمكانات اللازمة للجهاد .

ثالثاً : إن منطقة الجزيرة كانت منطقة ثغرية منذ صدر الإسلام عندما أصبحت مناطق ثغور بين الدولة الإسلامية وبين بلاد الروم فأقيمت بها قلاع كثيرة لمواجهة الروم وأصبح لدى أهلها خبرات عسكرية في مواجهة الروم .

رابعاً :ترتب على قيام دولة السلاجقة أن دخل في الإسلام قبائل كثيرة من التركمان وهم من البدو الذين اعتنقوا الإسلام واشتهروا بتربية الخيل وتربية الماشية والقتال والفروسية وخاصة الرمي بالسهام وأعترف بذلك الفرنجة الذين واجهوا التركمان في معركة دور وليوم زمن الحملة الصليبية الأولى،وكثير من تلك القبائل استوطنوا في مناطق الجزيرة فكانت المادة البشرية والعنصر العسكري الذي يمكن أن يقوم بعمل الجهاد متوافرة في الجزيرة فكانت حركة الجهاد معتمدة كل الاعتماد على التركمان وهذا العامل كان من الأسباب التي قد جعلت من الجزيرة قاعدة لبداية حركة الجهاد ضد الصليبين وأول من قام بحركة الجهاد من زعماء الجزيرة هو كربوجا أمير الموصل ومن بعده أراد الصليبيون التوسع في تلك المنطقة وذلك أن كمشتكين أطلق سراح بوهيمند مقابل فدية كبيرة ومقدارها مائة ألف دينار رغم أن الامبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين حاول أن يحصل على بوهيمند من كمشتكين بن دانشمند وعرض عليه فدية بلغت ثلاث مائة ألف دينار لكن كمشتكين رفض ذلك العرض لأنه لو سلمه بوهيمند لربما استطاع الإمبراطور البيزنطي أن يستولى على انطاكية بحيث يتنازل له بوهيمنوند عنها ولو استولت دولة الروم على انطاكية وهي دولة كبيرة جداً لأصبحت تطوق متملكات الدانشمنديين من الجنوب والغرب وفعلاً أطلق سراح بوهيمند مقابل فدية دفعها الصليبيون مقدارها مائة ألف دينار وعاد بوهيمند واستلم

انطاكية من ابن أخته تانكرد الذي كان وصيا عليها خلال أسر خاله وبعد ذلك أراد بوهيمند وابن أخته تانكرد وزعيم الرها الجديد بولدوين لي بورج وجوسلين أمير تل باشر التوسع حيث اتفق الزعماء الأربعة على الاستيلاء على مدينة حران وكانت حران تقع على تقاطع طرق المواصلات بين الشام والعراق وأسيا الصغرى والسيطرة عليها يؤدي إلى قطع الاتصالات بين البلدان الإسلامية الثلاثة كما يعطي للصليبين موقع قاعدة متقدمة يمكن أن ينطلقوا منها عبر نهر الفرات للسيطرة على الموصل ومن ثم التقدم وتهديد بغداد والوصول إلى الخليج العربي وطعن المسلمين في الصميم ولكن يشاء الله أن يشعر بهذا الخطر أميران مسلمان وهما جكرمش أمير الموصل وايلغازي بن أرتق أمير ماردين وبالرغم من أنهما كانا على خلاف على المناطق الواقعة بين ماردين والموصل فاتفق هذان الأميران المسلمان على صد الصليبين وتقدما إلى حران والتقوا بالحملة الصليبية المكونة من أربعة زعماء بقواتهم ودارت المعركة الحامية على نهر البليخ عام ٤٩٧هـ الموافق ١١٠٤م وفي تلك المعركة كانت هزيمة الصليبين ساحقة حيث قتل منهم حوالي عشرة الآف ووقع في الأسر بلدون لي بورج أمير الرها وجوسلين أمير تل باشر وفر بوهيمند وابن اخته تانكرد إلى أنطاكية وبذلك لم ينجح الصليبيون في قطع الاتصال بين العراق والشام وأسيا والصغرى وأوقفت تلك المعركة الزحف الصليبي والتوسع في شمال الشام والجزيرة ثم عاد بوهيمند إلى أوروبا بعد أن ترك ابن أخته نائبا عنه ليعد حملة صليبية جديدة ولكنها ليست ضد المسلمين بل ضد الدولة البيزنطية لأنه اعتقد أن الكسيوس كومنين خائن وهو الذي غرر بتلك الحملات. الثلاث ثم انضم إليه عدد كبير من القادة والفرسان من أوروبا وإيطاليا وقاد حملة صليبية عبر بها البحر الإدرياتي. وهاجم بها الدولة البيزنطية ولكن الامبراطور كان مراقبا لكل خطواته وما أن وصل حتى أنقض عليه الامبراطور ودارت معركة كبيرة حامية وهزم الكسيوس الأمير بوهيمند وقبض عليه وأسره ثم عقد معه معاهدة سميت بمعاهدة ديفول وفيها اعترف بوهيمند بالسيادة البيزنطية على انطاكية وكانت تأتي

حملات صليبية كل سنة فجاءت حملة إنجليزية وجاءت حملة بيزا وجاءت حملة البندقية وكان من ضمن الحملات حملة من النرويج وكان قائدها ملك النرويج ويسمى سيجورد واستعان به بولدوين البولوني واستطاع الاستيلاء على صيدا في عام ٥٠٣/١١٠م .

وبعد صيدا استولى الصليبيون على بيروت وعلى طرابلس وسيطر الصليبيون على ساحل الشام بما فيه صور التي كانت ذات حصانة طبيعية على هيئة لسان داخل في البحر ولم يبق في يد الفاطميين من سواحل الشام سوى عسقلان وظلت حتى عام ٥٤٨هـ .

وكان من الأمراء الذين أصبحوا ولاة و"أتاكبة" على الموصل هو الأمير التركي مودود فحمل راية الجهاد وحاول الاستيلاء على الرها عام٥٠٤هـ وحاصرها لكن الصليبين حصنوها وزودها بكل ما تحتاج إليه من مؤن ووسائل دفاع ثم تقدم مودود لمهاجمة مملكة بيت المقدس الصليبية فاستنجد بلدوين بطرابلس وانطاكية فجاءت المساعدات الصليبية إلى بلدوين أما المسلمون فقد تحاشوا الاصطدام معهم في معركة حاسمة بسبب كثرة جيوشهم وعاد مودود بعد ذلك ودخل دمشق وفي يوم عيد الفطر سنة ٥٠٧هـ اغتيل مودود من قبل أحد رجال الباطنية أو الفدائيين في بلاد الشام وأرسل بولدوين إلى حاكم دمشق يقول فيها " إن أمة قتلت عميدها يوم عيدها حق على الله أن يبيدها " أما في أنطاكية فقد جاء ابن بوهيمند وتولى إمارة أبيه إلا أنه قتل أيضاً في معركة مع غازي ابن كمشتكين وتولى الوصاية على انطاكية بعد ذلك روجر وفي ذلك الحين تقدم المسلمون بقيادة يلغازي بين أرتق أمير ماردين الذي استطاع أن يجند أربعين ألف من التركمان من الجزيرة وتقدم بهم إلى عبر الفرات والتقى بروجر الأنطاكي والصليبين سنة ٥١٣هـ في معركة دامية في مكان يسمى البلاط وكان روجر قد أرسل يستعين بملك بيت المقدس وأمير طرابلس والصليبين في الرها وخاض

المعركة قبل أن تصله الأمدادات وكان معه حوالي خمسة الاف وفي تلك المعركة قتل الجيش الصليبي وأبيد بالكامل وأنسحب ايلغازي وعاد إلى ماردين وتولى الجهاد بعد ذلك ابن أخيه ويسمى بولك ابن بهرام بن ارتق واستطاع بولك أن ينصب كميناً لجيش جوسلين الثاني وأسره وجاء بولدوين الثاني لنجدته فأسره وبذلك أصبحت ثلاث أمارات خالية من أمرائها بعد مقتل روجر وأسر جو سلين وبولدوين ملك بيت المقدس ولكن جوسلين تمكن من الخروج من الأسر بمساعدة الأرمن وعمل على إطلاق سراح بولدوين ملك بيت المقدس وبعد بولك تولى أمر الجهاد اقسنقر البرسقي وحاصر الرها وحاول مساعدة حلب التي تقدم الصليبيون واحاطوا بها من جميع الجهات ووصلوا إلى درجة أنهم أهانوا المسلمون داخل حلب وذكر بعض المؤرخين أن الصليبين عندما وصلوا إلى قرب حلب دخلوا إلى المقابر ونبشوها حتى أنها عثروا على ميتٍ دفن في وقت قريب لم يتحلل بعد وأخذوه وربطوه في حصان وأخذوا يقولون يا مسلم هذا نبيك محمد ووجدوا في أحد المشاهد التي توضع على القبور في حلب مصحف فجاء أحد الصليبين وخرق هذا المصحف وربطه في ذيل حصانه والحصان يتغوط عليه ويصرخ على المسلمين ويقول هذا كتابك يا مسلم وذلك دليل عل أنها حرب دينية حاقدة على الإسلام وبعد حوالي ثلاثين عاماً على الاستيلاء على الرها اغتيل اقسنقر البرسقي أيضاً على يد الباطنية عام ٥٢٠ هـ وهذا يبين مدى خطورة هذه الطائفة. التي أصبحت توجه سهامها وخناجرها المسمومة إلى زعماء الجهاد وأصبحت تشكل خطراً على المسلمين في بلاد الشام وعلى كل زعيم ينهض للقتال أو الجهاد ضد الصليبين وبذلك تنتهي المرحلة الأولى للجهاد ضد الصليبين وهي التي لم تثمر عن نتائج مهمة بسبب التفكك والانقسام الذي ساد صفوف المسلمين في بلاد الشام وفي بلاد الجزيرة إلى أن يظهر عماد الدين زنكي الذي يضع اللبنه الأولى لإقامة جبهة إسلامية متحدة ضد الصليبين .

ظهور عماد الدين زنكي وجهاده ضد الصليبيين :

بظهور عماد الدين زنكي بدأ نوع من توازن القوى بين المسلمين والصليبيين فمنذ أن بدأت الحملة الصليبية الأولى وإلى أن جاء عماد الدين زنكي إلى الموصل كان ميزان القوى يميل لصالح الصليبين بسبب إنحلال وتمزق الدولة الفاطمية في مصر بالإضافة إلى المذهب الإسماعيلي الباطني الذي ظهر وانتشر والذي كان يشكل معول هدم في ظهر الأمة الإسلامية وبسبب الانقسامات السياسة والتمزق بين الحكام المسلمين .

التعريف بعماد الدين زنكي :

هو ابن قسيم الدولة اقسنقر الحاجبَ وكان اقنسقر الحاجب من مماليك السلطان ملك شاة ومن المقربين إليه وجاء السلطان .ملك شاة إلى بلاد ا لشام في عام ٤٧٩هـ وقسم بلاد الشام بين قادته وأمرائه كأقطاعات حربية فاقطع قسيم الدولة اقسنقر الحاجب حلب وما يتبعها ، وبسبب نظام الاقطاع الحربي لم يكن للسلطان جيش كبير دائم التواجد معه أنما كان يقطع السلطان امراءه وقادة جيشه المناطق والولايات المختلفة ولايدفع رواتب لهم ولكن الأمير الذي استولى على منطقة معينة يقوم باستثمار تلك المنطقة وتوزيعها أيضا قطع صغيرة على قادته وعلى جنوده ليقوموا بتشغيل المزارعين فيها ويعيشون منها وعلى كل أمير أن يقدم مقابل ذلك ما عرف باسم الخدمة الحربية وهي في وقت الطوارئ يطلب السلطان أن يأتي القائد بجيشه فيأتي مجهزا بكامل أسلحته ومعداته وينضم إلى السلطان فكان اقسنقر الحاجب صاحب حلب وكان عليه مقابل ذلك أن يقدم إلى السلطان خدمة حربية حيث يأتي بجيش مكون من أربعة الآف فارس وقت الحرب،ظل اقسنقر يتولى حلب حتى مات السلطان ملك شاه وحدث الانقسام وانضم إلى تتش ولكنه عاد أراد أن ينفصل عنه فقتله توتش عام ٤٨٧هـ ولما مات خلف ابنا واحدا وهو عماد الدين زنكي وكان سنة

وعند وفاة والده إحدى عشر سنة فكفله كربوجا أمير الموصل وبعد موت كربوجا أصبح عماد الدين زنكي شابا وعمل جنديا في خدمة أمراء الموصل الذين جاءوا بعد كربوجا وأظهر زنكي خلال ذلك شجاعة منقطعة النظير في ميادين القتال ولما وقعت معركة طبرية بين مودود وبين الصليبين بزعامة بولدوين ملك بيت المقدس أظهر فيها زنكي شجاعة نادرة فأُطلق عليه زنكي الشامي ثم ارتفعت مكانته بعد ذلك وولاه السلطان السلجوقي ولاية البصرة ثم ولاهُ وظيفة الشحنة وهي تشبه رئاسة الشرطة في بغداد وبعد أن أغتيل اقسنقر البرسقي وساءت أحوال الموصل وأصبح المواصلة يتوقعون البلاء صباحا ومساء من قبل الصليبين ذهب وفد من أعيان الموصل إلى السلطان محمود بن محمد وطلبوا منه أن يولي على الموصل رجلا ذا قدرة يستطيع أن يقف أمام أطماع الصليبين وأشاروا إلى عماد الدين زنكي فولاه على الموصل عام ٥٢١هـ وأرسل مع الأمير عماد الدين زنكي ولدا صغيرا له وزوج عماد الدين زنكي من مطلقته والدة ذلك الأمير الصغير وعهد إليه بتربيته ولذلك عرف عماد الدين زنكي منذ ذلك الوقت باسم الأتابك وتعني الأمير الوالد ودولته عرفت باسم الدولة الأتابكية.وتولى عماد الدين زعامة الموصل،وعرف أنه لا يمكن التعامل مع أولئك الزعماء بالتعاون ولا بد من إنشاء جبهة إسلامية تقف أمام الصليبين ولا يمكن ذلك إلا بالقضاء على الإمارات المستقلة في سائر المناطق فاستولى على حران ونصيبين وسنجار من الأراتقة وأصبح في مواجهة إمارة الرها الصليبية ، ولما ضعفت حلب وتدهورت أسرة رضوان وحدث صراع داخل حلب استدعى الحلبيون عماد الدين فجاء سنة ٥٢٢هـ وضم حلب إلى الموصل ووضع أول أساس جبهة إسلامية امتدت بين الموصل وحلب واستطاع عماد الدين زنكي أن يسترد بعض المناطق من الصليبيين منها المعرة ومنها تل أغدي وكفر طاب ومن هنا بدأت مكانته ترتفع بين المسلمين وفي ذلك الحين مات السلطان السلجوقي محمود وقام النزاع بين ابنه داود وبين أعمام داود الذين نازعوه الإمارة وانغمس الخليفة العباسي في ذلك النزاع وأراد أن يستغله

للتخلص من سيطرة السلاجقة فاستنجد السلطان داود بعماد الدين الزنكي وانشغل عماد الدين لعدة سنوات بمشكلة الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية ثم عاد بعد عدة سنوات إلى الشام وأخذ يعمل على مد الجبهة الإسلامية المتحدة من حلب إلى حمص وإلى دمشق ولكنه توقف بسبب الخلافات في الشرق بين السلاجقة والذين كان تابعاً لهم من الناحية القانونية وأضطر إلى المشاركة في ذلك والعودة للمرة الثانية ولكنه عثر على قائد كفء يسمى سوار بن ايتكين فولاه على حلب وكان مخلصاً لعماد الدين ونهض بعبء الجهاد ضد الصليبين وذكر المؤرخون أنه أثناء غياب عماد الدين في الموصل وفي العراق قام سوار بن ايتكين ومن معه من جنود حلب وهاجم إمارة انطاكية الصليبية ، وتوغل فيها وأنزل بالصليبين هزائم متتالية حتى أنه قتل منهم عدداً كبيراً وعاد إلى حلب ومعه ستة الآف أسير ومائة ألف رأس من الماشية من الأغنام والأبقار وبعد ذلك تمكن عماد الدين زنكي من الانتهاء من تلك المشكلة التي اشغلته لفترة من الزمن وعاد بعد ذلك إلى الشامورواجه الخطر الصليبي المستمر على بلاد الشام وفي ذلك الحين واجه عماد الدين زنكي خطراً داهماً لم يكن يخطر على باله وهو خطر إمبراطورية الروم (أو الإمبراطورية البيزنطية) والسبب في ذلك أن الإمبراطور اليكسيوس كومنين اعتبر انطاكية من أملاكه وبعد أن مات الكسيوس كومنين تولى ابنه الإمبراطور حنا كومنين وكان لا يقل عن أبيه في كفايته وأراد أن يستعيد انطاكية من الصليبين ويستعيد مدن قيليقية من الأرمن وحشد جيشاً كبيراً بلغ عدده أكثر من ثلاثين ألف وفجأة وصل إلى قيليقية وعندما وصل هرب أمير الأرمن ويسمى ثوروس الأول وتعلق بأحد الجبال وعند ذلك أسقط في يد ريموند بواتيية أمير انطاكية وشعر أنه لا قدرة له على مواجهة ذلك الجيش الضخم واجتمع معه الإمبراطور البيزنطي كما جاء أيضاً جوسلين الثاني الذي أصبح أميراً على الرها وريموند الثاني الذي أصبح أميراً علي طرابلس فتناقشوا وجرى الاتفاق على القيام بحملة صليبية بيزنطية مشتركة ضد عماد الدين زنكي بحيث يستولى الصليبيون والبيزنطيون على حلب وحمص وعلى

دمشق وتقام فيها إمارة صليبية يتولى أمرها ريموند بواتييه أما انطاكية فتسلم بالكامل إلى الامبراطورية البيزنطية ولو تحقق ذلك لانتهى الأمر لصالح الصليبين ولربما تغير مجرى الحروب الصليبية بأكملها وبذلك واجه عماد الدين زنكي خطراً داهماً وتقدمت الجيوش الصليبية والبيزنطية بزعامة الإمبراطور حنا كومنين والإمراء ريموند بواتييه وريموند الثاني وجوسلين الثاني وتقدموا للاستيلاء على حلب وفي ذلك الوقت لم يكن لدى عماد الدين جيش كبير يستطيع به مواجهة تلك الجيوش الكثيفة ولكن عماد الدين كان كثير الذكاء يشن هجمات على أطراف الجيش الصليبي البيزنطي هجمات خاطفة سريعة دون مواجهة حاسمة لكي لايقع في معركة غير متكافئة، كما حصن حلب.وكانت هذه الحملة عام ٥٣٢هـ ولم يستطع الامبراطور البيزنطي الاستيلاء على حلب وقد صمدت حلب رغم أن هؤلاء الأمراء كانوا مصممين على الاستيلاء على حلب وبعد أن علم الامبراطور البيزنطي أن التركمان استغلوا غيابه وأخذو يغيرون على بعض المدن البيزنطية فترك حلب واتجه لحصار مدينة شيزر وبها إمارة عربية هي إمارة بني منقذ وكان يحكمها في ذلك الحين سلطان بن على بن منقذ وكانت تقع على مرتفعات على نهصر العاصي وكان المنجنيق يقذف بالأحجار حتى أن أسامة بن منقذ ذكر في كتابه الأعتبار أن حجراً آخر وقع على رجل فهشم رأسه وأن حجراً وقع وهشم فقتل عدة رجال وخلال الحصار البيزنطي لشيزر تقدم عماد الدين عن قرب للجيش الصليبي وأخذ عن طريق جواسيس تابعين له يراسل الامبراطور البيزنطي سراً ويراسل الصليبين سراً ويقول للإمبراطور البيزنطي مذكراً بغدر الصليبيين وخيانتهم للإمبراطور البيزنطي وأن النورمان في انطاكية لم يعيدوا تلك المدينة لهم وحذر الأمبراطور من غدرهم وفي نفس الوقت أرسل جواسيس سراً داخل المعسكر الصليبي يحذر الأمراء الصليبين من الامبراطور البيزنطي ويقول لهم لو سيطر الأمبراطور على بلد في بلاد الشام لما أصبح لكم معه مقام فأوقعت هذه المراسلات الشك والريبة في صفوف البيزنطيين والصليبين كما أن عملاء عماد الدين زنكي داخل

المعسكر النصراني أثاروا الشك والريبة بين البيزنطيين والصليبيين وفي نفس الوقت أرسل رسالة مكشوفة إلى الامبراطور البيزنطي والأمراء الصليبين ويقول فيها لقد تحصنتم مني في أعالي هذه الجبال ولكن انزلوا إلى السهل ونتقابل في معركة حاسمة إما تهزموني وتستريحون مني أو أهزمكم واستريح منكم ولم يكن عماد الدين جاداً في ذلك العرض وأنما يريد أن يوقع بنيهم وكان هؤلاء الأمراء جوسلين الثاني وريموند بواتية وريموند الثاني يعرفون أنهم إذا نزلوا في معركة حاسمة سوف يهزمون عماد الدين زنكي لأن الجيش البيزنطي الصليبي يتفوق على جيش عماد الدين بأكثر من سبعة أضعاف وطلبوا من الامبراطور أن ينزل الجميع في معركة حاسمة لكن الإمبراطور تردد وخاف من غدر الأمراء الصليبين .خاصة وأنه قد بعُد عن بلاده وعاصمته القسطنطينية وخشى عاقبة الدخول في معركة حاسمة فتحل عليه الهزيمة وبالتالي ينقطع هو وجيشه في الشام ففضل عدم المجازفة وحدث نفور بينه وبين هؤلاء الزعماء وأستغل العرض الذي قدمه في ذلك الحين أمير شيزر سلطان بن على بن منقذ حيث أرسل إلى الامبراطور البيزنطي هدايا ومجموعة من الخيول الأصيلة وتعهد له أن يدفع له جزية سنوية وأن يقدم له مائدة مرصعة بالجواهر وصليب من الذهب الخالص والذي قد فقدته الأمبراطورية البيزنيطية في معركة ملاذكرد التي خاضها الامبراطور رومانوس الرابع ضد الب أرسلان وفُقد هذا الصليب الامبراطوري وبيع في شيزر فأصبح في أيديهم ولما عرض ابن منقذ تلك العروض قبلها الإمبراطور البيزنطي ورفع الحصار عن شيزر ثم عاد إلى انطاكية ورفع أعلامه داخل انطاكية فخرج جوسلين خارج أسوار القلعة وحرض سكان انطاكية فاشتبكوا مع جيش الامبراطور فانسحب إلى قيليقية وفي قليقية وهو في رحلة صيد قُتِل واستطاع عماد الدين زنكي بتلك السياسة التي تتصف بالدهاء والمكر التخلص من ذلك الخطر الذي كاد يهدد بلاد المسلمين ولما فشلت هذه الحملة أخذ عماد الدين زنكي يوسع الجبهة الإسلامية المتحدة إلى الجنوب فاستطاع أن يستولى على حمص واستولى على حماه وتقدم بعد ذلك للاستيلاء على دمشق ولكنه

تقدم إلى بعلبك وحاصر بعلبك حصارا قويا وصمدت حامية بعلبك في وجهه واستمرت هذه الحملة تحاصر بعلبك واستطاع المدافعون .من فوق الأسوار انزال خسائر كثيرة بجيش عماد الدين زنكي وقتلوا عددا من قادته ولما اقتحم بعلبك وهو في ثورة غضب فقتل حامية بعلبك ولما ذهب للاستيلاء على دمشق كان الدمشقيون يخشون المصير نفسه ولذلك قام الدمشقيون وصمدوا مع أمير دمشق في ذلك الحين وهو معين الدين أنر ووقفوا في وجه عماد الدين زنكي فلم يستطع التقدم أكثر من ذلك وفي ذلك الحين استعان معين الدين أنر بالملك الصليبي فولك الأنجوي وريموند الثاني وجاؤا لنجدته والتقاهم عماد الدين زنكي عند بلدة بارين وأنزل بهم الهزيمة وحاصر الملك الصليبي فولك الأنجوي في داخل بارين ووقع ريموند الثاني (أسيرا) لدى عماد الدين زنكي فأرسل الملك الصليبي يطلب النجدات من يت المقدس ومن انطاكية وطرابلس فعلم عماد الدين زنكي عن طريق جواسيسه بخروج تلك النجدات وربما حاصرته من الداخل ومن الخارج وعند ذلك عقد اتفاقا مع الملك الصليبي وهو أن يطلق سراح من في بارين ويسمح لهم بالخروج ومن معهم ويطلق ريموند مقابل أن يدفعوا لعماد الدين زنكي مبلغ خمسين ألف دينار وجرى الاتفاق على ذلك .

استرداد الرها :

كان استرداد الرها من أهم أعمال عماد الدين زنكي وكان المركز الأساسي له هو الموصل وإمارة الرها تشكل خطورةً على خطوط مواصلاته وكانت الرها في ذلك الحين تحت حكم الأمير الصليبي جوسلين الثاني الذي كانت أمه أرمنية وهو ابن جوسلين الأول وعند ذلك أخذ عماد الدين زنكي يرصد تحركاته وكان جوسلين الثاني قد تحالف ضد عماد الدين زنكي مع الأراتقه في ماردين وكانت الرها لا تغيب عن بال عماد الدين ليلا ونهارا ولذلك عمل على اسقاط الرها والاستيلاء عليها والقضاء على أول أمارة صليبية واستطاع جواسيس عماد الدين الزنكي أن تأتيه بالأخبار وهي أن

جوسلين اعتاد على الخروج من الرها إلى تل باشر غربي الفرات وهو مكان نزية وفيه أماكن للصيد ويقضي معظم وقته بعيدا عن الرها فعند ذلك وحتى لا يعود جوسلين إلى الرها أشاع عماد الدين أنه سيذهب لقتال الأراتقة في ماردين حتى يركن جوسلين الثاني لتلك الانباء وجهز جيشه من حلب واتجه إلى الشمال الشرقي متجها إلى ملوردين وعندما وصل إلى أقرب نقطة من الرها انحرف من الطريق نحو الرها واتجه بسرعة إلى الرها وكان ذلك في ربيع الأخر عام ٥٣٩هـ فوصل إلى الرها وأنقض عليها وإلقى عليها الحصار وظل يحاصرها أربعة أسابيع ويضربها بالمنجنيق وكان معه فريق من النقابين أما جوسلين فلما سمع ذلك لم يجروء على الذهاب للقتال ضد عماد الدين زنكي وإنما ارسل يستنجد بمملكة بيت المقدس وإمارة انطاكية وإمارة طرابلس أما عماد الدين فظل يحاصر الرها أربعة أسابيع ويضربها ليل نهار بحجارة المنجنيق إلى أن تمكن النقابون الحلبيون في نهاية المطاف من أحداث ثقوب في أسفل أسوار الرها وجمعوا فيها الحطب وأشعلوا الحطب وأنهارت أجزاء من السور وتدفقت قوات جيش عماد الدين زنكي داخل الرها وفتحها في ٢٦ من جماد الأولى عام ٥٣٩هـ ديسمبر ١١٤٤هـ وبعد أن فتحها عماد الدين عمل على الفصل بين النصارى الشرقيين والنصارى الغربيين بعد أن حدث تزواج بينهم وكانوا يشكلون العامل البشري وظهر منهم جيل جديد عرفوا باسم المولدين وأصبح الغريبون بسبب قلة المادة البشرية الغربية يعتمدون على النصارى الشرقين فأراد عماد الدين التفريق بين الجانبين كي يعمل على شق الجبهة النصرانية في نهاية المطاف فلذلك قتل الكاثوليك الصليبين الذين داخل الرها أما النصارى الشرقيين من الأرمن السريان واليعاقبة فكان يعاملهم معاملة حسنة وأمر جيوشه أن لا يقتلوهم وأن يردوا ما أخذوه منهم وقام فعلا بتلك السياسة ولما سقطت الرها جاءت النجدات ولكن كان قد فات الأوان وسقطت الرها بيد عماد الدين زنكي في ذلك العام ٥٣٩ هـ وكان لسقوط الرها دوى هائل في العالمين الإسلامي والنصراني فالعالم الإسلامي شعر بنشوة النصر لأن أول إمارة صليبية قامت

سقطت وبذلك انهارت اللبنة الأولى في الكيان الصليبي الدخيل وهـذا يـأتي إيذانـا بسقوط بقية ذلك الكيان وإنهياره وبالنسبة للعالم النصراني شـعر بـالذعر والخـوف لسقوط إمارة من أهم الإمارات الصليبية وأن ذلك يعني بداية التصدع في كيان الصليبيين في بلاد الشام لذلك لا تعجب أن يكون هناك رد فعلي قوي يأتي من قبل الغـرب هـو الحملة الصليبية الثانية .وحصن عماد الدين زنكي الرها وأعاد ما تهدم من أسـوارها وجعل داخل مدينة الرها حامية قوية فالمعروف أنه في كل مدينة قلعة داخـل المدينـة فجعل عماد الدين في داخل القلعة حامية من جنوده ومن أخلص أصحابه للمحافظـة عليها وعاد إلى الموصل ولكنه سمع أثناء ذلك أن الأرمن يريدون اسـتدعاء جوسـلين الثاني من تل باشر وعلم بذلك فعاد مسرعا إلى الرها وقتل المتأمرين وطرد عدداً كبـيرا من سكان الرها الأرمن لأنهم تعاطفوا مع جوسلين حيث كانت أمـه أرمنيـة فكـان الأرمن يعتبرونه نصف ارمني وأخرج الأرمن من الرها أما السريان واليعاقبـة فقـد أبقاهما ولكن في نفس الوقت قام باستقدام ثلاث مائة أسرة من اليهود وأسـكنهم في الرها لأن من المعروف أن اليهود في ذلك الحين ألد أعداء النصارى كان هناك عـداء مستحكم بين اليهود والنصارى ويقول الله سبحانه وتعالى :﴿ يا أيها الذيـن أمنـوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ﴾ .

وهذا الولاء لم يحدث في هذه العصور التي جاء فيها عماد الديـن ولا صـلاح الدين ولكن كان المقصود بها ما سيحدث فيما بعد وحدث ذلك بعد عشـرة قـرون حدثت ما عرف بحركة البروتستانت التي قادها مارتن لوثر في أوروبا والـذي اتبعـه معظم الشعب الأمريكي والإنجليزي والألماني وهذه الحركة التي قادها مارتن لوثر بـدأ من هناك التواد بين اليهود والنصارى وأصبح بعضهم أولياء بعض وهذا من إعجـاز القرآن الكريم الذي أخبر بأمر لم يكن موجودا وإنما سيحدث فيما بعد أمـا في زمـان عماد الدين زنكي فكان هناك عداء شديد بين اليهود والنصارى وعاد بعد ذلك عمـاد

الدين إلى الموصل وخلال ذلك أراد أن يواصل جهوده في بناء الجبهة الإسلامية المتحدة في الاستيلاء على دمشق فسار إلى بلاد الشام وكان هناك قلعة صغيرة على نهر الفرات تسمى قلعة جعبر وكان فيها إمارة عربية مستقلة تتبع لرجل اسمه سالم العقيلي اقطعها له السلطان ملك شاه وظل ابناؤه يتوارثون تلك القلعة ولم تكن تابعة لعماد الدين وكانت تشكل شوكة في خاصرته فأراد التخلص منها فحاصرها وذلك كان سنة ٥٤١ هـ وظل يحاصرها عدة أيام وخلال ذلك انقض عليه أحد غلمانه واغتاله في أحد الليالي ويسمى ذلك الغلام يرنقش قيل أنه من أصل فرنجي فأغتال عماد الدين زنكي وبذلك انتهت حياة ذلك الرجل الذي يعد من أشجع الرجال والذي قام بأسقاط إمارة الرها وحقق مجدا عظيما له ولأسرته حتى أن الخليفة العباسي أرسل له منشورا ببلاد الشام وبكل ما يفتحه يكون مستقلا فيها ولقبه المنصور الغازي وعندما مات عماد الدين زنكي انقسمت مملكته بين أبنيه سيف الدين غازي وتولى الموصل ونور الدين محمود وتولى حلب وكان الأبن الأكبر هو سيف الدين وكان الحد الفاصل بينهما نهر الخابور وكانت الرها لما مات عماد الدين تابعة للابن الأكبر سيف الدين وإذا كان ذلك التقسيم قد أضعف الجبهة الإسلامية المتحدة إزاء الصليبين إلا أنه في نهاية المطاف خدم قضية الجهاد وذلك أن نور الدين محمود تفرغ لمشكلات الصليبيين والجهاد ضدهم في بلاد الشام وتوسيع الجبهة الإسلامية المتحدة بينما انصرف أخوه سيف الدين لمعالجة مشكلة الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية وما يتعلق بها.ما إن مات عماد الدين زنكي حتى أخذ أعداء الدولة الزنكية يتأمرون عليها وظنوا أنهم يستطيعون استعادة ما فقدوه لحساب تلك الدولة وكان على رأس أولئك جميعا جوسلين الثاني الذي ما أن سمع بذك حتى اتصل بالأرمن الذين عند مدينة الرها واتفق معهم على أن يأتي إليهم سرا ويستولون على الرها واتفقوا على ذلك ورسموا خطة وعند ذلك جاء إليهم ليستولى على الرها لكن الحامية داخل الرها (الحامية الزنكية) ظلت صامدة وعندما سمع سيف الدين غازي الأبن الأكبر لعماد الدين وسمع نور الدين

محمود بذلك سارا نحو الرها لتخليصها من خطر جوسلين ويذكر المؤرخون أن نور الدين أسرع بجيشه حتى أن الدواب من الخيل والجمال بركت من شدة النصب فوصل إلى الرها قبل أن يتمكن منها جيش جوسلين والقى عليها حصارا شديدا وعند ذلك شعر جوسلين بالخطر فأراد الأنسحاب ولكن اشتبك معه نور الدين وقتل ثلاثة أرباع الرجال الذين كانوا مع جوسلين ودخل إلى الرها واستولى عليها وقتل كل الأرمن الذين داخلها واستقدم إليها جماعات من التركمان والأتراك وأقاموا فيها وبذلك زال هذا الخطر الذي كاد أن يمحو ذلك المجد الذي حققه عماد الدين زنكي. بعد ذلك عندما وصل سيف الدين غازي وجد أخاه نور الدين قد استرد الرها وكانت الرها تابعة لسيف الدين فتنازل له عنها وأصبحت الرها تابعة لنور الدين محمود وبذلك أظهر نور الدين محمود من الحنكة والقدرة العسكرية رغم أنه كان في التاسعة والعشرين من عمره ما جعل أعداء الدولة الزنكية يشعرون بالخطر وأنهم أمام رجل لا يقل عن أبيه عماد الدين زنكي ولم يكتفه نور الدين باسترداد الرها وأنما واصل الجهاد ووجه هجماته من حلب إلى إمارة انطاكية الصليبية وبدأ يسير على سياسة والده فنجح في ٥٤١ هـ في الاستيلاء على عدة قرى كانت تابعة لإمارة انطاكية الصليبية مثل بسرفوث وأرتاح والأثارب وغيرها وبذلك شعر الصليبيون بأن نور الدين لا يقل خطرا عن والده زنكي ولذلك أخذوا يتطلعون إلى الحملة الصليبية الثانية القادمة لأنقاذهم كما عمد نور الدين محمود إلى سياسية رائعة خالف بها سياسية والدهُ ذلك أن والده عماد الدين زنكي كان قد اشتد مع معين الدين أنر (حاكم دمشق القوي) مما جعل معين الدين يتحالف مع الصليبين ويعقد محالفة مع ملك بيت المقدس الصليبي حتى أن معين الدين بلغ مستوى يصل لدرجة الخيانة عندما ذهب إلى القدس وقابل الملك الصليبي بلدوين الثاني فأستقبله استقبالا حافلا وقدم له الهدايا وقام بعقد التحالف مع معين الدين ضد عماد الدين زنكي. لكن نور الدين عمد إلى سياسة مختلفة وهي أنه أراد أن يفك الارتباط الذي قام معين الدين أنر حاكم دمشق القوي وبين

مملكة بيت المقدس الصليبية لذلك بدأ نور الدين في مراسلة معين الدين أنر وتـــرددت الوفود بين حلب ودمشق لتهدئة النفوس ولم الشمل وانتهى الأمر باتفاقية صلح بـــين نور الدين ومعين الدين أنر حاكم دمشق وذلك في ٥٤٢ هـ وتوج هـــذا الاتفـــاق بزواج نور الدين محمود من ابنة أونر. كان يريد نور الدين من ذلك الزواج أن يتقرب من معين الدين أونر لعل دمشق تؤول إليه ويستولى عليها وبالتالي تقام جبهة إســـلامية متحدة داخل بلاد الشام يمكن أن تواجه الصليبين الذي يســـيطرون علـــى الســـاحل الشامي من انطاكية شمالا إلى غزة جنوبا،ولكن هذا التحالف نظر إليه معين الدين أونـــر بأنه يحميه من نور الدين من ناحية ويلوح به أمام الصليبين حتى لا يطمعون في دمشـــق من ناحية أخرى وبذلك استطاع معين الدين أنر أن يسترد مدينة بعلبك بعـــد مقتـــل عماد الدين زنكي ولكنه لم يغامر بمحاولة استرداد حمص وحماه خوفا من ابناء عمـــاد الدين زنكي نور الدين وسيف الدين وبعد ذلك أخذت الأمور منحىً آخـــراً بســـبب مسأله حوران وهم قريبة من دمشق وكانت تابعة لدمشق إلا أن هناك حاكم تركـــي يسمى التونتاش كان يحكم قلعتين هما بصرى وصرخد وأراد أن يستقل فذهب إلى بيت المقدس يطلب مساعدة الصليبين ليستقل عن دمشق وطلب منهم أن يسلمهم بصـــري وصرخد على أن يساعدوه على الاستقلال بمنطقة حوران ووافق أمراء بيت المقـــدس على هذا ا لعرض واستعدوا لإرسال جيش لتنفيذ تلك الخطة لكن معين الدين أونـــر عندما علم بذلك لم يجد بدا من الاستعانة بنور الدين ولذلك لما زحف الصليبيون وعلى رأسهم الملك بولدوين الثالث الذي كان قد بلغ سن السادسة عشرة من عمره قاصدين حوران عام ٥٤٢ خرج معين الدين أنر للتصدي لهم وأرسل يستنجد بصـــهره نـــور الدين الذي جاء من حلب لنجدته ومعه قواته وفي الوقت الذي وصل فيه الصليبيـــون إلى بصري كان معين الدين أونر قد اجتمع بنور الدين عند صرخد ومن هنا أســـرعا للإستيلاء على بصرى قبل أن يستولى عليها الصليبيون وبعد أن تم لهم ذلك استسلمت لهم صرخد وهاتان القلعتان مهمتان جدا وذلك لو استولى عليهما الصليبيون لهـــددوا

دمشق تهديدا خطيرا وبذلك فشل الصليبيون في ما كانوا يهدفون إليه أمام تحالف نـــور الدين مع معين الدين أونر. عند ذلك أخذ الصليبيون يعلنون ندمهم على تفريطـهم في ذلك التحالف الذي كان قائما مع معين الدين أنر واستمر الوضع بهـــذا الشـــكل . وتسارعت الأحداث لتأتي الحملة الصليبية الثانية .

الحملة الصليبية الثانية وفشلها

نور الدين وجهاده ضد الصليبيين

إقامة الجبهة الإسلامية المتحدة

جاءت الحملة الصليبية الثانية رد فعل على استرداد عماد الدين زنكي لإمارة الرهـــا وذلك أن سقوط الرها وهي أول إمارة صليبية إقامها الصليبيون داخل بلاد المســلمين سوف يثير حماسة المسلمين للقضاء على بقية الإمارات الصليبية أيضاً نظــراً للمكانــة الدينية والقداسة التي كانت لمدينة الرها عند النصارى فكان لاسترداد عماد الدين لهــا دوى هائل في الغرب الأوروبي إذا رأي البابا يوجين الثالث وغيره من ملوك أوروبــا في ذلك إيذاناً لبداية أفهار الوجود الصليبي في بلاد الشام لذلك نجد البابا يرسل منشــوراً يدعو إلى عقد مجمع ديني وفي ذلك المجمع الديني الذي حدث في مدينـــة فــيزي لاي حضره راهب مشهور وهو من أشهر الرهبان في أوروبا في ذلك الحين هو الراهب سان برنارد كليرفو وكان يتميز بفصاحة عجيبة لايقل في ذلك عن البابا إيربان الثاني وعــن بطرس الناسك وكنا قد أشرنا في ذلك الحين إلى أن الحروب الصليبية هي حرب عالميــة كبرى شنتها أوروبا ضد المسلمين وهي ليست قاصرة على ميدان واحد .

وفي هذا الوقت الذي تأتي فيه الحرب الصليبية الثانية هذا لا يعنى أن الحــروب كانت محصورة في الشام فحسب بل إنه في ذلك الوقت في عام ٥٤١هـــ استولى الصليبيون في غرب أوروبا على مدينة أشبونه ومدينة المرية في الأندلس وغيرها (وهذا موضوع لا شك أنكم درستموه) .وبالإضافة إلى هذا أيضاً في وسط البحــر الأبيــض المتوسط في الأقليم الجنوبي قام النورمان عام ٥٣٧هـ بحصار مدينة طرابلس الغرب في أفريقيا وفي عام ٥٤١هـ استولى روجر الثاني ملك النورمان على مدينـــة طرابلــس بالإضافة إلى بعض المراكز في شمال إفريقية وسواحل تونس الحالية ليس هذا وحســب بل أنه في ذلك الحين تبدأ حركة كبرى أو ما يمكن أن نسميه المشروع الاستشـــراقي

الأول الذي قامت به أوروبا النصرانية لدراسة الإسلام والذي قام بذلك العمل هو رئيس دير كلوني بطرس المبجل وكان صديقاً للراهب برنارد أوف كليرفو وقام بطرس المبجل بمشروع كبير وهو ما سماه بترجمة الإسلام فقام بترجمة رسالة عبد المسيح الكندي الرسالة المليئة بالتلفيقات والأفتراءات على الإسلام ثم شغّل خمسة من المترجمين وترجموا له القرآن وبعض الأحاديث الصحيحة والموضوعة يريد بذلك أن يجعل أمام الأوروبيين صورة للإسلام ولكن صورة مشوهة للرد عليه لأنه نظر إليه باعتباره هرطقة وهو أول مشروع استشراقي كبير قامت به أوروبا لدراسة الإسلام وبطرس المبجل كان مؤيداً للحرب الصليبية إلا أنه في رسائل عديدة إلى الراهب برنارد كيلرفو يوضح سبب قيامة بذلك المشروع حيث أوضح أنه في الوقت الذي يؤيد فيه الحروب الصليبية ضد المسلمين إلا أنه لفت انتباه الراهب برنارد كيلر فو إلى أن الحروب الصليبية أهملت ما يجب أن يكن في نظره الهم الأكبر للعالم النصراني وهو تنصير المسلمين فيجب أن تتجه الحرب الصليبية لتنصير المسلمين. حرب عالمية على كل مستوياتها حرب عسكرية وحرب فكرية ومن هنا بدأت البذرة الأولى لحركة الاستشراق والتنصير .على أية حال عقد المجمع الديني في مدينة فيزلاي في فرنسا في عام ٥٤١هـ وخطب في ذلك المجمع الراهب برنارد كليرفو وكان فصيحاً جداً وأحضر معه كمية كبيرة من القماش وماكاد ينتهي من خطابه حتى صاح الحاضرون الذين حضروا تلك الخطبة لبرنارد كليرفو يطلبون الصلبان وعلى الفور سارعوا في خياطة الصلبان من ذلك القماش على صدورهم ولما انتهى ذلك القماش خلع برنارد كيلرفو ملابسه الخارجية ليقطعوا منها وصلات لخياطتها على هيئة صليب على صدورهم ومن هنا طاف الراهب برنارد كليرفو في غرب أوروبا يدعو إلى حرب صليبية جديدة وتجهزت أوروبا الغربية وقاد الحملة في ذلك الحين أكبر عاهلين في الغرب الأوربي وهما لويس السابع ملك فرنسا وكونراد الثالث أمبراطور المانيا والتي تسمى الإمبراطورية الرومانية المقدسة وكان لويس السابع في الخامسة والعشرين من

عمره وكان قد أقسم أن يقوم بالحملة الصليبية لأنه أثناء الحروب الداخلية في فرنسا هاجم مدينة من الخشب واشعل فيها النار فقتل على أثره ثلاثة عشر ألف من البشر وتكفيراً عن هذا الذنب الذي رأي أنه اقترفه أقسم ونذر بأن يقوم بحرب صليبية فلما جاءت الدعوة كان الملك الفرنسي أول من نهض بتلك الحملة أما كونراد الثالث أمبراطور المانيا وهو ينتمي إلى أسرة عرفت في التاريخ عرفت باسم أسرة هوهنشتا وقن وقام ومعه الكثير من الأمراء وقامت حملة كبيرة جدً أما روجر الثاني ملك النورمان في صقلية فقد عرض على الصليبين نقلهم بالأسطول النورماني إلى سواحل الشام لأن النورمان كانوا في صقلية وجنوب إيطاليا وكان لديهم أسطول كبير وقوي جداً لكن الملك الفرنسي شعر بأن روجر الثاني هدفه ليس خدمة الكنيسة فقط ولكن له أهداف أخرى يريد بذلك أن يكون له يد في تلك الحملة وبالتالي يسترد ملك النورمان على مدينة انطاكية لأن انطاكية حكمت فيها أسرة بوهيمند النورماني وكونستانس بنت بوهيمند الثاني تزوجت من رجل فرنسي هو ريموند بواتييه وهو عم ملكة فرنسا اليانور فأصبح يسيطر على مدينة انطاكية أمير فرنسي هو ريموند بواتيه وصياً على ابنه الذي انجبه من كونستانس حتى يكبر ويتولى بأعتباره في نظرهم الوريث الشرعي للإمارة الصليبية ولذلك رفض ملك فرنسا عرض روجر الثاني ملك صقلية وكما قلنا أن روجر الثاني كان يقوم بحروب صليبية ضد المسلمين في شمال أفريقيا أما كونرادا الثالث فقد رفض أيضاً عرض روجر الثاني بسبب المنافسة بين الألمان والنورمان في صقلية على بعض الممتلكات وسار الملكان الأوربيان كونراد الثالث أمبرطور ألمانيا التي كانت تسمى الامبراطورية الرومانية المقدسة ولويس السابع ملك فرنسا وقد فصلت المصادر الصليبية الأوروبية في عدد الجيوش واعطت أرقام كبيرة جداً وكذلك المصادر الإسلامية ولكن أقل الأرقام وأقل الروايات التي يعتمد عليها الباحثون المحدثون أنه كان مع كل ملك من الملكين مالاً يقل عن سبعين ألف بمعنى أن جيوشهم بلغت نحو مائة وخمسين ألف واتجهت الحملة براً سالكة نفس الطريق التي سلكته الحملة الصليبية

الأولى وكان لابد أن تمر بـ القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية وفي ذلك الحين كان الامبراطور البيزنطي هو ما نويل كومنين بن حنا بن الكسيوس هو الذي قد تولى عرش الامبراطورية وكان في ذلك الحين مشتبكاً في حرب مع سلاجقة الروم المسلمين في أسيا الصغرى الذين كان سلطانهم في ذلك الحين هو مسعود الأول بن قلج أرسلان حيث تقدم مانويل كومنين بقواته من غرب الأناضول ووصل إلى مدينة اكشيهير وانتصر على السلاجقة ثم تقدم إلى مدينة قونية عاصمة سلاجقة الروم لحصارها والاستيلاء عليها وجرت معركة كبيرة تكبد فيها الجانبان خسائر ثقلية لدرجة أنه خلال تلك المعارك قام بعض الروم بنبش قبور المسلمين لكن في تلك الأثناء وقبل أن تحسم الحرب بين سلاجقة الروم وبين الدولة البيزنطية سمع الامبراطور مانويل بقدوم الحملة الصليبية الكبيرة القادمة من أوروبا فعقد صلحاً وهدنة مع السلطان مسعود توقف خلالها القتال وعاد إلى عاصمته القسطنطينية خوفاً عليها وخوفاً على بلاده من جحافل الصليبيين القادمين من أوروبا ووصل إلى القسطنطينية فلما سمع قادة الحملة الصليبية الثانية بذلك الصلح الذي عقده الامبراطور مانويل كومنين فصدموا لذلك الصلح واعتبروه خيانة للقضية الصليبية لكونه صلح مع أحد سلاطين المسلمين وكان لهذا أسوأ الأثر في نفوسهم ودائماً ماكان الصليبيون يفسرون كثيراً من تصرفات الدولة البيزنطية التي تمليها عليها مصالحها الخاصة يفسرونها تفسيراً خاصاً بهم ويعتبرون ذلك خيانة للقضية الصليبية وكانوا يريدون أن تتصرف دائماً بما يحقق المصالح الصليبية الخاصة .

وسار الامبراطور الألماني كونراد الثالث متجهاً إلى أسكي شهر أي إلى دورولیوم على نفس الطريق الذي سلكته الحملة الصليبية الأولى وفي ذلك الحين استفاد السلاجقة من تجربة أسلافهم وأبائهم في المعركة الأولى معركة دورولیوم قبل نحو خمسين عاماً ، فلم يواجهوا الجيش الالماني وأنما عمد السلطان مسعود إلى خطة محكمة حيث أخفى جنوده خلف التلال وخلف الجبال المحيطة وجاء الجيش الالماني بعد

أن قطع مرحلة طويلة ولما وصل إلى اسكي شهر ولم يجد أمامه احد عند ذلك تـأكد أن المكان خال وعسكر الجيش الإلماني ومن كثرة طول الرحلة دخل كثير مـــن الجنـــود والفرسان في نوم عميق ولما خيم الهدوء والسكون على الجيش الألماني وإذا بمسعود بـن قليج أرسلان ينقض بجموعه في هجوم صاعق مفاجئ على الجيش الألماني وأباد تســعة أعشار الجيش الالماني وفر الامبراطور كونراد الثالث في فلول قليلة عـــائدا إلى غـــرب أسيا الصغرى ثم مرض كونراد وعاد إلى القسطنطينية .

والحقيقة أننا إذا تأملنا في تاريخ الحروب الصليبية نجد أن الكثير من الخســـائر كانت من نصيب الصليبين حتى في استرداد الصليبين لعكا خلال الحملة الثالثة تكبـدوا كثيرا من الخسائر في الرجال والعتاد ومع ذلك يصرون على أن تلك الحروب الحـاقدة على الإسلام والمسلمين على أنها حرب مقدسة رغم أنهم دائما كانوا يتكبدون أضعاف ما كان يخسره المسلمون في القتال معهم. سار الملك الفرنسي لويس السابع وواجـــه بعض قبائل التركمان في الطريق وتكبد بعض الخسائر ولكنه نجح في الوصول أخيرا إلى ميناء انطالية التي كانت خاضعة للإمبراطور البيزنطي ويتولى حكمها رجـــل إيطـــالي يسمى لا ندولف وكان واليا للإمبراطور فكان قد تلقى أوامر من الامبراطور مـــانويل كومنين بتزويد الصليبين بما يحتاجون إليه وكان قد وصل المؤرخ الإلماني أوتوفرايزنجـين إلى ذلك المكان ، ولما قرر الملك الفرنسي الارتحال إلى الشام فكان أمامه طريقين إما أن يسلك الطريق البري عبر جبال طوروس ومناطق قيليقية وهذه مناطق وعرة جدا حيث لا يوجد في جبال طوروس إلا طرق ضيقة جدا وقد تقع في الجيش الفرنسي خســـائر كثيرة وخاصة وأنه يوجد قبائل كثيرة من التركمان في الطريق بالإضافة إلى الأرمـــن أو أنه يسلك الطريق البحري مباشرة من إنطاليه إلى انطاكيه ولكن المشكلة التي واجهتـــه بالسير عن طريق البحر أنه لم يكن لديه سفن حتى يتنقل بها بحرا من انطالية إلى انطاكيـة فأستأجر بمساعدة والي انطاليه البيزنطي بعض السفن وانتقل وهو وحاشـــيته وكبـــار

أمرائه إلى انطاكية وعادت السفن ونقلت العديد من الأمراء والفرسان إلى انطاكية غير أنه بقيت أعداد كبيرة من الجيش الفرنسي لم يستطيعوا دفع أجور الانتقال إلى انطاكيه وعاملهم البيزنطيون في انطالية معاملة سيئة وسلبوهم نقودهم ، وظلوا خارج انطالية حتى اشتد بهم الجوع والمرض ، فعطف الاتراك السلاجقة عليهم وقدموا لهم الطعام والنقود والعلاج فتأثر الفرنسيون بتلك المعاملة فاعتنق الإسلام منهم ثلاثة الاف رجل ، وانضموا إلى السلاجقة في أسيا الصغرى حتى أن أحد المؤرخين الفرنسيين الذي رافق الحملة كتب منتقداً الامراء الفرنسيين الاغنياء الذين تركوا إخوانهم في أسيا الصغرى في حالة يرثى لها حتى عطف عليهم السلاجقة فدخلوا في الاسلام أما لويس السابع ملك فرنسا فقد استقر به المقام في انطاكية واجتمع مع ريموندبواتييه امير انطاكيه وريموند الثاني أمير طرابلس وجوسلين الثاني أمير الرها السابق وتشاور معهم في الجهة التي يجب أن تتجه إليها الحملة واختلف الأمراء الثلاثة على اتجاه الحملة فكان كل واحد منهم يفكر كيف يستفيد من الحملة لحسابه الخاص فأشار ريموند بواتييه إلى أن تتجه الحملة مباشرة إلى حلب لطعن دولة نور الدين في قلبها ، وطلب جوسلين الثاني أمير الرها السابق والذي كان يقيم في تل باشر في غرب الفرات في ذلك الحين وجاء إلى انطاكية وطالب الملك الفرنسي بأن تتجه الحملة إلى الرها وأن هذه الحملة ماقامت أساساً إلا بسبب سقوط الرها في أيدي المسلمين .

أما ريموند الثاني أمير طرابلس فاراد أن يستغل الحملة لمصلحته الخاصة وهي أن تتجه الحملة إلى بارين في شرق العاصي التي كانت تابعة لإمارة طرابلس الصليبية واسترد ها عماد الدين زنكي من الصليبين واحتار الملك الفرنسي في تلك الأراء المتعارضة وفي نفس الوقت راجت شائعات أساءت إلى كرامة وشرف الملك الفرنسي لويس السابع وكان معه امرأته اليانور وكان عمها أمير انطاكية ريموند بواتييه فراجت شائعات في انطاكية بأن اليانور كانت على علاقة غرامية مع عمها ريموند بواتييه وأنهما

شوهدا في جلسات بينهما وفي مواقف عاطفية وراجت هذه الشائعات وعند ذلك تـأثر لويس السابع وشعر بأن كرامته قد امتهنت فعند ذلك استغل وصول بطريك بيـــت المقدس الذي جاء إلى انطاكية ليخبر الملك الفرنسي بأن الامبراطور الألمـــاني كونـــراد الثالث وصل بالأسطول البيزنطي بحرا إلى عكا وأنه مع إمراء بيت المقدس في انتظـــاره عند ذلك سار لويس السابع بقواته إلى بيت المقدس واجتمع بالإمـــبراطور كونـــراد الثالث وأمراء المملكة الصليبية وتناقشوا في وجهة الحملة . واستقر القـــرار علـــى أن تتجه الحملة الصليبية إلى دمشق وعندما سمع بذلك معين الدين أونر اخذ بحشد قواتـــه في دمشق وأرسل إلى القلاع والحصون التابعة في الغرب وفي الشـــمال أو في الشـــرق يطلب من الحاميات القدوم لمساعدته للتصدي لتلك الحملة الصليبية وأرسل يســـتنجد بنور الدين واخيه سيف الدين والتقى الأخوان في حلب وأخذا يبحثان مـــا يجـــب أن يفعلاه للتصدي لتلك الحملة .

وصلت الحملة الصليبية إلى دمشق والقوا عليـــها الحصـــار وذلـــك في عـــام ٥٤٣هـــ من الجهة الغربية وفي هذه الجهة يجري فيها نهر بردي وهو في منطقة الغوطـــة وهي منطقة خصبة جدا وتكثر فيها البساتين وشددوا الحصار من تلك الجبهة ولكـــن صمد الدمشقيون حتى أن معين الدين أونر أعلن عن جائزة وقدرها مائة دينار لمن يـــأتي برأس صليبي فكانوا يشنون عليهم حرب العصابات ويقتلون منهم ما يقتلون وعندمـــا وجد أمراء تلك الحملة صعوبة القتال من ناحية الغرب قرروا الانتقـــال بالحملـــة إلى ناحية الشرق ولكن واجهوا مشكلة وهي عدم وجود الماء فواجهوا مشكلة العطـــش وكان ذلك في شهر يوليو وهذا الشهر من أشد شهور الصيف حرارة وكان ذلـــك في عام ٥٤٣هـــ .

أرسل نور الدين وأخوه سيف الدين رسالة إلى معين الدين أونر قالا فيها أنهمـــا أعدا الجيش ولكن طلبا منه أن يفتح لهما أبواب دمشق حتى يمكنهما مقاتلـــه الحملـــة

الصليبية خارج دمشق فإذا كانت الهزيمة علينا دخلنا دمشق واحتمينا بأسوراها وتحصنا بها وإن هزمناهم عدنا إلى بلادنا وتركنا لك دمشق. وكان معين الدين أونر يخشى من دخول جيوش نور الدين وأخيه إلى دمشق لأنهم إذا دخلوا إلى دمشق لن يتركوها أبدا وهذا ما كان يحلم به نور الدين محمود وأبيه عماد الدين زنكي من قبل حتى يمكن لهما إقامة جبهة إسلامية متحدة تكون موازية لقوة الصليبين فتمهل أنر عليهم في الرد وقام بإرسال رسالة إلى الصليبين وقال فيها ها هو ملك الشرق قادم فإن لم تتركونا سلمت إليه دمشق وأنتم تعلمون أنه إذا تسلم دمشق لما بقى لكم معه في بلاد الشام مقام. فهم كانوا يعلمون أنه إذا امتدت جبهة إسلامية بين حلب ودمشق والموصل فسوف تمدد الإمارات الصليبية ومملكة بيت المقدس وعرض أنر في نفس الوقت على أمراء بيت المقدس أنهم إذا انسحبوا سوف يعطيهم قلعة بانياس وهي تقع على هضبة الجولان وهي قلعة حصينة جدا وبسبب موقعها المرتفع جدا فهي تشرف على الجليل وعلى فلسطين وعلى بيت المقدس وبالفعل طلب أمراء بيت المقدس الانسحاب كما اختلف الإمراء الصليبيون على الغنيمة قبل حصولهم عليها فكان الأمراء الفرنسيون يريدون أن يؤسسوا في دمشق إمارة صليبية جديدة تابعة لهم ، بينما كان أمراء بيت المقدس يريدون ضم دمشق إلى بيت المقدس ولذلك تبادل الفريقان التهم فيما بينهم وعادت الحملة الصليبية إلى بيت المقدس بعد أن تسلم أمراء بيت المقدس قلعة بانياس من مندوب معين الدين أونر واصبحوا قريبين من دمشق وكان ذلك في عام ٥٤٣هـ وعاد كونراد الثالث إلى أوروبا وأقام لويس السابع بعدة لمدة ستة أشهر ولم يقم فيها بأي شيء يذكر وعاد بحملته إلى أوروبا وبذلك تكون قد فشلت الحملة الثانية فشلا ذريعا ولم تحقق أي نتائج للصليبين .

أما موقف المسلمين فأنهم اكتشفوا أنهم كانوا يخشون أوهاما خادعة إذ كانوا يتصورون أنهم إذا ضغطوا على الصليبين كثيرا ونجحوا في استرداد الإمارة الصليبية

سوف تأتي حملات جديدة من أوروبا تهددهم فاكتشفوا أنهم كانوا يخشـــون أوهامـــا خادعة وأن الصليبين لا يستطيعون المرابطة لمدة طويلة وأخذ نور الدين بعد ذلك يعمل بقوه على جهاد الصليبين . أما الصليبيون في الشام فقد وجدوا أنه يجب عليـــهم أن لا يعتمدوا على الإمدادات التي تأتيهم من الغرب بل يعتمدون على أنفسهم وساد هنـــاك رأي بأنه يجب تحسين العلاقات بالإمبراطورية البيزنطية لعلها تســـاعدهم في مواجهـــة المسلمين .عاد سيف الدين إلى الموصل بعد أن فشلت الحملة وقام ريموند بواتية أمـــير انطاكية الصليبي بمهاجمة حلب وتصدى له نور الدين محمود عام ٥٤٣هـ عند منطقـــة العمق غربي حلب وأنزل به الهزيمة وجمع ريموند بواتييه قواته مرة أخـــرى وتحـــالف في ذلك الحين مع علي بن وفا زعيم الباطنية الاسماعلية في بلاد الشـــام الذيـــن يســـمون الفدائية أو الحشاشين تحالف معه واتحدت قوات انطاكية الصليبيـــة بزعامـــة بريمونـــد بواتيية وعلى بن وفا والتقى بهم نور الدين محمود غربي حارم وفي تلك المعركة استطاع نور الدين تطويق القوات المتحدة من الباطنية ومن ريموند بواتية وأبادهم عن آخرهـــم وقتل ريموند بواتيية وقتل على بن وفا زعيم الباطنية وأرسل رأس ريموند بواتييه وذراع علي بن وفا اليمنى في صندوق من الفضة إلى الخليفة العباسي وقطع ذراع علي بن وفـــا كناية عن أنه قطع ذراع الباطنية في بلاد الشام .

إنشاء نور الدين المدارس للأستئصال المذهب الشيعي:

أنشأ نور الدين المدارس السنية على المذاهب الأربعة الحنفية والشافعية والمالكية والحنابلة وانتشرت المدارس على قدم وساق عن طريق نور الدين محمود . كان يـــرى أنه لابد من تعليم الجيل الجديد العقيدة الصحيحة على القرآن والسنة ونجح نور الديـــن ومن بعده صلاح الدين استئصال المذهب الشيعي الإسماعيلي من بلاد الشام ومصر .

نور الدين وضم دمشق:

مات سيف الدين غازي في الموصل وخلفه أخوة قطب الدين الذي كان يملك حمص فتنازل لنور الدين عن حمص مقابل تنازل نور الدين عن سنجار في أقليم الجزيرة وأصبح عند ذلك نور الدين وجها لوجه أمام دمشق وحدث أن توفى معين الدين أونر حاكم دمشق القوى الذي كان وصياً على ملكها الصغير القاصر مجير الدين أبق من الأسرة البورية فتولى مجير الدين أبق الحكم وكان أحمقا لا يعرف في أمور السياسة شيئا وفي نفس الوقت استطاع نور الدين أن يتقرب إليه ويتودد إليه لعلهُ يحصل على طريق يستولى بها على دمشق وراسل بعض أمراء مجير الدين آبق واستمالهم إليه.أيضا مجير الدين أبق بسبب حمقه وضعفه تواصلت اتصالاته مع الصليبين سيما مع مملكة بيت المقدس وأصبح خاضعا لملك بيت المقدس بولدوين الثالث الذي بلغ سن الرشد وتولى أمور المملكة وأصبحت مملكة دمشق تدفع الأتاوة أو الجزية لمملكة بيت المقدس وصار يأتي كل عام مندوب من بيت المقدس لاستلام الجزية وأصبح المسلمون يؤدون الجزية للفرنج وبدا وكأن دمشق تحت الحماية الصليبية .

وقام مجير الدين أبق بوضع الضرائب غير الشرعية على الناس من سكان دمشق حتى يتمكن من دفع الجزية للصليبين ومن هنا ضج الناس من ظلمة وعسفه وأستغل نور الدين محمود تلك الظروف للإستيلاء على دمشق وفي نفس الوقت حققت بيت المقدس مكسبا مهما ، عندما حاصر بولدوين الثالث مدينة عسقلان وهي آخر ميناء بقي بيد الفاطميين على سواحل الشام ومن هنا استنجدت عسقلان بنور الدين لمساعدتها فأرسل يعتذر لأنه لا يستطيع أن يأتي إلى جنوب الشام لمساعدتها لأن دمشق لا تزال في يد البوريين وهم أعداء يخاف أن يأتوا من خلفه فاعتذر بذلك فسقطت عسقلان في يد الصليبين سنة ٥٤٧هـ وبذلك سيطر الصليبيون على ساحل الشام بأكمله .استطاع نور الدين أن يوقع بين مجير الدين أبق وبين قادته فكان يراسل

مجير الدين ابق ويخبره أن بعض قادته يراسلوه ويعرضون عليه تسلّم دمشق وعند ذلك اخذ مجير الدين أبق يشك في من حوله وأخذ يتخلص من قادته الواحد تلو الأخر واستطاع نور الدين أن يسرب بعض أصحابه إلى داخل دمشق ومنهم نجم الدين ايوب بن شادي والد صلاح الدين وأخاه أسد الدين شيركوه فسربهم إلى دمشق ودخل كثير من أنصاره وعند ذلك أصبحت دمشق مثل الثمرة الناضجة التي حان سقوطها وحان قطافها وهذا ما حدث بالفعل فجاء نور الدين ودخل إلى دمشق واستولى عليها بعد أن فتح أصحابه وعملاؤه داخل المدينة الأبواب وذلك في عام ٥٤٩هـ وأخرج مجير الدين أبق واقطعة حماة وبعض المناطق ولكنه أخذ يدبر المؤامرات ضد نور الدين ثم بعد ذلك عزله عنها واقطعة الزبداني (قرية غربي دمشق) وتأثر مجير الدين أبق وترك الاقطاعية وذهب إلى بغداد واختار النفي الاختياري وظل في بغداد حتى مات .

عندما دخل نور الدين إلى دمشق أخذ يتقرب لأهلها وأمر التجار من حلب وسائر المناطق الخاضعة له من الموصل أن يأتوا بالقوافل والتجارة إلى دمشق وكثرت السلع والمؤن بشكل كبير ورخصت الأسعار وقام بأسقاط الضرائب التي كانت مفروضة على السكان قبل دخوله دمشق حتى أنها كانت تصل إلى خمسة وأربعين بالمئة ٤٥% يأخذها مجير الدين أبق وكذلك في كل البلدان التي لم تخضع لنور الدين واتخذ نور الدين سياسة شرعية وهي أنه طبق القرآن والسنة وشريعة الإسلام على كل ما كان يستولى عليه وألغى الضرائب في سائر البلدان والمناطق التي خضعت له والتي بلغت أكثر من خمسمائة ألف دينار أي نصف مليون دينار اسقطها كلها وما أبقى إلا ما فرضه الإسلام مثل الزكاة والعشور والجزية على أهل الذمة وبعد ضم دمشق أصبحت بذلك الجبهة الإسلامية المتحدة تعادل الكفة التي بيد الصليبين الذين يسيطرون على كل السواحل الشامية وبعد ظروف مختلفة سيطر نور الدين على الموصل وبعد وفاة أخيه قطب الدين .

حدثت تطورت كثيرة داخل الإمارات الصليبية ومن تلك التطورات أنه بعد مقتل ريموند بواتيية أصبحت إمارة انطاكية خاضعة لكونستانس الأرملة الحسناء التي كانت في الثانية والعشرين من عمرها ولم يكن في مقدور امرأة أن تدير إمارة كبيرة وتحارب نور الدين وجاء ملك الصليبين بولدين الثالث إلى انطاكية بوصفة السيد الأعلى على الإمارات الصليبية وعرض على الملكة الشابة عددا من الأزواج لتتزوج بأحدهم حتى يتولى شؤون الإمارة ويدافع عنها وكلما عرض عليها واحدا رفضته وفي نفس الوقت أرسل الإمبراطور مانويل كومنين أبن عم له في الرابعة والخمسين ليتزوجها فلما وصل إلى انطاكية ورأته رفضته وأخيرا فتحت قلبها لشاب فرنسي تخلف من بقايا حملة لويس السابع ملك فرنسا واسم ذلك الشاب "رينودي شاتيون " وهو المعروف في المصادر العربية باسم " أرناط " وهو شاب شجاع ولكنه كان احمقا اشتهر بالطيش وشدة التهور لذلك ما أن تزوج بالأميرة كونستانس حتى قبض على بطريك انطاكية عموري الذي حرض كونستانس على عدم الزواج منه ووضعه في الشمس الحارقة وضربة وأهانه .ثم تحالف مع الدولة البيزنطية ضد الأرمن في قيليقية ، ثم قلب موقفه رأسا على عقب وتحالف مع ثوروس أمير الأرمن وقام في سنة ٥٥١هـ بغارة مدمرة على جزيرة قبرص التابعة للدولة البيزنطية وارتكب فيها أعمالا مشينة من القتل والهتك والنهب ضد السكان النصارى ، حتى أنه اتخذ له ولجنوده قلائد من أذان البيزنطيين الذين قتلهم في قبرص .

وغضب الإمبراطور مانويل كومنين عندما سمع بالخبر والعمل الأحمق الذي قام به ارناط فقرر الامبراطور أن يقوم بحملة ضد ارناط في انطاكيه وجهز جيشا بلغ ثلاثين ألفا وحشد قواته في سرية وعبر أسيا الصغرى عبر إنطاليا متجها إلى انطاكية ولكن في الطريق رآه حاج أوروبي كان قادما من أوروبا وذهب إلى انطاكية وأخبر ارناط وسمع

ارناط بأمر الحملة وأرسل إل بولدوين الثالث يخبره بذلك فلم يقـــدم بولديـــن أيـــه مساعدة لأنه اعتبره مسؤولا عما حدث بسبب غارته المدمرة على قبرص .

ووصل الإمبراطور إلى قليقية واسترد طرسوس وأذنه المصيصه وفر ثـــوروس ولجأ إلى أحد الكهوف في جبال طوروس وعند ذلك دبر أرناط أمر الخروج من تلـــك الورطة وفجأة وإذا به على باب خيمة الامبراطور يلبس ثياب التوبة من الخيش عـــاري الرأس حافي القدمين رابط في عنقه حبل ودخل على الامبراطور قابضاً سـيفه وسـلم الامبراطور سيفه من مقبضه وأخذ يبكي ويسترحمه وانبطح على بطنه أمام الامـــبراطور فأخذته الشفقة به ولكن كان يريد أن يهينه فضربة على عجيزته ثلاث ضربات بـــاطن السيف واقامه وعفا عنه وعندما وصل الامبراطور ما نويل كومنين إلى انطاكية فتحـــت له أبوابها وكان راكبا على فرسه وعلية التاج المرصع بالذهب والجواهر وارناط يمشـــى أمامه أخذا بلجام فرس الامبراطور كأنه هو سائس الفرس المطيع وخلفه الملك بلدويـــن الثالث بدون تاج ودخل الامبراطور إلى انطاكية وارتفعت الإعلام على انطاكية اعـــلام الامبراطورية البيزنطية وكأن الامارات الصليبية جميعا تابعـــة للإمـــبراطور البـــيزنطي وعقدوا اجتماعا في انطاكية وطالب بولدوين الثالث بمهاجمة إمارة نور الدين والقضـــاء عليه وعلى خطره وشعر نور الدين بالخطر لأنه كان لا يريد الدخول مع الامـــبراطور اليزنطي في حرب ويريد على الأقل أن يفصل بين الروم وبين الصليبين فأرسل هدايـــا إلى الامبراطور مانويل كومنين وعرض عليه الصلح مقابل أن يطلق عددا كبـــيرا مـــن الأسرى الصليبين كانوا محتجزين في قلعة حلب ووافق الامبراطور مانويل على ذلـــك لأنه يعرف أنه لو قضى على نور الدين وتخلص الصليبيون من نور الدين فـــإنهم في نهايـــة المطاف سوف يرفضون سيادة الامبراطورية البيزنطية عليهم وأنهم لا يذعنـــون بتلـــك السيادة وتلك التبعية إلا حين يشتد عليهم الضغط من نور الدين فأراد أن يبقى ذلـــك الخطر قائما عليهم ليبقى اعترافهم بسيادة الامبراطور ووافق على عرض نور الديـــن

وعقد معه الهدنة وعاد إلى بلاده . أما ارناط فرغم أنه خضع للإمبراطور البيزنطي وأعلن تبعيته للإمبراطور إلا أنه لم يكف عن سياسة التهور والطيش فكان أن قام بغارة عميقة ضد بلاد المسلمين تجاوز فيها منطقة حلب ووصل إلى الجزيرة وعبر الفرات فاستولى على ما قابله من ماشية وقتل الرعاة وعاد إلى انطاكية فعلم بذلك نور الدين عن طريقة الجواسيس فجهز فرقة لتقطع عليه خط الرجعة إلى انطاكية .

فما أن عاد بما سرقه ونهبه من الجزيرة متجها إلى انطاكية واذ بفرقة من عسكر حلب تطوقه وتسترد كل ما أخذه من غنائم وتوقعه في الأسر وأخذ وألقى به في قلعة حلب وظل فيها أسيرا نحو ستة عشر عاما .

وبعد ذلك حدث أن بوهيمند الثالث أمير انطاكية بلغ سن الرشد وتولى تشؤون الإمارة وفي ذلك الحين حدثت حوادث كثيرة منها أن جماعة من التركمان الرعاة جاءوا بخيولهم إلى حدود مملكة بيت المقدس الصليبية عند مراعي بانياس في منطقة الجولان وطلبوا من ملك بيت المقدس بلدوين الثالث أن يأذن لهم أن يرعوا في تلك المراعي وإذن لهم أن يرعوا خيولهم وبذل لهم الأمان وعندما رأي الصليبيون كثرة الخيول التي مع التركمان طمعوا فيها ونقضوا العهد وهاجموا أولئك الرعاة وسلبوا ما معهم من الخيول مماجعل نور الدين يقوم للانتقام من ملك بيت المقدس وحاصر مدينة بانياس واستولى عليها واسترد ما أخذه الصليبيون من أولئك التركمان وردها . وفي عام ٥٥٢هـ حدثت حادثة جعلت الصليبين يستولون على بانياس ذلك أنه في ذلك العام حدث زلزال وكان مركز الزلزلة هو مدينة حلب وتهدمت كثير من البيوت وتهدمت قلعة شيزر فوق رؤوس بني منقذ .وانشغل نور الدين في أعادة بناء ما تهدم بسبب الزلازل واستغل ذلك الصليبيون واستردوا بانياس ذات الموقع المهم ومما ساعدهم على استردادها أن نور الدين أصيب بمرض حتى أشرف على الهلاك وراجت الشائعات بأن نور الدين توفي أو على وشك أن يموت واستغل بلدوين الثالث ذلك

الأمر وجاء بجيشه واسترد بانياس واستولى عليها وظلت بأيدي الصليبين حتى عاد نور الدين بعد سبع سنوات واستردها منهم .

قيام الجبهة الإسلامية المتحدة ووضع الصليبيين بين شقي الرحى أو فكي الكماشة :

كانت معظم البلاد التي كانت في جنوب الشام بما فيها فلسطين بالكامل وسواحل الشام من طرابلس شمالا إلى عسقلان جنوباً كانت كلها بيد الفاطميين وخسروها جميعا لحساب الصليبين.والدولة الفاطمية كما رأينا لم تستطع أن تواجه الصليبين بنفس مستوى مواجهة الاتراك في الشمال للصليبين لذلك بعد الهزائم التي تلقتها في أعقاب الحملة الصليبية الأولى لم يتمكن القادة الفاطميون من السير لمواجهة الصليبين ودخلت الخلافة الفاطمية العبيدية في طور الضعف والاضمحلال وأصبح منصب الوزارة محل نزاع وتناحر بين العديد من رجال الدولة العبيدية .

تطلع الصليبيين إلى السيطرة على مصر :

قام بلدوين الأول بغارة على مصر ولكن كانت غارة استطلاعية ولم تنجح محاولته وبعد ذلك قام بلدوين الثالث في أحد المرات بغارة وصل فيها إلى بلبيس ولولا فيضان النيل لربما استولى على القاهرة فكان الصليبيون يطمعون في الاستيلاء على مصر ومات بلدوين الثالث في ذلك الحين وتولى أخوه عموري الأول وسار على نفس سياسة أخيه بلدوين الثالث لمحاولة الاستيلاء على مصر. ولما سيطر على منصب الوزارة ضرغام هرب شاور إلى بلاد الشام وكان نور الدين قد اتخذ دمشق عاصمة له وقابل نور الدين في دمشق وطلب منذ أن يساعده في استرداد منصب الوزارة من ضرغام وأن يعينه على ذلك وتعهد له بأن يصبح نائبا عنه في مصر وأن يدفع له ثلث خراج مصر وأن يقطع جيشه وقادته الاقطاعات في مصر،وتردد نور الدين في ذلك حتى أنه ظل يستخير شهرا كاملا وأخيرا عزم على أن يتدخل في شؤون مصر،فكان يخشى أن

تقع مصر في أيدي الصليبيين فهم أقرب لها منه وكان نور الدين يرغب في أن يسيطر على مصر ليتزود بأموالها وثرواتها وما تدخره من رباط الخيل يمكن الإفادة منه في قضية الجهاد .

وبعد أن تردد نور الدين في التدخل في شئون مصر استقر رأيه بعد أن صلى صلاة الاستخارة على إرسال نجده لشاور بقيادة قائده أسد الدين شيركوه بن شاذي الذي كان معه في تلك الحملة ابن أخيه صلاح الدين بن أيوب بن شاذي وكان لايزال شابا في السابعة والعشرين من عمره وجنديا في جيش نور الدين .

وسارت الحملة بقيادة أسد الدين شركوه ومعه شاور متجهة إلى مصر سنة ٥٥٩هـ وعند بلبيس خرج ضرغام لمواجهته ولم يصمد أمام جيش نور الدين وانهزم وقتل وعند ذلك دخل شاور إلى مصر وتسلم الوزارة مرة أخرى وعاد إلى المنصب الذي فقده لحساب ضرغام وعندما استولى على منصب الوزارة أراد أن يتنكر لعهوده لنور الدين وان يتخلص من ذلك الجيش الذي جاء به من الشام لمساعدته الذي كان يقوده أسد الدين شيركوه فلما طالبه شيركوه بالأموال التي تعهد بها رفض شاورتقديم ما تعهد به وطالب شيركوه بالإنسحاب منمصر.

عند ذلك تقدم شيركوه إلى بلبيس واستولى عليها ، فأرسل شاور إلى الملك الصليبي عموري الأول يستنجد به ضد جيش نور الدين الذي يقوده شيركوه ، فجهز عموري حملة كبيرة لنجدة شاور ضد شيركوه وسار عموري بحملته متجها إلى مصر ليحول دون وقوعها بيد جيش نور الدين من ناحية ، وطمعا في الأموال التي وعده بها شاور من ناحية أخرى .

ولما وصل عموري الأول إلى مصر تقدم وحاصر بلبيس وحاصر أسد الدين شركوه في بلبيس وكان نور الدين قد أرسل يستنجد بعدد من القوات المسلمة فأرسل إلى الموصل وأرسل إلى فخر الدين قرا أرسلان الأرتقي صاحب حصن كيفا وإلى ابن

عمه صاحب ماردين وكان نور الدين حريصا على التمسك بالكتاب والسنة فكان يؤدي الفروض في أوقاتها وكان كثير الصيام كثير العبادة ، وقد عرف القاصي والداني من المسلمين سيرته وجهاده وعبادته. وعندما وصلت رسالة نور ا لدين إلى فخر الدين قرأ أرسلان قال لأصحابة لقد تحشف نور الدين من كثرة الصوم والصلاة فلذلك يلقي بنفسه إلى التهلكة ولن أنجده وتركه أصحابه بعد أن رأوا عزمه على عدم نجده نور الدين وفي الصباح التالي وجدوا المنادي ينادي في المدينة بأنه عزم على الجهاد فذهبوا إليه وقالوا له ما عدا مما بدا تركناك على حال بالأمس نرى الآن ضدها فقال لهم إن نور الدين استعمل معي طريقة إن لم أنجده خرجت البلاد من يدي فقد كتب إلى العلماء والفقهاء يأمرهم بحث الناس على الجهاد فكانوا يجتمعون في المساجد يدعون علىّ فإن لم أنجده خرجت البلاد من يدى ، وهكذا خاف من جماهير البلاد فدخل في الجهاد وكان له دور كبير في المعركة التي خاضها نور الدين في بلاد الشام ضد الصليبين في نفس الوقت الذي كانت قواته محاصرة في بلبيس .

معركة حارم في رمضان ٥٥٩هـ:

وقعت معركة حامية بين جيش نور الدين وبين الصليبين وحلفائهم من الأرمن بقيادة ثوروس الثاني والقائد البيزنطي أو الدوك مقدم الروم ، وأسمه قسطنطين كولومان فاجتمعت القوات النصرانية في شمال الشام عند حارم وكان عددها أكثر من ثلاثين ألف مقاتل وجاءت النجدات إلى نور الدين من الموصل وماردين والجزيرة وغيرها وأصبح لديه جيش كبير وبعد ذلك التقى مع الصليبين وحلفائهم عند حارم في أواسط رمضان ٥٥٩هـ ودارت معركة حامية الوطيس استطاع نور الدين بسبب الخطة الرائعة التي وضعها أن يترل بهم هزيمة ساحقة لدرجة أن القتلى من الصليبين

كانوا أكثر من عشرة الأف والأسرى أكثر من ذلك ووقع في الأسر جميع زعماء الصليبين تقريبا .

فوقع في الأسر بوهيموند الثالث أمير انطاكية ووقع أيضا ريموند الثالث أمير طرابلس ووقع الدوك البيزنطي قسطنطين كولومان في الأسر وكذلك الأمير الصليبي جوسلين الثالث ووقع عدد كبير من الأمراء ولم ينج من الأمراء إلا الاثوروس الأرمني الذي فر إلى قيلقية وكانت الكارثة على الصليبين كبيرة واسترد نور الدين قلعة حارم ثم اتجه إلى مهاجمة بيت المقدس وحاصر قلعة بانياس واستولى عليها في أخر رمضان من ذلك العام وهي التي كان قد سلمها معين الدين أنر للصليبين زمن الحملة الصليبية الثانية.

وكان مع نور الدين في ذلك الحين ابن معين الدين أونر ونصه :

فقال له نور الدين بعد أن استردوا بانياس أن للمسلمين اليوم فرحة واحدة ولك فرحتان فقال وكيف ذلك قال لأنه في هذا اليوم برّد الله على جلد والدك من نار جهنم لأن معين الدين أونر سلمها في عام ٥٤٣هـ واستردها نور ا لدين في عام ٥٥٩هـ كان يتحمل وزرها لأنها كانت أرضا إسلامية وسلمها للصليبين وفي ذلك الحين شعر عموري الأول بالخطر عندما سمع فأضطر لفك الحصار عن أسد الدين شيركوه في بلبيس واتصل به وطلب منه أن يخرجا معا من مصر فأجابه إلى ذلك .

أرسال نور الدين الحملة الثانية إلى مصر سنة ٥٦٢هـ :

بعد أن طغى شاور وتجبر طلب الخليفة الفاطمي العاضد النجدة حيث أرسل إلى نور الدين رسالة سرية يستنجد به وأن يأتي لتخليص البلاد من ظلم شاور وعسفه فأرسل نور الدين الحملة الثانية عام ٥٦٢ هـ بقيادة أسد الدين شيركوه ومعه ابن أخيه صلاح الدين فلما وصل إلى القاهرة علم شاور وعلى الفور أرسل رسالة إلى

عموري الأول فجاء عموري لنجدة شاور فاستدار شيركوه من جنوب القاهرة وعبر النيل وجعل ظهره ناحية الصعيد وكان معه ٢٠٠٠ فارس فقط واتحد عموري الأول مع شاور وعبرا النهر لمهاجمة أسد الدين شركوه من ناحية الشمال ودارت معركة بينهم في مكان يسمى البابين وانتصر أسد الدين شيريكوه رغم قلة عدد عسكره واتجه بعد ذلك إلى الشمال ناحية الاسكندرية وفتحت له أبوابها وولى عليها ابن أخيه صلاح الدين ثم اتجه بعد ذلك إلى الصعيد يجمع الأموال ويجند القبائل للدفاع عن البلاد وبعد ذلك جاء عموري الأول وشاور بجيوشهم إلى الاسكندرية .

وحاصروا صلاح الدين برا وبحرا فأرسل إلى عمه أسد الدين شيركوه يستنجد به فجاء من الصعيد واشتبك معهم خارج أسوار الإسكندرية وتجمد الموقف ولم يستطيع أحد أن ينتصر على خصمه وأخيرا جرت مراسلة بين عموري الأول وأسد الدين شريكوه واتفقا على أن ينسحب الجانبان مقابل أن يدفع شاور إلى أسد الدين شيركوه فدية مقدارها خمسين ألف دينار فقبل شاور وانسحب الطرفان واعطى شاور إلى عموري الأول مائة ألف دينار واستبقى شاور معه حامية صليبية لحماية أبواب القاهرة خوفا من أن يفأجئهم نور الدين مرة أخرى وعاد الجانبان إلى الشام وعندما عادا إلى الشام عاد شاور إلى ظلمه وفرض الضرائب على الناس لتسديد الأتاوة التي تعهد بها لملك بيت المقدس. وعامة أهل مصر من المسلمين داخل القاهرة شعروا بالخزي والمهانة لأن الصليبين يحرسون أبواب القاهرة فأرسل الخليفة العاضد يستنجد مرة أخرى بنور الدين ضد شاور .

أرسل نور الدين الحملة الأخيرة إلى مصر بقيادة شيركوه وكان ذلك في عام ٥٦٤هـ وكانت حملته الأخيرة الناجحة فسارت متجهة إلى مصر وسمع شاور بذلك فأرسل يستنجد بعموري الأول فجاء عموري الأول وسبق في الوصول إلى مصر قبل أسد الدين شيركوه .

وفي نفس الوقت ارتكب عموري الأول حماقة كانت في صالح نور الدين إذ لو وصل إلى القاهرة لربما سلمها له شاور لكن عموري بدأ بحصار بلبيس وكان في ذلك الحين في بلبيس طي بن شاور فطلب عموري منه تسليم بلبيس فقال له طي على أسنة الرماح أتظن أن بلبيس جبنه تأكلها فرد عليه عموري قائلا بلبيس جبنة والقاهرة زبدة وبالفعل اقتحمها عام ٥٦٤هـ واستولى عليها عنوة وقتل حامية بلبيس فخاف سكان القاهرة أن يصيبهم ما أصاب أهل بلبيس وفي ذلك الحين وصل أسد الدين شيركوه إلى القاهرة فأستقبلة وأهلها وفتحوا له أبوابها واستقبله الخليفة العاضد وقام بعض الساخطين على شاور طلبوا من أسد الدين شيركوه أن يساعدهم على قتله، وفعلا قتلوه في ذلك العام وأصبح أسد الدين هو المسيطر على القاهرة وأعلن العاضد تعيين أسد الدين شيركوه وزيرا للدولة الفاطمية وكان قد تقدم في السن فتوفى شيركوه بعد شهرين فقط من توليه الوزارة وبعد ذلك عهد الخليفة العاضد لصلاح الدين بالوزارة ولقّبه بلقب الملك الناصر وكان عمره في ذلك الحين واحد وثلاثين عاما وكان العاضد يظن أن صلاح الدين بسبب صغر سنه يمكن أن يتخلص من سيطرته ولكن صلاح الدين خيب ظنه وبدأ يوطد نفوذه في مصر .

قضاء صلاح الدين على المتآمرين في مصر:

شرع في بناء قلعته على قمة جبل المقطم وبدأ في القضاء على سائر المؤامرات فلقد دبرت مؤامرات كثيرة من قبل الحاشية ومن قبل الحرس الفاطمي من السودان والنوبيين والأرمن واستطاع صلاح الدين القضاء عليها كلها .

ومن ضمن هذه المؤامرات أنهم اتفقوا بعد أن راسلوا الصليبين سرا وراسلوا البيزنطيين وحاصروا دمياط سنة ٥٦٥هـ واستطاع صلاح الدين أن يقضي على المتآمرين داخل القاهرة ثم اتجه إلى دمياط ودافع عنها واستغل ومن معه من رجال نور الدين جريان النهر عند مصب دمياط فكانوا يرسلون جراراً من النفط والمواد المشتعلة

على سطح الماء فيجري بها التيار وتصطدم بالسفن الصليبية والبيزنطية وتحرقها وخسر الصليبيون كثيرا من السفن وعادوا يجرون أذيال الخيبة والندامة ويعلق أحد المؤرخين وهو ابن الأثير على فشل الصليبين في الاستيلاء على مصر وفوز نور الدين بها فيقول بأنهم كالنعامة التي ذهبت لتبحث عن قرنين فعادت بلا أذنين.وبعد أن تمت الوحدة بين مصر والشام تم تطويق الصليبين ووضعهم بين شقي الرحى ، أو فكي الكماشة وكان ذلك هو المقتل للوجود الصليبي وهو ما تحقق بعد ذلك على يد صلاح الدين .

اشتراك مؤتمن الخلافة والشاعر عمارة اليمني في مؤامرة ضد صلاح الدين :

فقد اتصلوا بالاسطول النورماني لمساعدتهم ولكن صلاح الدين استطاع أن يكشف المؤامرة وأن يقضي عليهم ويقتل المتأمرين وجاء الأسطول النورماني في وقت متأخر فحاصر الاسكندرية فتصدى له صلاح الدين وصده عنها وعاد الأسطول النورماني وهو يجر أذيال الخيبة والندامة .

إرسال صلاح الدين حملاته إلى النوبة والحجاز :

كما أرسل صلاح الدين حملة استولت على النوبة ثم جاءته تعزيزات من سيده نور الدين بقيادة أخيه توران شاه فأرسل حمله إلى الحجاز واليمن وضمها إلى دولة نور الدين ثم أرسل نور الدين إلى صلاح الدين أمرا بأسقاط الدولة الفاطمية وأقامة الخطبة للخلافة العباسية في بغداد وفي أول أسبوع من محرم عام ٥٦٧هـ أسقط اسم الخليفة الفاطمي العاضد من الخطبة وأقيمت الخطبة للخليفة العباسي ومن بعده نور الدين ومن بعده لصلاح الدين وسار صلاح الدين في مصر على نفس السيرة التي سار عليها نور الدين وهي إنشاء المدارس لتعليم الفقه والسنة والمدارس الشافعية والمالكية والحنابلة

والحنفية وانتشرت هذه المدارس في القاهرة والاسكندرية ، وكانت العامل الحاسم في القضاء على المذهب الاسماعيلي في مصر .

وفاة نور الدين :

توفى نور الدين في عام ٥٦٩هـ وبذلك انتهت حياة هذا البطل الذي أقام الجبهة الإسلامية المتحدة التي امتدت من نهر دجلة شرقا إلى برقة غربا ومن جبال طوروس شمالا إلى خليج عدن جنوبا وهذه هي الجبهة الإسلامية المتحدة والتي استطاع صلاح الدين بعد ذلك أن يقهر الصليبين في موقعة حطين ويدمر المملكة الصليبية واستطاع أن يضع بداية النهاية للوجود الصليبي بأكمله في بلاد الشام .

صلاح الدين وجهاده ضد الصليبيين .

استراتيجيته .

محاولة أرناط الاعتداء على الحرمين الشريفين .

معركة حطين ونتائجها .

استرداد بيت المقدس .

اولاً : نبذة مختصرة عن مولد صلاح الدين :

ولد صلاح الدين في العراق في مدينة تكريت عام ٥٣٢هـ وكان والده نجم الدين أيوب وعمه أسد الدين شيركوه قد دخلا في خدمة عماد الدين زنكي وبعده في خدمة ابنه نور الدين محمود وكان لأسد الدين شيركوه أثره الكبير في توطيد نفوذ نور الدين في حلب بعد وفاة والده ، وقد ولى نور الدين محمود نجم الدين أيوب والد صلاح الدين على بعلبك حيث نشأ فيها صلاح الدين وعاش وتعلم فنون الفروسية وأتقن اللغة العربية ، وحصل على قدر كبير من المعرفة والعلوم الإسلامية وشارك كما أشرنا في الحملات الثلاث التي أرسلها نور الدين إلى مصر والتي ضُمّت إلى الجبهة الإسلامية المتحدة .

أهم الركائز التي اعتمدت عليها استراتيجيته صلاح الدين في جهاد الصليبين :

ومن أهما وأبرزها ما يلي :

١- إقامة جبهة إسلامية متحدة امتدت من جبال طوروس شمالاً إلى اليمن وخليج عدن جنوباً ومن نهر الفرات ودجلة شرقاً إلى تونس غرباً .

٢- إقامة فريضة الجهاد كما أمر بها الله سبحانه وتعالى في الكتاب والسنة فحرص صلاح الدين على إقامة تلك الفريضة بأعتبارها من أسس الدين وذورة سنام الإسلام .

٣- عمل صلاح الدين على تطوير جيشه وأسلحته واستخباراته بما يحقق له النصر وخاصة في مجال الاستخبارات فكان لديه استخبارات عظيمة بالغة الروعة استطاعت أن تكشف له خطط الصليبين ومخططاهم بحيث استطاع أن يحبط بعض المشروعات الصليبية الخطيرة في مهدها لأنه كشف أهداف تلك المؤمرات منذ وقت مبكر.

٤- أن صلاح الدين اختار زمان ومكان المعركة أي أنه أمسك بزمام المبادرة في يده وساق العدو إلى المكان والزمان الذي يريده مما جعله يحقق النصر الحاسم في حطين الأمر الذي كان له نتائج بعيدة المدى على العالمين الإسلامي والنصراني.

٥- شق الجبهة النصرانية بحيث أنه كان لهذا أثر بعيد في النواحي العسكرية على الصليبين فقد كان للدول البيزنطية زمن أسرة اليكسيوس كومنين وابنه حنا وحفيده ما نويل كان لهم دور أحياناً في مساعدة الصليبين والمشاركة في حملات صليبية فأستمال صلاح الدين الامبراطور البيزنطي الجديد اسحاق انجيلوس وتحالف مع الدولة البيزنطية ضد الصليبين ليس هذا فحسب بل استطاع أن يشق الجبهة النصرانية الصليبية الكاثوليكية كما استمال بعض النصارى الشرقيين من السريان والأرمن وغيرهم واستطاع أن يجند بطريك الأرمن ويسمى الكاثوليكوس حيث اصبح جاسوساً لصلاح الدين زوده بتقارير مفصلة عن تحركات الحملة الصليبية الثالثة .

حدوث التمزق داخل الدولة الزنكية :

بعدو فاة نور الدين محمود عام ٥٦٩هـ حدث التمزق داخل الدولة الزنكية وذلك لأن نور الدين خلف ابناً صغيراً وهو الصالح اسماعيل وكان في الحادية عشر من عمره فتسلط عليه بعض الأمراء الذين أرادوا السيطرة على الدولة عن طريقه وظهر التنافس بينهم .منهم من استقل بدمشق ومنهم من استقل بحلب.ولو أن صلاح الدين ترك الأمور تسير كما أراد أولئك الأمراء لربما تمزقت الدولة الزنكية ولم يبق بيده إلا مصر إلا أنه حرص على استمرار الجبهة الإسلامية المتحدة فتراه يعمل على تأمين هذه الجبهة ولم يسمح لإولئك الإمراء بتمزيقها بسبب أطماعهم وخلافاتهم الشخصية وأرسل إليهم يندد بما فعلوه من تسلط على السلطان الجديد الصالح اسماعيل .

وكان من أشهر هؤلاء الأمراء هو سعد الدين كمشتكين الذي نقل الصالح اسماعيل إلى قلعة حلب وعند ذلك وقف ضد كمشتكين بعض الأمراء ومنهم ابن المقدم الذي أرسل إلى صلاح الدين يستنجد به فاستغل صلاح الدين تلك الفرصة وخرج من مصر إلى الشام ٥٧٠ هـ وفتحت لها دمشق أبوابها بعد ذلك تقدم واستولى على حمص وحماه في الجزء الشمالي من بلاد الشام وعند ذلك أرسل سعد الدين كمشتكين المتسلط على الصالح اسماعيل السلطان الصغير، أرسل إلى الإسماعيلية وأغراهم باغتيال صلاح الدين مقابل مبلغ كبير من المال .

القيام بمحاولات فاشلة لقتل صلاح الدين :

أرسل زعيم الباطنية الفدائية الاسماعيلية بعض الفدائيين تسللوا إلى معسكر صلاح الدين وأردوا اغتياله إلا أنهم فشلوا في ذلك وجرى قتلهم كما قاموا بمحاولة أخرى واستطاع أحدهم أن يجرح صلاح الدين في رأسه إلا أن صلاح الدين تصدى لهم بعد ذلك وهاجمهم وهاجم حصونهم وقلاعهم في بعض المناطق الجبلية في شمال الشام وعند ذلك طلب الإسماعيلية من شهاب الدين الحارمي خال صلاح الدين وكان

مجاوراً لهم في حصن حارم التوسط بينهم وبينه فعقد معهم هدنه وتركهم صلاح الدين ولما فشل كمشتكين المتسلط على الصالح إسماعيل في اغتيال صلاح الدين استنجد بالصليبين سيماريموند الثالث أمير طرابلس والذي كان في ذلك الحين وصياً على مملكة بيت المقدس فجاء لمهاجمة حمص وحماه فتصدى له صلاح الدين .

أمام هذه التطورات اتحد الزنكيون من حلب والجزيرة والموصل وأرسل صاحب الموصل سيف الدين الثاني ابن عم الصالح اسماعيل أرسل جيوشه من الموصل ومن معها من الزنكيين واجتمعت تلك القوات لمواجهة صلاح الدين إلا أن صلاح الدين التقي بهم في رمضان عند قرون حماه عام ٥٧٠هـ وأنزل بهم الهزيمة وقبل تلك المعركة كان صلاح الدين يتظاهر بأنه إنما جاء لخدمة الصالح اسماعيل وأنه تابع له ولما وقعت تلك المعركة اسقط اسم الصالح إسماعيل من الخطبة ومن السكة وبعد المعركة تلقى صلاح الدين منشوراً من الخليفة العباسي بملك مصر والشام

وعند ذلك أصبح لديه سلطة شرعية من الخليفة العباسي لذلك حاول الزنكيون مرة أخرى جمع قواهم وحشدوا قوات جديدة والتقى بهم في معركة أخرى في العام التالي عام ٥٧١هـ في شهر شوال عند تل السلطان قرب حمص وهزمهم هزيمة كبيرة وبذلك لم يستطع الزنكيون مواجهة صلاح الدين مرة أخرى وحاصر حلب إلا أن حلب بحصانتها المنيعة لم تسقط بيده ولكنه بعد ذلك بعدة سنوات جاء إلى الشام وعبر إلى الجزيرة الفراتية فأستولى على حران والرها نصيبين وسروج والخابور ثم حاصر الموصل وأراد الاستيلاء عليها إلا أن الموصل صمدت في وجهه ثم مرض بعد ذلك ثم اتجه بعد ذلك إلى أعالي الجزيرة وأرسل له المواصلة وعقدوا معه مصالحة وحدث أن الصالح إسماعيل توفى بعد عهد إلى ابن عم له بملك حلب فجاء صلاح الدين بعد ذلك إلى حلب سنة ٥٧٩هـ وتمكن من دخولها وعوض صاحبها ببعض الإقطاعات في

الجزيرة وكان استيلائه على حلب عام ٥٧٩هـ وبذلك أعاد الجبهة الإسلامية المتحدة من جبال طوروس شمالاً إلى اليمن جنوباً ومن نهر الفرات ودجله شرقاً إلى تونس غرباً

موقع الكرك والشوبك الاستراتيجي :

كانت الكرك والشوبك تتمتعان بموقع استراتيجي خطير جدا وذلك أنهما تفصلان الاتصال البري بين مصر والشام كما تهددان طرق الحجاج والقوافل سيما طرق الحجيج إلى بلاد الحجاز و زاد خطر الكرك والشوبك عندما تولى أمرها ارناط (رينودي شايتون) بعد أن خرج من السجن وذهب إلى الكرك والشوبك وكان صاحبها قد مات فتزوج من امرأته مثل ما فعل مع أميرة انطاكية من قبل وعندما أصبح أميرا للكرك والشوبك أصبح يشكل تهديدا خطيرا لطرق المواصلات وطرق الحجيج وقام بمغامرة خطيرة عندما قام بالإغارة على البحر الأحمر وبلاد الحجاز كما سنشير بعد قليل .

تنقسم المعارك إلى قسمين هما :

معارك حاسمة :

وهي التي تقرر مستقبل الجيوش المتحاربة وتقرر مستقبل الأمم التي تمثلها تلك الجيوش .

معارك تكتيكيه (محدودة)

وهي معارك محدودة بين فرق وكتائب محدودة لا يمكن أن تؤثر بأي حال على مصير الفريقين .

فشن صلاح الدين في سنة ٥٧٣هـ غارات واسعة على المناطق الجنوبية من البلاد الصليبية ومملكة بيت المقدس ولم تواجهه قوات كبيرة ذات قيمة ففرق جيشه إلى فرق للإغارة والاستيلاء على مايمكن الاستيلاء عليه من أسلاب ومواشي للصليبين

حتى أنه بقى في فرقة صغيرة وعند ذلك نصب له الصليبيون بقيادة أرناط كميناً عند طبرية وباغتوة بهجوم مفاجئ فتبددت قواته الصغيرة التي كانت معه ولم ينج صلاح الدين إلا بصعوبة وعاد إلى مصر مسرعاً وجمع قواته بعد ذلك واقسم إلا تضرب له خيمة حتى ينتقم من الصليبين فجمع قواته وأغار مرة أخرى على الصليبين وهزمهم وخلال ذلك حدثت بعض المعارك المحدودة ولكنها لم تكن بمستوى معركة حطين التي سنتحدث عنها فيما بعد ومن ذلك أن الصليبين أقاموا حصناً على مكانٍ يسمى بيت الأحزان أرادوا إقامة ذلك الحصن وهو في مكان مرتفع إلى الجنوب الغربي من دمشق وكان من الممكن أن يهدد ممتلكات صلاح الدين في بلاد الشام فأرسل اليهم يعرض عليهم مبلغاً من المال مقابل التخلي عن بناء ذلك الحصن فرفضوا عند ذلك ولما انتهوا من بناء الحصن جاء إليه وهدمه وسواه بالأرض، ويذكر بعض المؤرخين عن هذا الحصن أن عرض الجدار يصل إلى ستة عشر ذراعاً أي ثمانية أمتار ، الأمر الذي يشير إلى خطورة بنائه وتصميم صلاح الدين الدين على هدمه.

التقى صلاح الدين مع الصليبين في معركة تسمى مرج العيون عام ٥٧٥هـ وهزمهم ثم اتجه كما ذكرنا نحو حصن بيت الأحزاب وهدمه وسواه بالأرض أما الدولة البيزنطية التي كانت تساعد الصليبين لا سيما زمن الإمبراطور ما نويل كومنين حيث أنه أرسل أسطوله في عام ٥٦٥هـ وشارك مع عموري الأول في حصار دمياط هذا الامبراطور تعرض إلى هزيمة ساحقة عام ٥٧٢هـ في معركة في أسيا الصغرى قضت على جيوش الامبراطورية ذلك أنه أراد أن يقضي على سلطنة سلاجقة الروم والاستيلاء على عاصمتها قونية زمن السلطان قلج ارسلان الثاني واتجه عبر شعب ضيق يسمى ممر ميريوكيفالون واستطاع السلاجقة سد مدخل ذلك الشعب وحلصروا الجيش البيزنطي الذي كان محملاً بالعربات وأدوات الحصار وتم تمزيق الجيش .بأكمله وحلت به هزيمة ساحقة ولم ينج الإمبراطور مانويل كومنين من تلك المعركة إلا بصعوبه

حتى أنه في رسالة أرسلها إلى الأمبراطور الألماني وضّح فيها تفاصيل تلك المعركة وشبه تلك المعركة بمعركة ملاذكرد التي حدثت للإمبراطور رومانوس دايجونيس قبل أكثر من مائة سنة ولم يعد للإمبراطورية البيزنطية بعد تلك المعركة قدرة على مساعدة الصليبين في الشام .

صلاح الدين يواجه محاولة خطيرة قام بها ارناط:

ذلك أن أرناط هذا الصليبي اللص القذر الذي مكث في قلعة حلب سجيناً لمدة ستة عشر عاماً لم تؤثر تلك السنين في أخلاقه بل ظل طائشاً حاقداً على الإسلام والمسلمين ورسم في ذهنه خطة لضرب المسلمين في أعز ما يملكون وهي الذهاب بحملة إلى مكة والمدينة لتدمير الأماكن المقدسة وهدم الكعبة ونبش قبر الرسول صلى الله عليه وسلم ثم الاستيلاء على الطريق التجاري المهم الذي يربط جنوب شرق أسيا بمصر ومنها إلى أوروبا بالسيطرة على اليمن والحجاز وأراد في البداية القيام بحملة برية وسار حتى وصل إلى تيماء عند ذلك أوعز صلاح الدين إلى ابن أخيه فروخ شاه فجاء وحاصر حصن الكرك والشوبك فأضطر ارناط للعودة خوفا من ضياع هذين الحصنين أو هاتين القلعتين المهمتين له وبعد هذه المحاولة التي قام بها في عام ٥٧٦هـ وضع خطة أخرى تتمثل في القيام بحملة بحرية عبر مياه البحر الأحمر فقلب هذا المشروع في ذهنه وخاطره وصنع عددا من السفن وجربها في مياه البحر الميت ثم فككها إلى أجزاء ونقلها مفككة علىظهور الجمال إلى مياه البحر الأحمر وحاصر ميناء أيله عام ٥٧٨هـ واستولى عليه ثم حاصر جزيرة مهمة مقابل ميناء أيله تسمى جزيرة القلعة وهذه الجزيرة فيها بعض الصيادين المسلمين وعند ذلك حاصرها وأرسل أسطوله في البحر الأحمر ومكث هو وبقية رجاله يحاصرون جزيرة القلعة ويحولون بين سكانها وبين الوصول إلى مياه الشرب العذبة .أما الأسطول الصليبي الذي سار في البحر الأحمر فقد قطع طريق الحاج وكان موسم الحج قد اقترب وأخذ أولئك الصليبيون من مراكب

الحجاج ستة عشر مركباً ثم وصلوا إلى ميناء عيذاب وهو ميناء على الساحل المصري على مسافة ١٢ ميلاً شمال منطقة حلايب وكان من أهم الموانى الإسلامية في تلك العصور (عصر الحروب الصليبية) زمن الفاطميين ثم الأيوبيين ثم المماليك وكان ذلك الميناء ينقل المتاجر من عدن ومن جدة وكذلك كان ينقل الحجاج الذين يأتون من الأماكن المقدسة أو يذهبون إلى الأماكن المقدسة ذلك أنه يمتد طريق بري مسافته أكثر من ١٥٠كم من عيذاب إلى مدينة قوص في جنوب مصر ومن قوص تنطلق المراكب النهرية في نهر النيل إلى القاهرة والاسكندرية ودمياط .

وصل الصليبيون إلى ميناء عيذاب ووجدوا سفينة محملة بالحجاج فاستولوا عليهما وقتلوا من فيها ووجدوا مركبين آخرين محملين بالبضائع قادمين من عدن فاستولوا عليها ولم يكتف الجيش الصليبي بذلك بل نزل في ميناء عيذاب وكان في ذلك الميناء مخازن مليئة بالقمح والذرة والحبوب وكانت معدة لإرسالها لسكان الحرمين الشريفين ففي ذلك الوقت كانت منطقة الحجاز تعتمد على مصر في كثير من حاجتها فكان بميناء عيذاب مخازن تخزن فيها الحبوب حتى تأتي المراكب من جدة فتحملها ومن جدة تنقل على ظهور الجمال إلى مكة والمدينة فقام الصليبيون بحرق تلك المخازن المليئة بالمؤن والحبوب ثم دمروا ميناءعيذاب واخذواقوة وتوغلوا في برية عيذاب وتقدم الصليبيون في عدوانهم إلى برية عيذاب وأسروا قافلة كبيرة من الحجاج كانت قادمة من قوص ، وقتلوا جميع الحجاج ، ونهبوا أموالهم ، وأحدثوا في ميناء عيذاب حوادث شنيعة لم يسمع بمثلها .

عيذاب عيذاب

وبعد تدمير ميناء عيذاب انطلقوا شرقاً نحو سواحل الحجاز ووصلوا إلى ميناء الحوراء قرب ينبع ووجدوا سفينة إسلامية مليئة بالحجاج وأغرقوها بمن فيها وتقدموا إلى رابغ ثم نزلوا من سفنهم ودلهم بعض الأعراب الذين لا يفهمون طبيعة هؤلاء وأهدافهم للطرق المؤدية للمدينة فساروا متجهين إليها بهدف نبش قبر الرسول صلى

الله عليه وسلم ثم الاتجاه بعد ذلك إلى مكة للإغارة على مكة وقت الحج وهدم الكعبة ولولم يكن لصلاح الدين جهاز استخبارات بالغ الروعة لما استطاع أن يكشف تلك المحاولة من وقت مبكر ولربما استطاع الصليبيوون تحقيق ما يهدفون إليه وهو هدم الكعبة ونبش قبر الرسول صلى الله عليه وسلم وذلك أنه لو اعتمد على الأخبار التي تأتية من الحجاز لما وصل الذي يأتي بالخبر ليخبر صلاح الدين إلا في وقت متأخر وكان الصليبيون قد حققوا أهدافهم ولذلك يتضح من سير الحوادث أن صلاح الدين رصد حركة أرناط ومحاولته منذ وقت مبكر عندما أنزل أسطوله في مياه البحر الأحمر فأرسل صلاح الدين أمراً لأخيه العادل الذي كان نائباً عنه في مصر بالتصدي لهذه المحاولة وكانت الأسطول الأيوبي جميعاً في سواحل البحر المتوسط ولم يكن للإيوبيين أسطول حربي على سواحل البحر الأحمر ماعدا السفن التجارية الخاصة بأصحابها وسفن النقل التي تنقل الحجاج بين الحجاز ومصر وعند ذلك قام العادل وأمر قائد الأسطول في البحر المتوسط وكان اسمه الحاجب حسام الدين لؤلؤ أمره بالتصدي لتلك المحاولة فقام حسام الدين بفك بعض أجزاء السفن من مياه البحر المتوسط ونقلها على ظهور الجمال إلى مياه البحر الأحمر وركبها ثم بعد ذلك اتجه بقواته في مياه البحر الأحمر إلى جزيرة القلعة وهاجم الصليبين من رجال أرناط الذين كانوا يحاصرون الجزيرة فوقعوا بين قتيل وأسير بعد أن أنقض عليهم حسام الدين لؤلؤ مثل العقاب ثم بعد ذلك اتجه يقتفي أثر السفن الصليبية ووصل إلى ميناء عيذاب ووجد الميناء قاعاً صفصفاً ثم اتجه في أثرهم وعثر على سفنهم عند الحوراء وينبع فأحرق تلك السفن وانطلق في أثر الصليبين فحاصرهم في إحدى الشعاب قرب المدينة وكانوا على مسافة يوم واحد من المدينة فأخذهم قتلاً وأسراً وقتل معظمهم ولم يبق منهم سوى مائة وسبعين أسيراً ولم ينج منهم أحد وكان موسم الحج قد اقترب فأرسل حسام الدين لؤلؤ اثنين من الأسرى ليذبحا في منى يوم النحر مثل ما تذبح الابقار ليكونا عبره لمن تسول له نفسه الاعتداء على الحرمين الشريفين أما بقية الأسرى فقد سيقوا إلى مصر وجرى

استعراضهم منكسين على ظهور الجمال في شوارع الاسكندرية والقاهرة ثم ضربت اعناقهم جميعاً وقد شاهدهم الرحالة ابن جبير وذكر قصتهم في رحلته .

وبعد ذلك قام صلاح الدين للانتقام لتلك الغارة وجهز جيوشه وحاصر الكرك والشوبك وضيق عليهما الحصار حتى أن ارناط طلب من صلاح الدين الهدنة ووافق صلاح الدين على الهدنة مقابل أن لا يتعرض ارناط لقوافل التجارة والحجاج ولكن ذلك اللص لم يلتزم بتلك الهدنة وما مر عام حتى أغار على قافلة أتيه من مصر إلى الشام واستولى عليها وأسر التجار وعند ذلك أراد صلاح الدين أن يعالج الأمر برويه فأخذ يذكره بالمعاهدة وقال له اين العهد واين المواثيق عند ذلك أجاب أرناط على رسل صلاح الدين قائلاً : قولوا لمحمد يخلصكم استهزاء بالنبي صلى الله عليه وسلم فأقسم صلاح الدين أن يقتله بنفسه إن ظفر به .

معركة حطين ، مقدماتها ، حوادثها ، نتائجها :

أرسل صلاح الدين بعد ذلك إلى الملك الجديد الذي تولى مملكة بيت المقدس وهو جاي لوزجنان ،أرسل إليه يشكو له تابعهُ ارناط فأرسل جاي لوز جنان إلى أرناط يأمره أن يطلق سراح القافلة إلا أن أرناط رفض تنفيذ أوامر سيده لأنه قد كان ساعد جاي لوزجان في الوصول إلى عرش مملكة بيت المقدس .

وبعد ذلك ذهب صلاح الدين لحراسة قافلة أخرى كانت قادمة من الحج وكانت فيها أخته عند حصن الكرك فحرسها بنفسه وكان لابد لصلاح الدين من معركة حاسمة وبعد أن اكتملت استعداداته العسكرية أراد أن يدخل في مواجهة حاسمة مع الصليبين وقد خرج من مصر عام ٥٨١هـ وهو لا يعلم أنه لن يعود إليها فذهب إلى دمشق وأرسل إلى سائر البلاد وسائر الأقاليم التي تتبع الدولة الأيوبية (حسب نظام الاقطاع الحربي الذي ورثته عن الدولة الزنكية الذي ورثتهجدورها عن الدولة السلجوقية) يطلب من القادة والزعماء وولاة الأقاليم أن يأتوا إليه بجيوشهم

للمشاركة معه في الجهاد كما أرسل إلى سائر الأمراء وسائر الاماكن يحث الناس على الخروج معه للجهاد وعند ذلك اجتمعت لديه الجيوش في دمشق واستعرضها خارج دمشق وكان يبلغ عددها أكثر من اثنى عشر ألف فارس وأكثر من عشرين ألف رجل من المشاة ثم استشار أصحابه في الطريقة التي ينبغي له اتباعها في مواجهة الصليبيين فمنهم من قال أن يغير على ممتلكات الصليبين ويدمر ما يمكن تدميره ويستولى على ما يمكن الاستيلاء عليه من قرى وقلاع وحصون ومنهم من قال أن يدخل معهم في مواجهة حاسمة .وهذا الرأى هو الذي اختاره صلاح الدين وهو أن يستدرجهم إلى معركة تكون نتائجها بعيدة المدى عليهم عند ذلك نزل من دمشق عبر هضبة الجولان .وهي منطقة مرتفعة عن الأردن ونزل إلى وادِي الأردن بغية استدراج الصليبين إلى معركة حاسمة ومن هنا أرسل فرقة عسكرية انتخبها من خيرة الجنود والقادة فتوغلوا في داخل مملكة بيت المقدس الصليبية وأغارت على منطقة صفورية وهي منطقة خصبه وتقع في منتصف الطريق تقريباً بين عكا وبين طبرية فأغارت على الصليبين في تلك المنطقةووجدت بعض الجيوش الصليبية وهزمتهم وجاءت نجدة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه فتصدت الحملة الإسلامية لتلك النجدة الصليبية وأخذت أفرادها مابين قتيل وأسير فعاد المسلمون من تلك الغزوة منتصرين .

تحرك صلاح الدين إلى طبرية :

عبر صلاح الدين نهر الأردن ووصل إلى غرب بحيرة طبرية وجعل ظهره وظهر جيشه إلى البحيرة.وحتى يستدرج الصليبين لابد من القيام بعمل يجعلهم يغضبون ويأتون إليه فهاجم مدينة طبرية الخاضعة لزوجة ريموند الثالث أمير طرابلس وتسمى أشيفا وهذه المرأة كان معها أولادها فحاصر صلاح الدين المدينة فاحتمت امرأة ريموند الثالث بالقلعة مع أولادها ولما وصلت الأنباء إلى الصليبين أن صلاح الدين اقتحم طبرية واستولى عليها وحاصر القلعة جن جنونهم وتشاورا واعتبروا ذلك إهانة كبيرة

وأنه لا بد من التصدي لصلاح الدين فعقد الملك جاي لوز جنان مجلساً حربياً من من كبار القادة والأمراء وتشاورا في الخطة التي ينبغي أتباعها وعند ذلك أشار ريموند الثالث وهو صاحب طبرية وزوجته صاحبتها أشار عليهم أن يبقوا في صفورية وقال طبرية لي ولزوجتي وإذا ذهبنا إلى هناك فإن صلاح الدين يريد أن يستدرجنا وسوف يستهلك منا السير إلى طبرية وقتاً كبيراً فنصل نحن وجيوشنا في غاية التعب وذلك يمكن صلاح الدين من الانتصار علينا فأشار عليهم بالبقاء في صفورية وقال أن صلاح الدين لن يستطيع البقاء طويلاً في طبرية وسوف يعود ونستردها وعند ذلك أتهمه ارناط وجيرار مقدم الداوية بالخيانة وحثا الملك جاي لوز جنان على عدم إطاعة مشورته وعلى أن يذهب الجيش الصليبي للتصدي لصلاح الدين وحماية طبرية وعند ذلك أمر الملك جاي لوز جنان سائر القوات الصليبية بالارتحال من صفورية إلى طبرية والمسافة بينهما كانت ثمانية عشر ميلاً وكانت المنطقة الفاصلة بينهما منطقة تلال جرداء وكان الوقت وقت الصيف ولا يوجد في المنطقة بين صفورية وطبرية مياه وكان صلاح الدين قد استقر في غرب بحيرة طبرية حيث يوجد سهل عرف بسهل حطين وتوجد غرب السهل هضبة مرتفعة قليلاً تسمى هضبة حطين يعلوها قمتان سماها المؤرخون والجغرافيون العرب قرون حطين وعند ذلك سار الجيش الصليبي وعلم صلاح الدين عبر استخباراته أن الصليبين قادمون إليه وعند ذلك أرسل الفرسان الخفيفة الحركة ونصبت الكمائن للصليبين ووضعت أمامهم صعوبات جمه من ضمنها رمي المثلثات وهي عبارة عن عن أشواك من حديد لها خمسة رؤوس أو ستة رؤوس فأذا وطئت عليها الخيول دخلت في حوافرها وبالتالي ما أن تتقدم حتى تصبح عاجزة عن الحركة وبهذه الوسيلة كان لها أثر كبير في تعطيل كثير من خيول الصليبين .

وصول الصليبيين إلى حطين :

وصل الصليبيون إلى حطين وهم وفي غاية العطش والتعب وصلوا يوم الخميس ٢١ ربيع الآخر عام ٥٨٣هـ الموافق ٢ يولية عام ١١٨٧م ولما رآهم صلاح الدين علم أنه قد أستدرجهم إل المكان المناسب والزمان المناسب فقال :" جاءنا ما نريد ونحن أولوا بأس شديد ".

وبعد أن وصلوا إلى هضبة حطين وهم في غاية العطش وكلما حاولوا الوصول إلى بحيرة منعهم المسلمون فاضطروا أن يعسكروا فوق هضبة حطين وكان ريموند الثالث يعرف بئراً قديماً في هضبة حطين فجاء إليها لعلهم يستقون منها فوجدها جافة وكان ذلك وقت الصيف ، فصرخ قائلاً :" ضاعت المملكة " .

أما صلاح الدين فلم يواجه الصليبين في يوم الجمعة التالي لوصولهم ولكن كانت مواجهة من بعيد يرمي عليهم بالنبال ليزيدهم تعباً على تعبهم وظل يناوشهم طوال يوم الجمعة التالي حتى يوقع بهم أكبر قدر ممكن من العطش وبعد اكتمال الجيش الصليبي قام صلاح الدين في الليل وأحاط بالجيش الصليبي وطوقه بالكامل لدرجة أنه قال في ذلك المؤرخون الصليبيون أنه بعد عمل هذه الشبكة لا يستطيع قط أن يخرج من هذه الشبكة المنصوبة وقام بعض المطوعين بأشعال النيران في الحشائش اليابسة على هضبة حطين والرياح تأخذ الدخان والنار إلى المكان الذي يعسكر فيه الجيش الصليبي.

فاجتمع عليهم حر الزمان وحر النار وحر الدخان وحر القتال ولما أصبح اليوم التالي يوم السبت ٢٣ ربيع الآخر عام ٥٨٣هـ نشبت المعركة الحامية الوطيس بعد أن اعد صلاح الدين جيشه معنوياً طوال الليل حيث كان يدور على الكتائب والفوق يحثهم على الصبر وعلى الذكر وتلاوة القرآن ويذكرهم بأنهم أمام إحدى الحسنيين إما النصر أو الشهادة وطلب منهم الثبات ولما نشبت المعركة أيقن ريموند الثالث أنهم وقعوا في الفخ وأن الجيش الصليبي بأكمله مصيره الإبادة أو الأسر ولذلك قام بهجوم

للخروج من تلك الشبكة ومعه مئات من فرسانه أراد النجاة بنفسه فلما علم صلاح الدين بتلك الحركة أمر ابن أخيه تقي الدين قائد الميمنة بأن يسمح لريموند بالفرار ففتح فتحه في الصف وخرج منها ريموند الثالث وفر هارباً إلى طرابلس ثم التأم الصف مرة ثانية بعد خروجه ودارت معركة حامية الوطيس شن المسلمون فيها هجمات شديدة على الصليبين وقتلوا منهم عدداً كبيراً وقام الصليبيون رغم ما أصابهم من عطش بهجمات مضادة وأحياناً كانوا ينجحون في رد الهجمات الإسلامية وكان معهم صليب الصلبوت وهو من الخشب وكان صلاح الدين يحرض دائماً على اسقاط هذا الصليب وأسقطه المسلمون وحلت الهزيمة الساحقة بالجيش الصليبي الذي كان يزيد عن خمسين ألف مقاتل وقعوا جميعاً بين قتيل وأسير ودخل المسلمون إلى خيمة الملك جاي لوز جنان وعند ذلك علم المسلمون أنهم انتصروا انتصاراً حاسماً ونزل صلاح الدين من فوق ظهر فرسه وسجد لله تعالى واغرورقت عيناه بالدموع و" صليب الصلبوت هو الخشبة التي يزعم النصارى أن المسيح صلب عليه ".

ووقوع الجيش الصليبي بأكلمه بين قتيل وأسير :

وهكذا لم ينج أحد من ذلك الجيش الصليبي الذي يعتبر أكبر جيش حشدته مملكة بيت المقدس الصليبية منذ نشأتها ، حيث وقع جميع أفراد الجيش لتلك المملكة بين أسير وقتيل ويدلل المؤرخون على فداحة الخسائر البشرية التي تكبدها الصليبيون بقولهم : إن من شاهد القتلى ظن أنه لم يكن هناك أسرى ومن شاهد الأسرى ظن أنه لم يكن هناك قتلى ، ويؤكد ابن الأثير أنه مر بمكان المعركة بعد نحو سنة من وقوعها فوجد الأرض ملآى من عظامهم بحيث يمكن رؤيتها عن بعد منها المجتمع بعضه على بعض ومنها المفترق ، فضلاً عما جحفته السيول وأخذته السباع في تلك الأكام والوهاد .

نصب صلاح الدين خيمته وجيء بالأسرى وهم الملك جاي لوزجنان وارناط وجيرار مقدم الداوية وكانوا عند ذلك في غاية العطش فأمر صلاح الدين بأعطاء الملك جاي لوز جنان الماء البارد المثلج فشرب منه جاي لوزجنان واعطى البقية إلى ارناط وخاطبه صلاح الدين عن طريق المترجم وقال له أنه هو الذي اعطي له الماء وليس صلاح الدين حتى ينال أمانه وخاطب ارناط وذكّره بغدره وتهكمه على النبي صلى عليه وسلم وتجاوزه على الأماكن المقدسة فقال ارناط هذه هي عادة الملوك والأمراء واستل صلاح الدين سيفه وقال هاأنا ذا انتصر لدين محمد وضرب ارناط على رقبته فأزال رأسه وفاء بقسمه الذي أقسمه من قبل فارتعد الملك جاي خوفاً فطمأنه صلاح الدين على حياته وأخبره أنه لم تجر عادة الملوك بقتل الملوك وأن مافعله بأرناط إنما هو جزاء أفعاله الدنيئة . وتعتبر معركة حطين من أهم المعارك في عصر الحروب الصليبية ذلك أنها قضت على جيش مملكة بيت المقدس وفتحت الطريق أمام صلاح الدين على مصراعيه لاسترداد سائر البلاد التي اغتصبها الصليبيون من المسلمين بحيث استطاع صلاح الدين أن يسترد أكثر من ثمانين مدينة وقرية وقلعه وحصن مع ما يتبعها من بلاد كانت بيد الصليبين في أقل من ثلاثة أشهر وهي مساحة تعادل مساحة فلسطين التي تحتلها اسرائيل حالياً عدة مرات ولولا أن الحملة الصليبية الثالثة التي نهضت فيها أوروبا بأجمعها وجاءت بحملات لا حصر لها لولا أن تلك الحملات جاءت لاستطاع صلاح الدين خلال فترة قليلة القضاء على الوجود الصليبي في بلاد الشام بأكمله ولم يبق في أيدي الصليبين إلا مدن انطاكية وطرابلس وصور وبعد ذلك أراد صلاح الدين تجريد بيت المقدس من المدن الساحلية حتى لا تتلقى إمدادات من جهة الغرب .

ذهاب صلاح الدين إلى عكا :

ذهب صلاح الدين إلى عكا وحاصرها واستطاع الاستيلاء عليها وكانت عكا لها أهمية كبرى ثم استولى بعد ذلك على يافا وعلى حيفا وعلى بيروت وعلى قيسارية وعلى مدن كثيرة وحاصر عسقلان واستولى عليها ولم يبق في يد الصليبيين إلا صور.

قرار صلاح الدين فتح بيت المقدس :

قرر صلاح الدين استرداد بيت المقدس بعد أن استرد معظم البلاد والمدن التي استولى عليها الصليبيون من قبل وكانت أحوال بيت المقدس سيئة جداً لأن جيشها دُمِّر بكاملة في حطين ولم يبق في بيت المقدس إلا القليل من الجنود وبقية السكان من النساء والأطفال والشيوخ .

وكان باليان دي ابلين احد الأمراء الصليبين وكان قد سلم لصلاح الدين مدينة صيدا وبعد ذلك استأذن صلاح الدين أن يسمح له ليلة بالذهاب إلى بيت المقدس ليأخذ زوجته وأطفاله وحلف لصلاح الدين أن لا يمكث في بيت المقدس إلا ليلة واحدة ويغادر إلى صور فسمح له صلاح الدين بذلك وعندما وصل إلى بيت المقدس وكان فارساً معروفاً ومشهوراً لديهم فأخذ النساء والأطفال والشيوخ يلتفون حوله ويبكون ويطلبون منه أن يدافع عن مدينتهم والدفاع عنهم أمام هجوم صلاح الدين واستجاب لطلبهم وتولى أمر بيت المقدس وقام بتجنيد الصغار من سن الرابع عشره وما فوقها وتجنيد الشيوخ حتى من تعدى سن الستين ليدافعوا عن أسوار بيت المقدس.

أرسل الصليبيون في بيت المقدس إلى صلاح الدين رسالة وهو يحاصر عسقلان يعرضون عليه الاستسلام ولكن بشروط معينة فأصر صلاح الدين أن تستسلم بيت المقدس دون قيد أو شرط فرفضوا ذلك وعند ذلك أقسم صلاح الدين أن يأخذها عنوه مثلما ما أخذوها قبل إحدى وتسعين عاماً .

استرداد بيت المقدس :

سمع المسلمون بعزم صلاح الدين استرداد بيت المقدس في كثير من بلدان العالم الإسلامي مثل دمشق وحلب ومصر والعراق وغيرها وتوافد إليه الكثير من العلماء والمتطوعين والطلاب للمشاركة في ذلك الشرف العظيم وهو الدخول إلى بيت المقدس وتحريرها من براثن الصليبين وسار إلى بيت المقدس ودار حولها خمسة أيام في البداية وعسكر في الجهة الغربية ووجد أن المنطقة بها أودية ومن الصعب محاصرتها من هذه الجهة ثم بعد ذلك دار حول المدينة إلى أن استقر به المقام في الجهة الشمالية لأنه يوجد بها باب العمود وكنيسة صهيون وأيضاً أقرب للأسوار وفي نفس الوقت بعيداً عن تأثير الشمس وأمر بأحضار المنجنيقات لهدم السور وأمر بأحضار كل الآت الحصار والنقابين وكل مايساعده في ذلك .

بدء الهجوم على بيت المقدس :

وكان ذلك في عشرين رجب عام ٥٨٣هـ واشتد الحصار ونجح المسلمون في خلال أسبوع واحد في نقب نحو ثلاثة وأربعين نقباً داخل أسوار بيت المقدس وأخذوا يجمعون الحطب وأدخلوه في تلك الثقوب لأشعالها كي يمكن لهم هدم تلك الأسوار .

أرسل باليان دي أبلين إلى صلاح الدين يعرض الاستسلام بشروط ولكن صلاح الدين رفض ذلك فعاد الوفد خائباً ثم خرج باليان دي أبلين إلى صلاح الدين بنفسه وطلب الأمان من صلاح الدين ولما مثل بين يديه طلب منه أن يستسلم بشروط وأن يحفظ أهلها مثل ما فعل مع أهل المدن الأخرى ولكن صلاح الدين أخبره أنه أقسم أن يفتحها عنوه مثلما فتحها الصليبيون من قبل فخاطب صلاح الدين بطريقة فيها استرحام واستعطاف .

وقال له أيها الملك أعلم أننا خلق كثير داخل بيت المقدس وأنه إذا كان لهم أمل في أن تبقى على حياتهم فإنهم سوف يسلمون بيت المقدس وأما إذا كان غير ذلك فسوف يقوم الرجال بقتل النساء والأطفال وحرق أموالهم حتى لا تستفيدون منها وهناك اسرى مسلمون مسجونين في بيت المقدس سوف نقتلهم ونخرب قبة الصخرة ونخرب المسجد الأقصى ونخرج مستميتين الرجل منا إلا بعد أن يقتل رجلا منكم.

استسلام بيت المقدس :

وأشار بعض القادة على صلاح الدين أن تستسلم بيت المقدس مثل ما أقسم وكأنها وقعت عنوه (لأن أحكام البلاد التي يدخلها عنوه غير التي يدخلها صلحاً) ويصبح الصليبيون كأنهم رقيق ويشترون أنفسهم بأن يدفع الرجل عشرة دنانير مقابل تحرير نفسه وتدفع المرأة خمسة مقابل ذلك والطفل دينار واحد ومن مرت عليه اربعون يوماً لم يدفع فيباع في سوق الرقيق ووافق صلاح الدين على ذلك .

دخول المسلمين بيت المقدس في عام ٥٨٣هـ :

وكان ذلك في يوم ٢٧ رجب ٥٨٣هـ الموافق الثاني من أكتوبر عام ١١٨٧م وكان ذلك في ذكرى الإسراء والمعراج .

تسامح صلاح الدين في معاملة الأسرى :

وبعد مرور أربعين يوماً بقى الكثير من سكان بيت المقدس لم يدفعوا الفدية فصاروا رقيقاً ولكن صلاح الدين كان يعاملهم معاملة حسنة فكان يتصدق بالكثير منهم وكان يعطي أخوته الكثير منهم فيعتقونهم في سبيل الله .

ثم قام صلاح الدين في إزالة ما أقامه الصليبيون من صور داخل المسجد الأقصى وقبه الصخرة :

وبدأ صلاح الدين في الإصلاحات داخل بيت المقدس وإزالة ما أحدثه الصليبيون من صور في المسجد الأقصى وفي قبة الصخرة وذلك أن المحراب جعلوه مستراحاً لهم ومخزناً للمؤن وصوروا الصور الشركية مثل صور القديسين وصور مريم وصور المسيح عليه والسلام في قبة الصخرة فأمر بإزالة كل تلك النجاسات .

وبعد إزالة كل هذه النجاسات أمر صلاح الدين بغسل المسجد الأقصى وقبة الصخرة بماء الورد ..

أول خطبة في المسجد الأقصى :

كانت أول خطبة في المسجد الأقصى في شهر شعبان من عام ٥٨٣هـ .

محي الدين زنكي يخطب أول خطبة في المسجد الأقصى :

اسند صلاح الدين أول خطبة تلقى في المسجد الأقصى بعد استرداده إلى محي الدين زكي الدين في يوم الجمعة . ولما كان يوم الجمعة التالية لجمعة الفتح وهو الرابع من شعبان حضر المسلمون إلى الأقصى الشريف فغص بالزمام وتزاحم الناس به في سائر الأطراف والساحات وقد توافد الناس من كل صقع وجاءوا من كل فج ليفوزا بزيارته ولينعموا بالمشاهدة للفتح فأجتمع من أهل الإسلام عدد عظيم لا يقع عليهم الإحصاء فلما أذن الظهر من هذا اليوم يوم الجمعة المباركة حضر السلطان بقبة الصخرة المقدسة وهو في غاية السرور والفرح إذ جعله الله تعالى في هذا الفتح ثانياً لعمر بن الخطاب رضي الله عنه الفاتح الأول وميزه بهذه المنقبة فاعتلى محي الدين بن زكي الدين المنبر الذي كان قد أمر بصناعته نور الدين محمود لبيت المقدس وظل بجامع حلب بعد موته ، فأمر صلاح الدين بإحضاره إلى بيت المقدس فصعد ابن الزكي المنبر وخطب الخطبة التالية :

خطبة القاضي محي الدين بن زكي الدين بعد استرداد بيت المقدس يوم الجمعة ٤ شعبان ٥٨٣هـ[١]

ولما كان يوم الجمعة التالية لجمعة الفتح ، وهو الرابع من شعبان ، حضر المسلمون الحرم الشريف فغض بالزحام ، فإنه من حين تسامع الناس به في سائر الاطراف ، وكسر العدو ، والقصد إلى فتح بيت المقدس ، توافد الناس من كل صقع ، وجاءوا من كل فج ، ليفوزوا بالزيارة ، ويحظوا بالمشاهدة للفتح ، فاجتمع من أهل الإسلام عدد عظيم لا يقع عليهم الاحصاء ، فلما أذّن الظهر من يوم هذه الجمعة المباركة حضر السلطان بقبة الصخرة المقدسة وهو في غاية السرور والفرح ، إذ جعله الله تعالى في هذا الفتح ثانياً لعمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ الفاتح الأول ومنيزه بهذه المنقبة دون سائر الملوك من ملوك الإسلام .

وامتلأت أعراض المسجد وصحونه بالخلائق ، واستعبرت العيون من شدة الفرح وخشعت الأصوات ، ووجلت القلوب ، وكان جماعة من الأكابر والعلماء قد رشحوا أنفسهم للخطبة في هذا المسجد المعظم ، وأخذوا لذلك أهبته وألفوا ما يخطبون به ، ومنهم من عرض للسلطان يطلب ذلك ، ومنهم من صرح ، والسلطان ساكت لا يبدي سره ، فلما حان وقت الخطبة نصّ على القاضي محي الدين بن زكي الدين ، وقدمه لهذا الأمر الجليل ، فرقي المنبر بالأهبة السوداء العباسية ، وخطب خطبة بديعة بليغة ، هي : ـ

---

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢١٨ ـ ٢٢٧ .

﴿ فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ﴾[1] .

﴿ الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ﴾[2] .

﴿ الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ﴾[3] .

﴿ وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ، ولم يكن له شريك في الملك ، ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيرا ﴾[4] .

﴿ الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ، ولم يجعل له عوجاً ، قيماً لينذر بأساً شديداً من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً ماكثين فيه أبداً وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً ، ما لهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم أن يقولون إلا كذبا ﴾[5] .

﴿ قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى الله خير أما يشركون ﴾[6] .

﴿ الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم الخبير يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور ﴾[7] .

﴿ الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلاً ﴾[8] .

---

(١) سورة الانعام ، آية ٤٥ .
(٢) سورة الفاتحة ، آيات ٢ ، ٣ ، ٤ .
(٣) سورة الانعام ، آية ١ .
(٤) سورة الاسراء، آية ١١١ .
(٥) سورة الكهف ، آيات ١ ـ ٥ .
(٦) سورة النمل ، آية ٥٩ .
(٧) سورة سبأ ، آية ١ ـ ٢ .
(٨) سورة فاطر ، آية ١ .

الحمد للّه معز الإسلام بنصره ومذل الشرك بقهره ، ومصرف الأمور بأمره ومديم النعم بشكره ، ومستدرج الكافرين بمكره ، الذي قدر الأيام دولاً بعدله ، وجعل العاقبة للمتقين بفضله ، وأفاض على عباده من ظله ، وأظهر دينه على الدين كله ، القاهر فوق عباده فلا يمانع ، والظاهر على خليقته فلا ينازع ، والآمر بما يشاء فلا يراجع ، والحاكم بما يريد فلا يدافع

أحمده على اظفاره واظهاره ، واعزازه لأوليائه ونصره لأنصاره ، وتطهير بيته المقدس من أدناس الشرك وأوضاره ، حمد من استشعر الحمد باطن سره وظاهر جهاده .

وأشهد أن لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ، شهادة من طهر بالتوحيد قلبه ، وأرضى به ربه .

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، دافع الشرك ، وداحض الافك ، الذي أسرى به ليلاً من المسجد الحرام إلى هذا المسجد الأقصى ، وعرج به منه إلى السموات العلى إلى سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى ، ما زاغ البصر وما طغى .

صلى اللّه عليه وعلى خليفته أبي بكر الصديق ، السابق إلى الايمان ، وعلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أول من رفع عن هذا البيت شعار الصلبان وعلى أمير المؤمنين عثمان بن عفان ذي النورين جامع القرآن ، وعلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، مزلزل الشرك ومكسر الأوثان ، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان .

أيها الناس : أبشروا برضوان اللّه الذي هو الغاية القصوى ، والدرجة العليا ، لما يسره اللّه على أيديكم من استرداد هذه الضالة من الأمة الضالة وردها إلى مقرها من الإسلام بعد ابتذالها في أيدي المشركين قريباً من مائة عام ، وتطهير هذا البيت الذي أذن اللّه أن يرفع فيه اسمه ، واماطة الشرك عن

طرقه ، بعد أن امتد عليها رواقه واستقر فيها رسمه ، ورفع قواعده بالتوحيد ، فانه بني عليه ، وانه أسس بالتقوى من خلفه ومن بين يديه ، وهو موطن أبيكم إبراهيم ، ومعراج نبيكم محمد عليهما السلام ، وقبلتكم التي كنتم تصلون إليها ابتداء الإسلام ، وهو مقر الأنبياء ، ومقصد الأولياء ومقر الرسل ومهبط الوحي ، ومنزل تنزل الأمر والنهي ، وهو في أرض المحشر وصعيد المنشر ، وهو في الأرض المقدسة التي ذكرها الله في كتابه المبين ، وهو المسجد الذي صلى فيه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالملائكة المقربين ، وهو البلد الذي بعث الله اليه عبده ورسوله وكلمته التي ألقاها إلى مريم وروحه عيسى الذي شرفه الله برسالته وكرمه بنبوته ، ولم يزحزحه عن رتبة عبوديته فقال تعالى ﴿ لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ﴾[1] وقال ﴿ لقد كفر الذين قالوا أن الله هو المسيح بن مريم ﴾[2] .

وهو أول القبلتين ، وثاني المسجدين ، وثالث الحرمين ، ولا تشد الرحال بعد المسجدين إلا إليه ، ولا تعقد الخناصر بعد الموطنين إلا عليه ، ولولا أنكم ممن أختاره الله من عباده ، واصطفاه من سكان بلاده ، لما خصكم بهذه الفضيلة التي لا يجاريكم فيها مجار ولا يباريكم في شرفها مبار ، فطوبى لكم من جيش ظهرت على أيديكم المعجزات النبوية والوقعات البدرية ، والعزمات الصديقية والفتوح العمرية ، والجيوش العثمانية ، والفتكات العلوية ، جددتم للإسلام أيام القادسية ، والوقعات اليرموكية ، والمنازلات الخيبرية والهجمات الخالدية .

فجزاكم الله عن محمد نبيه أفضل الجزاء ، وشكر لكم ما بذلتموه من مهجكم في مقارعة الأعداء ، وتقبل منا ومنكم ما تقربتم به إليه من مهراق الدماء ، وأثابكم الجنة فهي دار السعداء ، فاقدروا ـ رحكم الله ـ هذه النعمة حق قدرها ، وقوموا لله بواجب شكرها ، فله النعمة عليكم بتخصيصكم بهذه

---

(١) سورة النساء ، آية ١٧٢ .

(٢) سورة المائدة ، آية ١٧ .

النعمة ، وترشيحكم لهذه الخدمة ، فهذا هو الفتح الذي فتحت له أبواب السماء وتبلجت بأنواره وجوه الظلماء ، وابتهج به الملائكة المقربون ، وقربه عيناً الأنبياء والمرسلون ، فماذا عليكم من النعمة بأن جعلكم الجيش الذي يفتح عليه البيت المقدس في آخر الزمان ، والجند الذي يقوم بسيوفهم بعدة فترة من الرسل أعلام الايمان ، فيوشك أن تكون التهاني به بين أهل الخضراء أكثر من التهاني به بين أهل الغبراء .

أليس هو البيت الذي ذكره اللّه في كتابه ونص عليه في خطابه ؟ فقال تعالى ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ﴾(١)

أليس هو البيت الذي عظمته الملوك ، وأثنت عليه الرسل ، وتليت فيه الكتب الأربعة من إلهكم عز وجل ؟ .

أليس هو البيت الذي أمسك اللّه عز وجل فيه الشمس على يوشع لأجله أن تغرب ، وباعد بين خطواتها ليتيسر فتحه ويقرب ؟ .

اليس هو البيت الذي أمر اللّه (تعالى) موسى أن يأمر قومه باستنقاذه فلم يجبه إلا رجلان ، وغضب عليهم من أجله ، وألقاهم في التيه عقوبة العصيان ؟ .

فاحمدوا اللّه الذي أمضى عزائمكم لما نكلت عنه بنو إسرائيل وقد فضلهم على العالمين ، ووفقكم لما خذل عنه أمم ممن كان قبلكم من الأمم الماضية ، وجمع كلمتكم وكانت شتى ، وأغناكم بما أمضته كان وقد عن سوف وحتى .

فليهنكم أن اللّه قد ذكركم به فيمن عنده ، وجعلكم بعد أن كنتم جنوداً لأهويتكم جنده ، وشكر لكم الملائكة المنزلون على ما أهديتم إلى هذا البيت من طيب التوحيد ونشر التقديس والتجميد ، وما أمطتم فيه عن طرقهم من أذى

---

(١) سورة الاسراء ، آية ١ .

الشرك والتثليث ، والاعتقاد الفاسد الخبيث ، فهو الآن يستغفر لكم أملاك السموات ، ويصلي عليكم الصلوات المباركات .

فاحفظوا - رحكم اللّه - هذه الموهبة فيكم ، واحرسوا هذه النعمة عندكم بتقوى اللّه التي من تمسك بها سلم ومن اعتصم بعروتها نجا وعصم ، وأحذروا من اتباع الهوى ومواقف الردى ، ورجوع القهقري ، والنكول عن العدي ، وخذوا في انتهاز الفرصة ، وإزالة ما بقي من الغصة ، وجاهدوا في اللّه حق جهاده ، وبيعوا أنفسكم عباد اللّه في رضاه إذ جعلكم من عباده وإياكم أن يستذلكم الشيطان ، وان يتداخلكم الطغيان ، فيخيل إليكم ان هذا النصر بسيوفكم الحداد وبخيولكم الجياد ، وبجلادكم في موضع الجلاد ، واللّه ما النصر إلا من عند اللّه ، ان اللّه عزيز حكيم .

واحذروا - عباد اللّه - بعد أن شرفكم بهذا الفتح الجليل ، والمنح الجزيل ، وخصكم بهذا النصر المبين ، وأعلق أيديكم بحبله المتين ، أن تقترفوا كثيراً من مناهيه ، وأن تأتوا عظيماً من معاصيه ، فتكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً ، والذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين ، والجهاد الجهاد ، فهو أفضل عباداتكم وأشرف عاداتكم ، أنصروا اللّه ينصركم ، اذكروا اللّه يذكركم ، اشكروا اللّه يزدكم ويشكركم ، جدوا في حسم الداء ، وقطع شأفة الأعداء ، وتطهير بقية الأرض التي أغضبت اللّه ورسوله واقطعوا فروع الكفر واجتثوا أصوله ، فقد نادت الأيام بالثارات الإسلامية والملة المحمدية اللّه أكبر ، فتح اللّه ونصر ، وغلب اللّه وقهر ، وأذل اللّه من كفر .

وأعلموا - رحكم اللّه - أن هذه فرصة فانتهزوها ، وفريسة فناجزوها ومهمة فأخرجوا إليها هممكم وابرزوها ، وسيروا إليها سرايا عزماتكم وجهزوها ، فالأمور بأواخرها والمكاسب بذخائرها ، فقد أظفركم اللّه بهذا العدو المخذول وهم مثلكم أو دون ، فكيف وقد اضحى في قبالة الواحد منهم

منكم عشرون ، وقد قال تعالى : ﴿ إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ﴾[1] .

أعاننا اللّه وإياكم على اتباع أوامره والازدجار بزواجره ، وأيدنا معشر المسلمين بنصر من عنده ﴿ ان ينصركم اللّه فلا غالب لكم ، وان يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده ﴾[2] .

ثم أتم الخطبة الأولى وجلس ثم قام وخطب الثانية كما جرت العادة ثم دعا للخليفة الإمام الناصر لدين اللّه أمير المؤمنين ، ثم قال : ـ

« اللهم وأدم سلطان عبدك الخاضع لهيبتك ، الشاكر لنعمتك ، المعترف بموهبتك ، سيفك القاطع ، وشهابك اللامع ، والحامي عن دينك الدافع ، والذاب عن حرمك (وحرم رسولك) الممانع ، السيد الأجل ، الملك الناصر جامع كلمة الايمان ، وقامع عبدة الصلبان ، صلاح الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، مطهر البيت المقدس ، أبي المظفر ، يوسف (صلاح الدين) ابن أيوب محيي دولة أمير المؤمنين .

اللهم عمّ بدولته البسيطة ، وأجعل ملائكتك برایاته محيطة ، وأحسن عن الدين الحنيفي جزاءه ؛ وأشكر عن الملة المحمدية عزمه ومضاءه .

اللهم ابق للإسلام مهجته ، ورق للايمان حوزته ، وانشر في المشارق والمغارب دعوته .

اللهم فكما فتحت على يديه البيت المقدس ، بعد أن ظنت به الظنون وابتلى المؤمنون ، فافتح على يديه داني الأرض ونواصيها ، وملكه صياصي الكفر ونواصيها ، فلا لقى منهم كتيبة الا فرقها ولا جماعة الا فرقها ولا طائفة بعد طائفة إلا الحقها بمن سبقها .

---

(١) سورة الأنفال ، آية ٦٥ .

(٢) سورة آل عمران ، آية ١٦٠ .

اللهم اشكر عن محمد - صلى الله عليه وسلم - سعيه ، وأنفذ في المشارق والمغارب أمره ونهيه ، واصلح به أوساط البلاد وأطرافها وأرجاء الممالك واكنافها .

اللهم ذلل به معاطس الكفار ، وارغم به أنوف الفجار ، وانشر ذوائب ملكه على الأمصار ، واثبت سرايا جنوده في سبيل الاقطار .

اللهم ثبت الملك فيه وفي عقبه الى يوم الدين ، واحفظه في بنيه وبني أبيه الملوك الميامين وأشدد عضده ببقائهم ، واقض باعزاز أوليائه وأوليائهم .

اللهم فكما جرت على يده في الإسلام هذه الحسنة التي لا تبقى على الأيام ، وتتخلد على مرور الشهور والأعوام ، فارزقه الملك الابدي الذي لا ينفذ في دار المتقين ، واجب دعوته في قوله : ﴿ رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والدي ، وأن أعمل صالحاً ترضاه ، وادخلني برحمتك في عبادك الصالحين ﴾(١) .

ثم دعا بما جرت به العادة ، ونزل وصلى بالناس صلاة الجمعة .

---

(١) سورة النمل ، آية ١٩ .

الحملة الصليبية الثالثة وكيف واجه صلاح الدين هذه الحملة :

قبل معركة حطين جرت اتصالات بين صلاح الدين وبين إمبراطور الدولة البيزنطية إسحاق انجيلوس وتوطدت العلاقات إلى أن أصبحت في شكل تحالف بين الروم وبين صلاح الدين ضد الصليبين وهذه سياسه استطاع صلاح الدين بها شق الجبهة النصرانية إزاء المسلمين حيث استمال إلى جانبه الإمبراطور البيزنطي وأرسل له بعض الهدايا بعد معركة حطين وكان لهذا أسوأ الأثر على الحملة الصليبية الألمانية التي قادها فردريك بربروسا .

وقد أشرنا إلى أن صور صمدت في وجه صلاح الدين ولم يحفل بأمرها بعد الاستيلاء على عكا وآثر أن يركز جهوده على فتح بيت المقدس .

وفي هذه الأثناء جاء فارس صليبي هو المركيز كونراد دي مونتفرات

وكان قد ارتكب جريمة قتل في القسطنطينية ثم فر بسفينته ومعه بعض الرجال ووصل إلى ميناء عكا دون أن يعلم أن عكا سقطت بيد صلاح الدين .

وكان من عادة الصليبين في ميناء عكا أنه إذا وصلت سفينة غربية تقرع أجراس الكنائس فوصل كونراد فلم يسمع أجراس الكنائس فوجد بحاراً على قارب فسأله ما الأمر فأخبره أن عكا بيد صلاح الدين وأن الذي يتولاها ابنه الأفضل نور الدين علي عند ذلك انتظر كونراد دي مونتفرات حتي هبت الريح باتجاه الشمال ووجه أشرعة سفينته وذهب إلى صور وكانت صور في ذلك الحين تتأهب للتسليم إلى صلاح الدين وذلك أن واليها أُسقِط في يديه بعد سقوط بيت المقدس وبعد ما علم أنه لا قدره له على مواجهة صلاح الدين ولذلك قرر تسليم صور مقابل أن يؤمن أهل صور على حياتهم وأموالهم .

لكن كونراد دي مونتفرات لما وصل إلى صور نفخ فيهم روحاً جديدة وتولى أمر القيادة في صور وقاد فلول الصليبين وقام بتحصين صور وكانت مدينة صور على شكل لسان داخل في البحر وهي ذات موقع استراتيجي هام وقد أشار ابن جبير في رحلته عندما زار صور قبل ذلك بسنوات بأنها مدينة غاية في الحصانة فعلى عجل قام كونراد بتحصين ورفع أسوار صور وتقوية أبراجها كما أن فلول الصليبين التي كان صلاح الدين قد سمح لها بالمغادرة من المدن التي استولى عليها في جنوب بلاد الشام وبيت المقدس حيث سمح بالمغادرة في أمان مقابل تسليم مدنهم أخذوا يتجمعون في صور فزادت بهم صور قوة وقام كونراد بعد ذلك بحفر خندق على أسفل ذلك اللسان خارج أسوار صور وأجرى فيه الماء من البحر إلى البحر فأصبحت صور وكأنها جزيرة في وسط البحر ثم بعد ذلك جاء صلاح الدين بعد استرداد بيت المقدس وحاصر صور إلا أنه لم يستطع الاستيلاء عليها ذلك أن كونراد قواها ، حتى أن المكان الذي تدخل فيه القوات من ناحية البر كان ضيقاً جداً وكان موقع القتال لا يسهل للمسلمين الاستيلاء على صور .

وفي نفس الوقت كانت السفن الصليبية أيضاً تدافع من الجهتين من ذلك اللسان الذي تقوم عليه مدينة صور فصمدت صور وقتاً طويلاً وكان ضمن الأسرى في معركة حطين (وليم الثالث دي مونتفرات) والد كونراد فجاء به صلاح الدين إلى أمام أسوار صور وهدد بقتله وضرب عنقه إذا لم يسلم ابنه كونراد دي مونتفرات المدينة ، إلا أن كونراد أعلن من على الأسوار بأنه يفضل أن يموت وهو أبوه دون أن يسلم شبراً واحداً من مدينة صور ولذلك لم تسقط مدينة صور في يد صلاح الدين فصمدت بسبب تحصينها كما أن الكثير من قادة صلاح الدين في ذلك الحين كانوا قد تعبوا من طول الفترة التي أمضوها في الحرب سواء في معركة حطين أو في المدن التي استولوا عليها بعد ذلك ، وخاصة المدن الحصينة مثل عسقلان أو يافا وعكا وغيرها

فرأوا أن المرابطة عند صور فيه مشقة عليهم فأشاروا بتركها واستجاب لهم صلاح الدين وانصرفوا إلى حصار بعض الحصون الباقية داخل بلاد الشام والاستيلاء عليها الأمر الذي مكن الصليبين في صور من زيادة تحصيناتها وحشد المزيد من المؤن والأقوات داخلها .

وكان لمعركة حطين وسقوط بيت المقدس أثر سيء جداً على الوضع في غرب أوروبا ذلك أن الرهبان وبعض رجال الدين اتجهوا بعد الهزيمة وبعد سقوط بيت المقدس اتجهوا إلى أوروبا يخبرونهم نبأ الهزيمة كما أسهم كونرادي منتوفرات في أستثارة الغرب الأوروبي عندما كلف رئيس أساقفة صور الكاثوليكي ويسمى جوسياس فأرسلهُ للبابا والمجلس البابوبي وإلى الغرب الأوروبيّ بالأنباء المفصلة عن معركة حطين وسَقوط بيت المقدس وحَمَلهُ لوحين،لوح أمر بأن يُرسم عليه صورة رجل في يده عصا ويقبض بخناق رجل آخر ويضربه بالعصا والدماء تترف من ظهره وقال هذا محمد النبي العربي يضرب يسوع المسيح كما صور صورة أخرىٰ فيها بيت المقدس وفيها صورة الضريح المقدس في بيت المقدس عند النصارى حيث يعتقدون أنه ضريح المسيح ويقف على القبر حصان وعليه فارس وصورة الحصان وهي تتغوط ويقول هذا صلاح الدين على حصانة فوق قبر الرب المسيح ووصل جوسياس بتلك الرسائل وتلك الصور وكان أول وصوله إلى صقلية حيث مملكة النورمان التي كان يتولاها وليم الثاني فأنبأه بما حدث وأطلعه على تلك الصور فتأثر وليم الثاني غاية التأثر حتى أنه لبس لباس الخيش تعبيراً عن حزنه واعتزل أربعة أيام ثم أرسل رسائل من لدنه إلى ملوك الغرب يطلب أن يشاركوا معه في حملة صليبية لإسترداد بيت المقدس ومواجهة صلاح الدين ، وبعد ذلك ارتحل جوسياس إلى أوروبا لمقابلة بقية ملوك الغرب . أما وليم الثاني فل ينتظر وصول الحملات الصليبية التي ستأتي من الغرب لأوروبي إنما سارع على عجل واستدعى الأسطول النورماني وكان قائد الأسطول في ذلك الحين يسمى

مارجريتوس البرنديزي وكانت قطع من ذلك الأسطول في ذلك الحين عند قبرس تقدم المساعدة لأحد المتمردين البيزنطيين ضد الإمبراطور إسحاق انجيلوس عند ذلك جاء الأسطول النورماني وتجهز من صقلية وكان يحمل نحو عشرة الآف وانطلق في ستين سفينة وصلت إلى سواحل الشام وزودت طرابلس وانطاكية وصور بما تحتاجه تلك المدن الثلاثة من رجال ومن معدات وكان لتلك النجدة السريعة أثرها في صمود تلك المدن الثلاث أمام صلاح الدين .

وكنا أشرنا إلى أن البناء الصليبي كان في سبيله إلى الإنهيار وأنه أوشك على السقوط لولا النهضة التي نهضتها أوروبا في حرب عالمية كبرى ضد صلاح الدين .

ذلك أن جوسياس ذهب وقابل البابا إيربان الثالث في ذلك الحين الذي ما أن أوصل إليه الخبر وآراه تلك الصور التي أرسلها معه كونراد دي مونتفرات حتى تأثر البابا ومات كمدا على سقوط بيت المقدس وما سمعه من كوارث حلت بالعالم النصراني وتولى بعده البابا جريجوري الثامن الذي أرسل إلى ملوك الغرب يدعوهم إلى حرب صليبية جديدة وأرسل إلى أكبر الملوك في الغرب - وهم الإمبراطور فريدريك باربا روسا الذي تسمى مملكته باسم الامبراطورية الرومانية المقدسة وأرسل إلى ملك فرنسا فيليب أغسطس وإلى ملك انجلترا هنري الثاني وغيرهم من الملوك والأمراء ولكن البابا جريجوري الثامن لم يلبث أن مات بعد شهرين من بابويته وتولى أمر البابوية البابا كليمنت الثالث الذي واصل الدعوة إلى حرب صليبية جديدة .

وفي ذلك الوقت كانت هناك حرب قائمة بين انجلترا وفرنسا فاتفق هنري الثاني ملك انجلترا مع فيليب اغسطس بعد أن قابل جوسياس أسقف صور ودعاهما إلى تناسي ما بنيهم من خلافات وحروب وتوجيه حملة مشتركة ضد صلاح الدين لاسترداد بيت المقدس وعقدا اتفاقيه للصلح وتوقفت الحرب بينهما ولم يلبث هنري

الثاني ملك انجلترا أن مات فتولى ابنه ريتشارد قلب الاسد حكم انجلترا ونهض بحملتـــه الصليبية بكل همة ونشاط .

الحملة الصليبية التي قادها فريدريك باربا روسا :

كان في الـــ ٧٠ من عمره وكان قد شارك مع عمه كونراد الثالث في الحملـــة الصليبية الثانية زمن نور الدين وكان يتطلع في أن يعود في حملة صليبية تحقق النجـاح على حساب المسلمين فلما وصلت تلك الأنباء وقابل جوسياس اسقف صـــور عنـــد ذلك كتب للأمراء الألمان وعهد بأمبراطوريته في ا لغرب إلى ابنه الأكبر وولي عـــهده هنري الذي عرف فيما بعد باسم هنري السادس ثم قاد جيشه وجيـــوش الإمـــارات الالمانية وأكبر جيش في أوروبا وفي الحروب الصليبية وبلغت إحصائية الجيش ٥٠ ألف فارس ومائة ألف من المشاة ولو وصل إلى بلاد الشام ربما تغير مجرى الحروب الصليبيـة بكاملها والمسلمون سمعوا بأنباء تلك الحملة وكان لها أثر كبير على معنوياتهم حـتى أن ابن الأثير ذكر أنه لو وصل ملك الألمان لأصبحنا نقول أن بلاد الشام ومصر كـــانت لنا..

وسمع صلاح الدين بتلك الأنباء وكان لديه جهاز استخبارات بـــالغ الروعـــه وصلته الأخبار منذ وقت مبكر عن تلك الحشود التي أخذت تحتشد في أوروبا من قبـل بعض التجار الإيطاليين من البنادقة وغيرهم الذين استمالهم وأصبحـــوا يقدمـــون لـــه الأخبار مقابل امتيازات تجارية ، وكان هؤلاء يتاجرون مع الاسكندرية وبعض المـوانيء الإسلامية في مصر بالإضافة إلى أن الإمبراطور البيزنطي اسحاق انجيلوس أرسل رســالة إلى صلاح الدين رسالة يخبره فيها بحملة ملك الإلمان .

أرسل ملك الإلمان قبل تحركهِ متجهاً عبر البر إلى الشرق عدة رسائل فقد أرسل إلى ملك المجر ويسمى بيلا يطلب منه أن يهيء له سبل المرور في أمان إلى بلاد الدولـــة البيزنطية فاستجاب له واستقبله بحفاوه واستقبل جيشه وقدم له كل ما يحتاجـــه مـــن

مؤ ن ومن وسائل كما أرسل رسالة إلى الإمبراطور البيزنطي اسحاق انجيلوس ، أما اسحاق انجيلوس ففي رسالته إلى صلاح الدين أخبره بأنه سيمنع ملك الإلمان من العبور عبر أراضيه .إلا أن قوة الدولة البيزنطية في ذلك الحين التي كانت قوتها قد دمرت في معركة ميركيفالون في عام ٥٧٢هـ ولم يعد لديها جيش يستطيع الصمود أمام جيش الألمان لذلك أرسل إسحاق انجيلوس إلى صلاح الدين مرة أخرى يخبره أنه عجز عن مواجهة ملك الألمان وأخبره بعدد جيشه وتواصلت المراسلات بين اسحاق وصلاح الدين وتبادلا الهدايا وكان من ضمنها سفارة وصلت إلى صلاح الدين .

ولما تلقى صلاح الدين الرسالة من الإمبراطور البيزنطي والهدايا أعاد إلى الإمبراطور البيزنطي رسالة ومعها هدايا منها :

عشرون جوادا من جياد اللاتين التي سقطت في أيدي المسلمين في حطين وصناديق كبيرة من العطور والبلسان وثلاثمائة عقد من الجواهر وصندوق من العود ومائة كيس من المسك وعشرون ألف بيزنط من العملات البيزنطية وفيل صغير وواحد من غزال المسك وزرافة وخمسة فهود وثلاثين قنطارا من الفلفل وتوابل أخرى وجرة كبيرة مصنوعة من الفضة تحتوى على خمر مسموم وكميات كبيرة من الدقيق والحبوب السامة.

وهدف صلاح الدين من تلك المراسلة السرية مع الإمبراطور البيزنطي لابد أن يزودوا وأن يبيعوا من الألمان المواد الغذائية من حبوب ومن خمور وغيرها فيستطيعون أن يدسوا شيئا من هذه المواد المسمومة في تلك الأغذية لتفتك بالصليبين فيما بعد .

وفعلا بعض المصادر الصليبية اتهمت البيزنطيين بأنهم وضعوا شيئا في تلك المواد التي باعوها لهم وكان لها أثر كبير في القضاء على جزء كبير من الجيش الالماني ، ويمكن أن نسميها حربا جرثومية أو كيمائية في ذلك العصر والمسلمون كانوا بارعين في صناعة الصيدلة والعقاقير .

أرسل الإمبراطور فرديك باربا روسا رسالة إلى صلاح الدين مليئة بالغطرسة والمباهاة ولا يشبها في غطرستها إلا بما تقوم به الإدارة الإمريكية الحالية في مخاطبتها للمسلمين يقول فيها : إن عليه أن يعيد كل ما أخذه من الصليبين وأنه لن ينازله في بلاد الشام إنما في (صوعن) وتقول الروايات النصرانية أنه هذا مكان في مصر الذي التقى فيه موسى عليه السلام بفرعون فهذه الرسالة المتغطرسة التي أرسلها فردريك باربا روسا.

صلاح الدين رغم ذلك رد على مبعوث الإمبراطور وقال أنه على أستعداد أن يعيد الأديرة اللاتينية والكنائس ويولي عليها كاثوليك وأن يطلق سراح الأسرى ويعيد لهم صليب الصلبوت أما أن يتنازل عن شيءٍ من البلاد التي فتحها فلن يفعل ذلكِ .

ولما دخل الامبراطور الإلماني في بلاد البلقان ودخل الإمبراطورية البيزنطية رأي الإمبراطور اسحاق انجيلوس بأنه لا قدرة له على مواجهة ذلك الحشد العظيم فأرسل رسالة يخبر فيها صلاح الدين بقدوم الجيش الإلماني وما معه من جيوش كثيفة وأخبره أنه لا يستطيع أن يمنعه لذلك أرسل إسحاق انجيلوس إلى الإمبراطور الألماني يعرض عليه مقابل أن يزوده بالمؤن على أن يبتعد عن عاصمته القسطنطينية خوفاً عليها منه وأن يزوده مقابل ذلك بالمؤن والأقوات وطلب منه أن يعبر من البلقان إلى أسيا الصغرى عبر مضيق الدردنيل .

أورد ابن شداد أيضاً في كتابه عن صلاح الدين (النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية) المعروف بسيرة صلاح الدين أورد نص رسالتين كتبها بطريك الأرمن وكان يسمى الكاثوليكوس في أرمينية الصغرى ، كتب رسالتين مفصلتين لصلاح الدين عن الحملة الألمانية بقيادة فردريك باربا روسا وهذا يوضح أن صلاح الدين استطاع أن يستميل إلى جانبة رأس الكنيسة الأرمنية النصرانية رغم أن أمير الأرمن ليو في ذلك الحين كان موالياً للكاثوليك وكان متحالفاً مع الصليبين لكن رأس الكنيسة الأرمنية

استطاع صلاح الدين أن يجنده لحسابه فأصبح كأنه عميل له أوجاسوس أورد له أخباراً مفصلة عن تحركات ملك الألمان .

أما صلاح الدين فلم يهمل شأن ملك الألمان فأرسل عدداً من الفرق العسكرية لسد الطرق في شمال الشام كما أرسل يستنجد بالأمراء في الجزيرة وفي العراق وأرسل إلى الخليفة العباسي، أرسل القاضي بهاء الدين ابن شداد إلى الخليفة العباسي يدعو إلى أن يأمر المسلمين ويدعوهم إلى الجهاد والتطوع لمواجهة هذا الخطر الداهم ويدعو إلى القنوت بالصلاة ليخلصهم الله من ذلك العدو الخطير القادم من أوروبا. عبر الجيش الألماني الكثيف مضيق الدردنيل إلى أسيا الصغرى وكانت في بلاد أسيا الصغرى في ذلك الحين دولة سلاجقة الروم التي يحكمها قلج أرسلان الثاني الذي كان قد تقدم به السن فقسم مملكته بين أولاده الإحد عشر وأصبح مستضعفاً امامهم .

وتقدم الجيش الإلماني إلى قرب العاصمة قونية ، لكن ابن السلطان قلج ارسلان البكر واسمه قطب الدين ملك شاه رفض السماح للإمبراطور بالعبور فهاجم جيشه وتخطف بعض الألمان مما أغضب ملك الألمان وأثار حفيظته .

وعند ذلك تقدم الجيش الألماني ووصل إلى قونية فاقتحمها رغم أن قلج أرسلان كان محالفاً لهم ، عند ذلك دخل الجيش الألماني إلى قونية ودخل أسواقها ونهبها لمدة خمسة أيام ثم أخبر فردريك باربا روسا قلج أرسلان الثاني بأنه لا هدف له في بلاده لأنه لايريد إلا صلاح الدين عند ذلك أعطاه قلج أرسلان رهائنه وقدم له المؤن والأدلاء ليدلوه على الطريق المتجه إلى الشام عند ذلك غادر الجيش الألماني الكبير رغم أنه حلت به بعض الخسائر متجهاً جنوباً في الطريق إلى بلاد الشام فعبر جبال طوروس ودخل إلى منطقة قيليقية بمدنها المشهورة طرسوس ، وأدنه ، وعين زربه ، والمصيصة وكانت هذه المنطقة في ذلك الحين خاضعة لأمير الأرمن (ليو الثاني) الذي كان في ذلك الحين قد أجرى اتصالات مع ملك الألمان قبل قدومه ومع البابوية وكان يتطلع

إلى أن يحصل على التاج من قبل الغرب الأوروبي الكاثوليكي ليصبح ملكاً على الأرمن ويصبح بذلك مساوياً للأمراء الصليبين في بلاد الشام .

وهنا تعمل إرادة الله تعالى لإنقاذ المسلمين من ذلك الخطر الداهم فمعروف أن الألمان عبر تاريخهم الطويل شعب وجيش يتميز بالقوة والشراسة والنظام وحسن الأسلحة إلا أن نقطة الضعف في الجيش الألماني على مر العصور محبة القائد إلى درجة العبادة ، يعني افتتانه بالقائد ، فكان القائد إذا ظل في المعركة يستطيع الجيش الألماني أن يحقق نتائج باهرة لكن مجرد أن يقتل أو يختفي ينهار كل شيء في الجيش ، وهذا ما حدث بالفعل في نهر يسمى نهر سالف عندما مر الجيش الألماني وقع ملك الألمان في النهر فغرق ثم أُخْرِجَ جثمانه وكان لمقتله أثر خطير على الحملة الإلمانية برمتها فأُصيب الجيش الألماني بصدمة نفسيه وأنهيار معنوي كبير حتى أن ابنه (ابن الامبراطور واسمه فردريك السوابي) الذي كان يتولى ولاية سوابيا في المانيا) رغم فروسيته لم يستطع أن يسيطر على الجيش الألماني ، فبعض الأمراء رفضوا الاستمرار في الحملة وقرروا العودة بأتباعهم إلى أوروبا لمبايعة الإمبراطور الجديد الابن الأكبر لفردريك باربا روسا وهو هنري السادس وبعض الأمراء استقلوا بعض السفن من طرسوس صوب انطاكية وصور. أما بقية الجيش الألماني فظلوا مع فردريك السوابي لكن حالتهم ساءت جداً وانتشر بينهم الوباء والجوع فهلك منهم عدد كبير ، ويبدو لنا أن تلك الأطعمة المسمومة وصلت إلى أفواههم التي أعطيت لهم وبدأت تؤثر فيهم فعند ذلك أخذوا يعبرون عبر بلا د الشام وهانوا إلي درجة كبيرة لدرجة أن فرقة منهم عبرت وهي تعبر الدرب بين انطاكية وبين قيليقية وكان هناك قلعة فتحها صلاح الدين عام ٥٨٤هـ تسمى قلعة (بغراس) ففيها حامية إسلامية ظن جنود فرقة من الجيش الألماني أن تلك القلعة لا تزال في يد فرسان الداوية الصليبين فجاءت إليها ففتحت حامية القلعة الإسلامية الأبواب وأبادت تلك الفرقة عن آخرها ، أيضاً فقد الإلمان الكثير من

أسلحتهم ذلك أنهم واجهوا فصل الشتاء في أسيا الصغرى وقد اضطر كثير منهم إلى إشعال رماحهم الخشبية ليتدفوا بها في فصل الشتاء وكانت المصادر تقلل من شأنهم لأنهم تحولوا إلى حملة عصي وركاب حمير حيث كان الرجل المسلم يخرج من حلب ويعود بالعشرة والعشرين مربوطين في حبل واحد ويبيعونهم في أسواق الرقيق وتبددت الحملة الالمانية إلى حد أنه لم يصل إلى عكا من تلك الحملة سوى ثلاثة الأف من عدد مائة وخمسين ألفاً.طبعاً هذه عناية ألاهية ولطف من الله سبحانه وتعالى بالمسلمين في ذلك الحين أما فردريك السوابي فقاد من سَلِمَ من حملة والدهِ وسار بهم إلى انطاكية بعد أن نقع جثة والدة في الخل لحفظها يريد أن تُدفن في بيت المقدس وبعد أن وصل انطاكية وجد أن الجثة قد تعفنت فعند ذلك نزع منها بعض العظام ووضعها في كيس ليدفنها حسب ما كان يتطلع في بيت المقدس ودفن باقي الجثة في انطاكية وقد استقبله أمير انطاكية الصليبي بوهيمند الثالث وقدم له يمين الولاء وكان بوهيمند الثالث يطمع في ثروة الامبراطور الألماني فلذلك ما أن طلب فردريك السوابي من بوهيمند الثالث أن يسلمه قلعة انطاكية ليضع فيها أموال والده حتى فرح بذلك وسلمه مفاتيح القلعة لأنه علم أنه لن يعود إليها وبالفعل بعد ذلك تلك الأموال أصبحت لقمة سائغة لبوهيمند الثالث ذلك أن فردريك السوابي مات عند عكة أثناء الحصار ثم بعد ذلك سار بهم عبر وادي العاصي بعد خروجه من انطاكية متجهاً إلى الجنوب وعلى نهر العاص أصيبوا أيضاً بوباء شديد مرة أخرى وهلك جمع كبير منهم فلذلك قلنا لم يصل إلى عكه من تلك الحملة التي بلغت الإحصائية الدقيقة لها خمسين ألف فارس ومائة ألف من المشاة لم يصل منهم إلا ثلاثة الأف إلى عكا. هذه قصة الحملة الألمانية أو أكبر جيش ظن المسلمون بأنهم سيجتاحونهم لكن الله سبحانه وتعالى بدد هذه الحملة وأزال هذا الخطر الداهم.مع ذلك هذا لا يعني نهاية الحملة الصليبية الثالثة وذلك أن أوروبا نهضت بكاملها في حرب صليبية شاملة كما يشير رنسيمان حيث أفرد فصلاً للحملة الصليبية الثالثة وقصتها بالتفصيل وسماه يقظة ضمير الغرب ويعبر في ذلك أن الغرب استيقظ

ضميرة ذلك أنه وصلت قبل معركة حطين استغاثات من بعض رجال الدين النصارى الكاثوليك بأن صلاح الدين يشكل خطراً عليهم يطلبون نجدة ولكن بسبب الأوضاع الداخلية في أوروبا حدث نوع من الفتور وعدم الاستجابة لتلك الاستغاثات فكأن الغرب الأوروبي بأكمله استيقظ ضميره ونهض ليكفر عن تلك الخطيئة فنهضت أوروبا بحرب عالمية كبرى (حرب صليبية) والحرب لم تقتصر على الملوك كما أشرنا ذلك حتى قبل أن يصل الإلمان إلى اسيا الصغرى وقبل أن ينهض ريتشارد قلب الأسد في أغسطس بحملته عبر البحر خرج من نهر التايمز في انجلترا مجموعة كبيرة من الأمراء وعبروا بحر المانش ووصلوا إلى غرب شبة جزيرة الأندلس ونزلوا وساعدوا ملك البرتغال في الاستيلاء على قلعة إسلامية حصينة تسمى أشلب ثم بعد ذلك اتجهوا إلى بلاد الشام،كما جاءت اعداد كبيرة من الدنمركيين والفلمنكيين من أوروبا وذكرت المصادر الأوروبية المعاصرة أن تلك السفن التي وصلت إلى سواحل الشام كان عددها خمسمائة سفينة محملة بحشود ضخمة جداً وهذه ساعدت الوجود الصليبي وساعدت الصليبين كثيراً كما سترى في حصار عكا واسقاطها والاستيلاء عليها.وكان صلاح الدين في ذلك الحين كان قد استكمل استرداد كل البلاد التي في داخل الشام بما فيها حصني الكرك والشوبك والحصون التي كانت في شمال الشام ولم يبق في يد الصليبين إلا طرابلس وانطاكية فقط أما صور التي تجمعت فيها فلول الصليبين فقد وصلتها أيضاً السفن من الغرب الأوروبي وازداد تحصينها وفي ذلك الحين قام صلاح الدين بأطلاق سراح الملك جاي لوزجنان ذلك أن زوجته الملكة سيبيل ابنه الملك الصليبي عموري الأول التي كانت قد ارسلت إلى صلاح الدين عدة رسائل تتذلل فيها وتتوسل أن يطلق سراح زوجها وبالفعل أن صلاح الدين بما عرف عنه من كرم ومن تسامح فعل ذلك واطلق سراح زوجها واطلق معه عشرة من كبار الأمراء،هذا الإجراء بعض المؤرخين المسلمين اعتبروه غلطة كبيرة،وأن صلاح الدين هو الذي تسبب في سقوط عكا بإطلاق صراح جاي لوزجنان لكن في الحقيقة أن صلاح الدين كان له نظرة

أخرى أنه يعرف أن جاي لوزجنان هو الملك في نظر الصليبين (الملك الشرعي لمملكة بيت المقدس) وصور كانت تابعة لبيت المقدس فرأى أنه إذا أطلق سراح الملك جاي لوزجنان وذهب إلى صور فيسحدث نزاع بينه وبين كنراد دي مونتفرات على مدينة صور وبالتالي يستغل ذلك النزاع صلاح الدين في الاستيلاء عليها وهذا ما حدث بالفعل ولكن صلاح الدين لم يطلق سراحه إلا بعد أن أقسم له على الإنجيل على أن لا يقاتله ولا يرفع سيفا في وجهه وأن يعود إلى أوروبا ووصل إلى عند صور وأراد أن يدخل فرفض كنراد دي مونتفرات أن يسمح له بالدخول إلى صور .

وعند ذلك ظل جاي لوزجنان مرابطا خارج صور فكانت فلول الصليبين التي تأتي من المدن التي استولى عليها صلاح الدين بعضها يدخل صور وبعضها ينضم إلى جاي لوزجنان وفي نفس الوقت كانت تأتي السفن تباعا من الغرب الأوروبي والأساطيل تحمل المؤن الإمدادات والرجال منهم من ينضم إلى كونرادي مونتفرات ومنهم من ينضم إلى جاي لوزجنان خارج صور فأحتشد حول جاي لوزجنان عدد كبير من الصليبين الذين خرجوا من المدن التي استولى عليها صلاح الدين أو من الامدادات القادمة من أوروبا واستمر الوضع على ذلك حتى عام ٥٨٥هـ وكان صلاح الدين في ذلك الحين يحاصر قلعة شقيف ارنون في جنوب لبنان (والتي كانت قاعدة للفلسطينيين في خلال حرب لبنان ثم احتلتها اسرائيل وبعد ذلك خرجت منها بعد أن واجهت الضربات التي وجهتها إليها المقاومة اللبنانية) وهذه القلعة تقع على صخرة عالية تشرف على نهر الليطاني وكانت قلعة حصينة جدا وحاصرها صلاح الدين وظل يحاصرها نحو تسعة أشهر وفي ذلك الحين فكر جاي لوزجنان بعد احتشاد مجموعة كبيرة معه أن يزحف إلى عكا عبر الساحل لكي يستولى عليها وسمع صلاح الدين بذلك وظن أنها خدعة لكي يتخلى عن حصار قلعة شقيف أرثون ففي البداية أهمل أمرها إلى أن وصلته الأخبار إلى أنه فعلا يتحرك جاي لوزجنان جنوبا للاستيلاء

على عكا عند ذلك استشار أمراءه وقادته وكانوا من رأي صلاح الدين أن يتصدى لهم ليقضي عليهم في رأس الناقورة قبل أن يصلوا إلى عكا [والناقوره حاليا في جنوب لبنان] وكان بعض الأمراء والقادة يرى أن يتركوهم حتى إذا اقتربوا من عكا فيحاصروهم بجيشهم من الداخل وباقي الجيش من الخارج ووافق على ذلك الرأي صلاح الدين رغم أنه لم يكن مقتنعا به وبالفعل وصل جاي لوزجتان إلى عكا وكانت عكا مثل القبضة داخل البحر يحدها من الجنوب خليج عكا ومن الغرب البحر الأبيض المتوسط لم يكن لها من البر إلا جهة واحدة فكانت محصنة تحصينا طبيعيا فحاصرها جاي لوزجنان من جهة البر ثم بدأ الصليبيون على عجل في حفر خندق للاحتماء به من هجوم صلاح الدين وعندما جاء صلاح الدين بجيشه هاجم الصليبين وقتل منهم عددا كبيرا وذكرت بعض المصادر أن عدد القتلى كان بالآلاف وحددت بعض المصادر أن عددهم كان عشرة الأف قتيل وبعد ذلك أمر صلاح الدين بقذف الجثث في الخندق الذي حفروه وبدأت الأمدادات تأتي إلى جاي لوزجنان من الغرب ثم جاء كنراد دي مونتفرات من صور بنفسه للمساعدة في الحصار وحدثت بعد ذلك حروب كثيرة شبيهة بحروب الخنادق وبعد ذلك جاءت الامدادات الصليبية الكثيرة حتى استطاع جاي لوزجنان أن يطوق عكا حتى من جهة البحر واكتمل الحصار على عكا وحدثت المعارك حول عكا قرابه سنتين أو بالضبط ٦٨٥ يوما وفي خلال ذلك حدثت اتصالات كثيرة بين المسلمين والصليبين وكانوا يتقاربون ويتناقشون ويرقصون ويغنون لبعضهم البعض وبعد ساعة يعودون إلى القتال ومن طول المقام حول عكا وكثرة المعارك كان القتلى في بداية المعارك أكثرهم من الصليبين وحدث أن تعفنت الجثث ومرض صلاح الدين فأشار عليه الأطباء بالأنسحاب بعيدا عن عكا ثم بعد ذلك انسحب مسافة تسعة أميال بعيدا عن الروائح الكريهة لأنه مرض وكان صلاح الدين في ذلك الحين تجاوز سن الخامسة والخمسين وبعد أن انسحب تسعة أميال هذا ساعد الصليبين على أن يحكموا الحصار حول عكا.وكما ذكرنا أنه جاءت الجيوش الانجليزية

قبل وصول الملكين الملك ريتشارد قلب الاسد والملك فيليب أغسطس كما جاءت جيوش أخرى مكونه من الدنمركيين والدانيين والنرويجيين بالإضافة إلى بيزا التي شاركت بعدد اثنين وخمسين سفينة ونهضت أوروبا بكامل قواتها وكانت الإمدادات تصل تباعا فمثلا في أحد الأيام ذكر قاضي صلاح الدين وكاتبه بهاء الدين ابن شداد أنه عد من بعد صلاة العصر إلى صلاة المغرب سبعين سفينة وصلت إلى عكا وكان صلاح الدين قد أرسل يستنجد وجاءته الإمدادت من الجزيرة ومن الموصل والرها والخليفة العباسي أرسل له حملين من النفط وبعض الزراقين وطلب صلاح الدين من ملك الموحدين وهو يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بالمغرب أن ينجده أو على الأقل أن يقطع الطرق البحرية ذلك أن ابن عبد المؤمن كان عنده اسطول يصل إلى ستمائة وخمسين سفينة وكان مشتبكا في حروب مع الصليبين في الغرب وقال صلاح الدين كيف ينجد الغرب الكافر الشرق الكافر ولا ينجد غرب الإسلام شرق الإسلام ويقال أن عدم استجابه ابن عبد المؤمن لاستغاثة صلاح الدين أنه لم يلقبه بأمير المؤمنين وقد تواضع صلاح الدين في رسالته إليه وقال من العبد الفقير إلى الله تعالى ولم ينسب لنفسه لقبا أو شرفا .

وكانت الحملة الفرنسية والحملة الانجليزية التي قادها ريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا وفيليب أغسطس ملك فرنسا كان الاثنان قد ارتحلا من فرنسا وكان ذلك في شتاء عام ٥٨٥هـ فأقام الاثنان طوال فصل الشتاء في صقلية حيث أقاما من شهر سبتمبر عام ١١٩٠ إلى شهر مارس ١١٩١ لأن الشتاء في البحر المتوسط يكون فيه عواصف ورياح وهذا يؤدي إلى جنوح السفن فلا بد أن يكون الوقت ربيعا وصيفا حتى تهدأ الرياح والأمواج ويستطيعان الوصول إلى بلاد الشام واتفق الاثنان في صقلية على اقتسام ما ينتزعانه من المسلمين وتوفى في ذلك الحين وليم الثاني ملك صقلية النورماني وكانت زوجته الشابة هي جوانا أخت ريتشارد قلب الأسد وخطب ريتشارد

ابنه ملك نافار وتسمى برنجاريا وقابل ريتشارد راهبا مشهورا كان له تأثير في تاريخ التنصير اسمه جواكيم الفلوري وكان من الكهنة المتقشفين وتنبأ لريتشارد قلب الأسد أنه سوف يقتل صلاح الدين وينتصر عليه وتنبأ أيضا بظهور المسيح الدجال وأنه سوف يظهر في روما في عام ١١٩٩م وفسر له رؤيا يوحنا اللاهوتي عن الوحش ذي الرؤوس السبعة وزعم بأن الرأس الأول هو هيرود الوثني الذي بنى المعابد الوثنية وأن الراس الثاني هو نيرون الذي اضطهد النصارى وأحرقهم وأن الرأس الثالث هو قسطنطيوس الذي ناصر الأريوسية بقوة أما الرأس الرابع فأنه محمد صلى الله عليه وسلم والرأس الخامس هو صلاح الدين والسادس هو ابن عبد المؤمن والسابع هو المسيح الدجال وهنا ربط بين محمد صلى الله عليه وسلم وصلاح الدين بوصفهما عدوين للنصارى ليحث ريتشارد قلب الأسد على أن يحارب ببسالة ضد المسلمين وكان أن غادر ملك فرنسا فيليب أغسطس صقلية في ربيع الأول ٥٨٧هـ مارس ١١٩١م بواسطة أسطوله واتجه إلى صور ثم إلى عكا وبعده ارتحل الاسطول الإنجليزي بقيادة ريتشارد قلب الأسد بعد سبعة أسابيع من رحلة فيليب أغسطس وفي خلال تلك الرحلة حدث تطور كبير كان له أثره في الحروب الصليبية في ما بعد فكانت قبرص جزيرة تابعة للدولة البيزنطية وقد سبق أن انتزعها نقفور فوكاس من المسلمين في القرن الرابع الهجري وكان فيها في ذلك الحين إسحاق دوكاس كومونينوس فتمرد على الإمبراطورية وأعلن نفسه امبراطورا على الجزيرة وكان يساعده النورمان وكان أسطول ريتشارد قلب الأسد يسير نحو الشام فجنحت ثلاث سفن في قبرص وكان على تلك السفن جوانا وبرنجاريا أخت ريتشارد قلب الأسد وخطيبته وتحطمت سفينة من تلك السفن في ميناء ليماسول في جنوب قبرص وعند ذلك استولى عليها إسحاق كومونينوش وقبض على أخت قلب الأسد وخطيبته بالقوة وأهانهما فوصلت هذه الأخبار إلى ريتشارد قلب الأسد فنزل بأسطوله إلى جزيرة قبرص وعند ذلك قرر الاستيلاء على الجزيرة وكان إسحاق في خلال حكمه خلال خمس سنوات قد كدّس

ثروة كبيرة بفرض الضرائب على التجار وعلى السكان والتجار الغربيين والإيطاليين من البنادقة وغيرهم وعند ذلك طمع ريتشارد قلب الأسد في قبرص فاستولى عليها وقضى على إسحاق كومنينوس فأصبحت الجزيرة تابعة لريتشارد قلب الأسد وسوف يعطيها لجاي لوزجنان ليقيم عليها مملكة صليبية ظلت قائمة لأكثر من ثلاثة قرون وقامت بحملات كثيرة ضد المسلمين منها حملة ضد الاسكندرية وحملة ضد انطاليا وحملة ضد أزمير وكانت قاعدة يشن منها القراصنة الصليبيون غارات متتالية على سواحل مصر والشام على مدى عدة قرون حتى قامت الدولة العثمانية وفتحت قبرص وانتزعتها من يد اللاتين الكاثوليك وبعد ذلك اتجه ريتشارد قلب الأسد إلى صور ولكن حامية صور لم تسمح له بالدخول بأمر من فيليب أغسطس وكونراد واتجه بأسطوله إلى عكا وعند ذلك زاد الحصار على عكا وبذل صلاح الدين الجهود الكثيرة إلا أن عدد القوات الصليبية بلغت عندئذ أكثر من ثلاث مائة ألف فكانوا متفوقين على جيش صلاح الدين بنسبة ستة إلى واحد وبالرغم من ذلك بذل صلاح الدين الجهود الكثيرة والحروب الكثيرة وبعد أن حاول صلاح الدين في أحد المرات تغيير حامية عكا بعد أن اشتد التعب والسهر وكانوا بضعه الأف وكان يتولى قيادتها في ذلك الحين بهاء الدين قراقوش وهو من أشهر القادة وكان له دور كبير في الاستيلاء على أجزاء من تونس وكان قد عهد إليه صلاح الدين بالإشراف على بناء القلعة على جبل المقطم في القاهرة وقاد الجهاد في عكا تلك الفترة الطويلة وهو من أعظم القادة وأحزمهم ولكن تعرضت سيرته إلى التشويه فأصبح يضرب به الأمثال في الأحكام الغريبة وذلك بعد أن ألف كاتب مصري هو ابن مماتي المتوفي سنة ٦٠٦هـ رسالة شوه فيها سيرة هذا البطل وسماها الفاشوش في حكم قراقوش فتداولها الناس وزادوا عليها فأصبحت أحكامه مضرب المثل رغم أنه كان من أبطال تلك الفترة وبالرغم أنه ناضل كثيرا وقام ببذل جهود كبيرة ولكن عندما زاد به التعب وبأصحابه طلب من صلاح الدين أن يستبدلهم بغيرهم لأنهم بذلوا جهودا على مدى أكثر من عام وعند ذلك قام صلاح الدين

بأجراء عملية قادها قائد الأسطول المصري حسام الدين لؤلؤ واقتحموا سفن الصليبيين المحيطة بعكا واستطاعوا إخراج رجال الحامية وإدخال حامية جديدة إلى عكا ولم تكن العملية ناجحة مائة في المائة ذلك أنه مقابل ستين قائد خرجوا لم يدخل إلى عكا إلا عشرون قائد وفي تلك المدة نجح الأسطول المصري عدة مرات في اقتحام الحصار وتزويد حامية عكا بما تحتاجه من مؤن وأقوات ومن أموال وبذل المسلمون جهودا كثيرة ولكن ازداد عدد السفن الصليبية وأحاطت بعكا من جميع الجهات وكان من المعروف أن الأمم الغربية الأوربية كانت متفوقة في عمليات البحر عن طريق السفن وخاصة الإنجليز والدانيين والفلمنكيين والنرويجيين لأنهم كانوا يعتمدون على البحر في حياتهم فكانوا ملاحين مهرة وبذل المسلمون جهودا فدائية لتزويد عكا بما تحتاجه وفي مرة من المرات استطاعت سفينة إسلامية محملة بالقمح والأغنام والزبد والجبن قادمة من بيروت استطاعت أن تتوغل بين السفن الصليبية حتى دخلت عكا عن طريق حيلة قاموا بها وهي أن رجال السفينة قاموا بحلق لحاهم ورفعوا الصلبان على السفينة ووضعوا على ظهرها الخنازير فظن رجال السفن الصليبية أنها سفينة صليبية حتى عبرت من بين السفن ودخلت إلى إلى عكا وجاءت سفينة أخرى تحمل لحامية عكا الكثير من المؤن وكانت تعرف باسم بطسة وهذه كانت من مسميات السفن في ذلك الحين وكانت محملة بالدقيق والسمن والمؤن والأغنام وكانوا يريدون الدخول إلى عكا فأحاطت بها أربعون سفينة إنجليزية فقاتل أولئك الرجال قتالا مستميتا حتى استطاعوا إغراق سفينة إنجليزية وعندما عرفوا أنهم واقعون لا محالة في الأسر قال قائد السفينة وهو أبو يعقوب الحلبي قال والله لا نموت إلا موت عز فأمرهم بخرق السفينة فخرقوها بالمعاول فغرقوا مع السفينة وهذا يدل على الإقدام ثم بعد ذلك انقطعت الوسائل بين جيش عكا وصلاح الدين الذي كان يرابط خارج المعسكر الصليبي الذي كان من جهة البر ومع ذلك بذلت جهود مضنية وكان صلاح الدين يتصل بحامية عكا عن طريق الحمام الزاجل وظهر أحد الأبطال ويسمى عيسى العوام وبذل جهدا كبيرا جدا

كان صلاح الدين يزوده بكثير من المال والرسائل فيربطها على ظهره فكان يسبح بها خلال السفن الصليبية ليلا ويغوص بين السفن حتى يصل إلى أسوار عكا ويدخل بين الفتحات التي بين أسوار عكا التي يدخل منها الماء وكان يدخل بالأموال والرسائل من صلاح الدين وكان إذا دخل إلى عكا كانوا يرسلون الخبر عن طريق الحمام الزاجل بأن عيسى وصل وفي إحدى المرات أرسل صلاح الدين معه مبلغ ألفي دينار عطاء لرجال الحامية في عكا فربطها عيسى على ظهره ومعه الرسائل ثم انقطع خبره عدة أيام لم يصلهم عنه شيء وأيقن المسلمون أنه غرق وفعلا غرق ولكن بعد عدة أيام جرفته الموج ودخل من إحدى الفتحات ورأي رجال الحامية جثمانه فأخرجوه فوجدوا الأموال مربوطة على ظهره كاملة ويعلق ابن شداد بقوله ما رؤي أحد أدي الأمانة حتى وهو ميت إلا عيسى العوام وبعد ذلك اشتدت الضائقة بعكا ويذكر بعض المؤرخين أنه قد حدثت اتصالات كثيرة بين المسلمين والصليبين وأن ريتشارد قلب الأسد طلب من صلاح الدين المفاوضة ودعاة للتفاوض ورفض صلاح الدين مقابلته وقابلته أخوه العادل وطلب تسليم بيت المقدس وكل ما استولى عليه من الصليبين ولكن صلاح الدين رفض ذلك ولما رأى فيليب أغسطس أن عكا ساقطة لا محالة قرر العودة إلى أوروبا وبالفعل عاد إلى أوروبا ولكن ترك معظم جيشه مع ريتشارد قلب الأسد وعاد مع سفينته وحاشيته الخاصة.وذلك لم ينقص شيئا من قوة الصليبين وحدثت اتصالات بين الطرفين ويذكر المؤرخون أنه في بعض المرات تصارع بعض صبيان المسلمين مع صبيان الفرنج خارج الأسوار وأن صبيا مسلما أسر أحد صبيان الفرنج فجاء إليه الفرنج وقالوا له هو أسيرك حقا فاشتروه منه بدينارين وهذا يبين تزايد الاتصالات بين الجانبين وخلال ذلك أيضا مرض ريتشارد قلب الأسد بسبب تعفن الجثث واشتاقت نفسه لأكل الكمثرى والخوخ والثلج فأرسل له صلاح الدين كمية من ذلك.لما ضاقت السبل بحامية عكا عند ذلك أرسل رجال الحامية بأنهم قرروا الاستسلام حفاظا على أرواحهم وأنهم لا يستطيعون المقاومة والمداومة أكثر من ذلك

وعقدوا اتفاقية مع الصليبين على أن يسلموا عكا لهم مقابل إطلاق سراح نحو ألف أسير صليبي وبعض الأمراء المشهورين وإعادة صليب الصلبوت ودفع مبلغ قدرة مائة ألف دينار ورفض صلاح الدين في البداية تلك الخطة وبعد ذلك وافق بعد أن رأي أعلام الفرنجة ارتفعت على عكا وبدأ في جمع الفدية من دمشق وغيرها وجمع الأسرى لتسليمهم إلى الصليبين حتى يطلقوا سراح الأسرى واستسلمت عكا في جماد الآخر عام ٥٨٧ هـ بعد حصار دام عامين من الحروب وكانت أشبه بحروب الخنادق ولكن لم يلبث ريتشارد قلب الأسد أن أرتكب جرما يتنافى مع كل القيم الأخلاقية عندما أمر بإخراج حامية عكا وعددهم ألفين وسبعمائة خارج الأسوار وأمر بقتلهم وذبحهم صبراً طعنا بالرماح وضربا بالسيف أمام أنظار المسلمين وهذا يدل على وحشية ريتشارد قلب الأسد وتألم المسلمون ذلك رغم أن صلاح الدين كان بيده حشد كبير من الأسرى الصليبين وأشار عليه بعض القادة والأمراء بقتلهم فأبى أن يفعل ذلك وأمر برد الأسرى إلى أماكنهم في البلاد المسلمة وبعد ذلك أقسم ألا يظفر بأسير صليبي إلا قتلة وبالفعل بعد ذلك فعل ما يفعل الصليبيون لأنهم عنصر غادر لا يستحق الأمان وبعد ذلك كان صلاح الدين يريد أن يستدرج الصليبين إلى معركة في ميدان مكشوف واسع ولكنهم كانوا حريصين دائما على عدم حدوث ذلك وقرّر ريتشارد قلب الأسد التوجه إلى يافا وأرسوف وعسقلان وكان الجيش الصليبي يسير قرب البحر كتلة متراصة حتى إذا هاجمهم المسلمون هجوما سريعا بالخيول يغرسون رماحهم في الأرض ليصدوهم وفي نفس الوقت سار صلاح الدين معهم في نفس الوقت وكان يأمر الرماة أن يضغطوا عليهم برميهم بالسهام وسار الجيش الصليبي بقيادة ريتشارد واستولى على يافا وبعد ذلك أثناء زحفهم إلى أرسوف كانت هناك منطقة ساحلية وخلفها غابة يمكن الاختباء فيها وعندها هاجمهم صلاح الدين عند أرسوف وكان ذلك في شعبان عام ٥٨٧ وصمد ريتشارد قلب الأسد وصرخ الصليبيون صرخة واحدة وقاموا بهجوم مضاد فأنهزم الجيش الإسلامي وكان النصر نصرا جزئيا وجمع صلاح

الدين جيشه وحاول الاشتباك مع ريتشارد في اليوم التالي ولكن رفض قادته عند ذلك أمر جيشه بالذهاب إلى عسقلان وأمر بهدم أسوارها وتحصيناتها نظرا لموقعها الخطير حيث قرر الصليبيون الاستيلاء عليها ، لذلك رأي صلاح الدين أنه يجب هدمها حتى لا يستفيدون منها وإذا أرادوا إعادة بنائها سوف يستغرق ذلك وقتا طويلا منهم وكانت الاتصالات والتفاوض كثيرة ولكن كان في كل مرة يطلب ريتشارد استرداد بيت المقدس زاعما أنه قبر ربهم المسيح وكان الرد من صلاح الدين أنه أعظم عندنا مما هو عندكم فهو قبلتنا الأولى ومسرى نبينا ومجمع ملائكة الله سبحانه وتعالى ومحشر أمتنا ولا نتنازل عنه أبدا فكان صلاح الدين مصرا على عدم تسليم بيت المقدس إلى الصليبين وكان ريتشارد مصمما على عودته إلى الصليبين ثم لجأ صلاح الدين بعد ذلك للدفاع عن بيت المقدس حتى لاتسقط بيد ريتشارد قلب الأسد وقام بطم الأبار ومصادر المياه خارج بيت المقدس حتى إذا جاء الجيش الصليبي يحول بينه وبين المياه ليشرب وبالتالي تحول بينه وبين الاستيلاء على بيت المقدس وحث المسلمين على الدفاع عن بيت المقدس لأنه كان يخشى على بيت المقدس وبعد ذلك أراد ريتشارد قلب الأسد الذهاب إلى عكا ومنها إلى صور لحل بعض الأمور وأستغل ذلك صلاح الدين وزحف بالجيش للاستيلاء على يافا التي كان قد استولى عليها ريتشارد من قبل وأعاد تحصينها وعلم بذلك ريتشارد قلب الأسد فعاد على عجل ومعه سفنه ونزل في الميناء مما أدى إلى أن صلاح الدين غادر يافا واستردها ريتشارد قلب الأسد ودارت الحروب بعد ذلك وأعجب صلاح الدين بشجاعة ريتشارد حتى أنه رأى ريتشارد أثناء المعركة وقد قُتل حصانه فأسرع وأرسل له غلامين ومعهما حصانين وأعطاهما لقلب الأسد ودارت المفاوضات ووافق ريتشارد أن لا يتمسك برد بيت المقدس ولكن تمسك بشرط آخر وهي أن تُحصَّن عسقلان وعند ذلك رفض صلاح الدين أن تبقى عسقلان في أيدي الصليبين وبعد المفاوضات وافق صلاح الدين على أن تبقى عسقلان خرابا لا يستفيد منها لا المسلمون ولا

الصليبيون وحدث بعد ذلك ما عرف بصلح الرملة وكانت مدته ثلاثة سنوات وثلاث أشهر فقط والهدف منها تقوية الجيش والعودة مرة ثانية للجهاد ضد الصليبين وكانت شروطها كما يلي .

- ينعقد الصلح لمدة ثلاث سنوات وثلاثة شهور وذلك ابتداء من يوم الأربعاء الموافق ٢ سبتمبر عام ١١٩٢م والموافق ٥٨٨هـ .

- يحصل ريتشارد على الرملة أو اللد أو على نصف كل منها

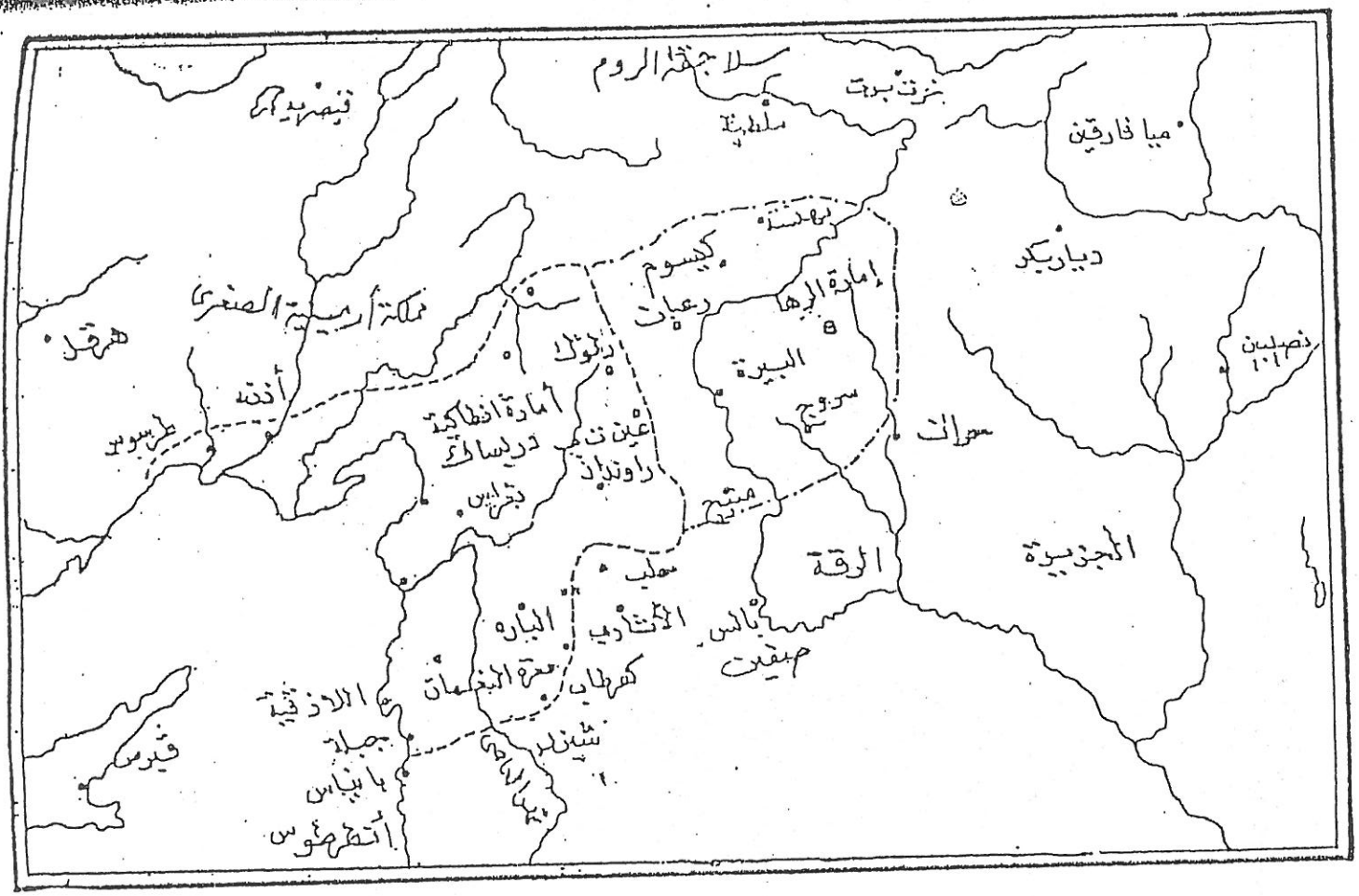
- على أن تكون عسقلان خرابا (أي لا تكون للمسلمين أو للصليبين) .

- اشترط ريتشارد أن تدخل انطاكية وطرابلس في الصلح لأن من أمارتي انطاكية وطرابلس في الشمال وأدخلها في الصلح حتى لا يستغل صلاح الدين عودته إلى أوروبا ويهاجمها .

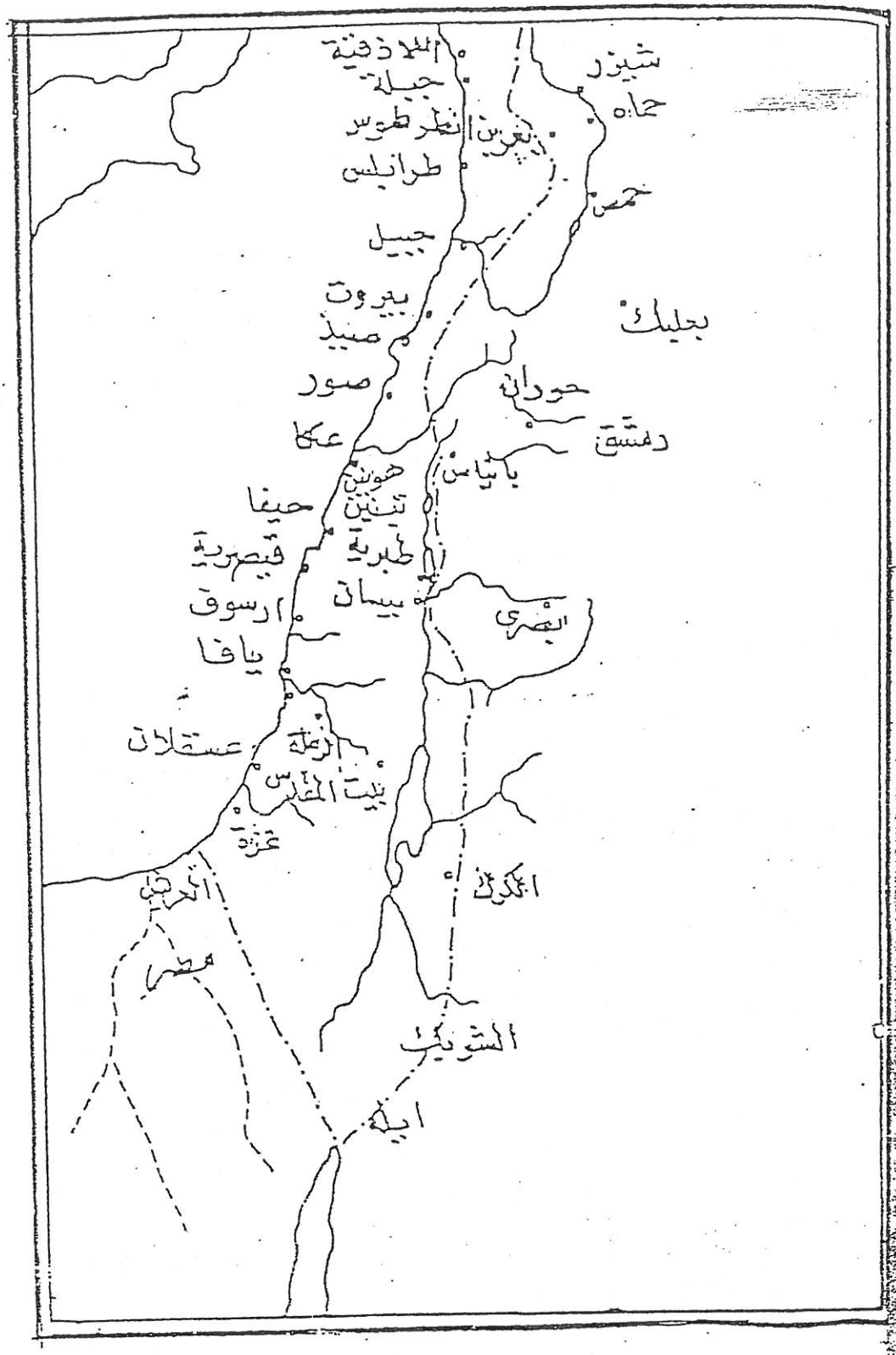
- اشترط صلاح الدين دخول الإسماعيلية في الصلح وهدف صلاح الدين من هذا الشرط حتى لا يستولي الصليبيون على حصون الاسماعيلية في شمال الشام والقريبة من مدن حماه وحمص وحلب وبالتالي يهددون بلاد المسلمين في شمال الشام .

وتم عقد الصلح وسمح صلاح الدين بالدخول إلى بيت المقدس للصليبين كحجاج وزوار وبعد ذلك أرسل ريتشارد يطلب من صلاح الدين أن لا يسمح بالدخول لأعداد كبيرة من الصليبين إلى بيت المقدس لكنه رفض وقال إنهم جاءوا للزيارة والتعبد وبعد ذلك قام بترميم القدس وقام بتعلية الأسوار واجتمع بأخيه العادل أبي بكر وأبنه الأفضل وسألهما ما يجب فعله فقالا أنه يجب أن نستريح فرفض وقال أما أحدكما سيذهب إلى أسيا الصغرى إلى بلاد الروم ليستولى عليها من سلاجقة الروم لأن هذه البلاد التي اتخذها الصليبيون طريقا لهم إلى الشام وأما الآخر سوف يذهب إلى بلاد فارس التي كانت ممزقة في ذلك الحين وكانت آمال صلاح في تقوية الجبهة

الإسلامية في تلك المدة القصيرة التي لا تتجاوز الثلاث سنوات وثلاثة أشهر وفي تلك الفترة كان صلاح الدين تحت خط الفقر ولم يكن يملك دينارا واحدا وأراد أن يحج بعد أن انفق كل الأموال في الجهاد وعلى مدى ثلاثين عاما قضاها في الجهاد فاشار عليه القاضي الفاضل وأخوه العادل أن يؤجل الحج إلى العام القادم لعل الله أن يفتح عليه بشيء من المال وقام بتوديع الحجاج في ذلك العام في شهر ذي القعدة عام ٥٨٨هـ ثم استقبلهم بعد ذلك في شهر صفر وعاد إلى دمشق وأصيب بالحمى ثم مات رحمة الله في أواخر صفر عام ٥٨٩هـ الموافق ١١٩٢م وعندما مات لم يجدوا في خزانته ما يشترون به كفنا لتجهيزه حتى اقترضوا ماشروا به كفناً وجهزوه وعند ذلك دُفِنَ في دمشق وأشار القاضي الفاضل عندما أخذوا يضعونه في القبر أن يضعوا معه سيفه لعله يتوكأ عليه إلى الجنة .



خريطة شمال بلاد الشام



خريطة جنوب بلاد الشام

المسلمون والحروب الصليبية
في العصور الوسطى

محاضرات

للأستاذ الدكتور علي بن محمد عوده

جـ ٢

أوضاع الدولة الأيوبية عقب وفاة صلاح الدين

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد :

كنا انتهينا في الأسبوع الماضي من الحديث عن صلاح الدين في مواجهة الحملة الصليبية الثالثة إلى أن مات رحمه الله في أواخر صفر عام ٩٨٥ هجرية وذكرنا أنه عندما حانت ساعة الدفن أشار القاضي الفاضل على أصحابه بأن يدفن معه سيفه لعله يتوكأ عليه إلى الجنة وهكذا انتهت حياة ذلك المجاهد العظيم الذي أمضى أكثر من ثلاثين عامًا في ميادين الجهاد ضد الصليبيين منذ أن كان جنديًا في جيش عمه أسد الدين شيركوه تحت قيادة نور الدين محمود إلى أن أصبح واليًا على مصر ثم أصبح ملكًا على مصر والشام . وذلك المجاهد العظيم الذي نذر نفسه لله عاش حياته كلها في ميادين الجهاد ولم ينعم بطيب الحياة بل انه أعرض عن جميع مباهج الدنيا . يذكر المؤرخون أن وزير خزانته في وقت من الأوقات وهو يوسف بن أبي القابض كان ذلك قبل معركة حطين قد بنى له دارًا حسنة في دمشق وطلب منه أن يسكن فيها فعزله وقال ان الله لم يخلقنا للاقامة في دمشق أو في غيرها من البلاد وإنما خلقنا لعبادته والجهاد في سبيله . وسوف نُلقي لمحة مختصرة جدًا عن أحوال الدولة الأيوبية بعد وفاة صلاح الدين وما آلت إليه تلك الدولة وأثر تلك الأوضاع على الموقف ازاء الصليبيين في بلاد الشام .

وقبل هذا يجب أن نشير إلى أن بعضًا من الباحثين المحدثين حمّل صلاح الدين مسؤولية التداعي الذي حصل في الجبهة الإسلامية بعد وفاته ، من هؤلاء الكتّاب الأديب المؤرخ – صاحب كتاب خطط الشام محمد كرد علي قال : لا أُعفي صلاح الدين من المسؤولية عما حدث بعده . وهذا فيه من المجازفة وأيضًا فيه ظلم وإجحاف على صلاح الدين ان نحمله التداعي الذي حدث بعد وفاته فكل جيل يتحمل مسؤوليته . من المعروف أن الدولة الأيوبية ورثت الكثير من النظم وخاصة النظم الإدارية عن الدولة الزنكية التي ورثتها بدورها عن دولة السلاجقة التي

ورثتها أيضًا عن الدول التركية القديمة وهو أنه كان ينظر إلى المملكة كإرث يقسم بين أفراد البيت المالك وهذا ما حدث عندما مات ملكشاه ورأينا أثر ذلك التدهور على الموقف وعلى أوضاع الدولة السلجوقية ، كما رأينا عندما مات عماد الدين زنكي انقسمت مملكته بين ولديه سيف الدين في الموصل ونور الدين محمود في الشام . وهذا ما حدث بعد صلاح الدين رغم أنه كان هناك عدد من الأبناء لكن صلاح الدين عهد إلى ابنه الأكبر الأفضل نور الدين علي بالسلطنة وكان من المفروض أن ينقاد بقية بني أيوب إلى الابن الأكبر لكن ما حدث انما هو حرب حدثت نستطيع أن نسميها حرب الوراثة الأيوبية ذلك ان صلاح الدين – وكان له سبعة عشر ولدًا – كان عام ٥٨٣هـ قد عهد بولاية دمشق إلى ابنه الأكبر الأفضل نور الدين علي وعهد بحلب وما يتبعها في شمال الشام لابنه الآخر الظاهر غازي أما ابنه الآخر العزيز عثمان فقد عهد إليه بمصر وبعد ذلك اقطع أخاه العادل الكرك والشوبك بعد استردادها من الصليبيين بالاضافة إلى الرها وسنجار وبعض المناطق في الجزيرة . إضافة إلى أن بعض الأمراء من بيت بني أيوب عهد اليهم صلاح الدين ببعض المدن المهمة مثل المنصور محمد ابن تقي الدين عهد اليه بحماه كما عهد إلى المجاهد أسد الدين شيركوه بن محمد بن أسد الدين شيركوه بحمص . بالاضافة إلى الابناء الصغار كانوا في بعض الحصون والقلاع وكانوا يتبعون إما إلى الأفضل أو الظاهر أو غير ذلك . على أية حال كما رأينا أن صلاح الدين مات سنة ٥٨٩هـ – وكان عندما مات في الخامسة والخمسين من عمره – وهذا السن صغير إلى حد ما . ولا شك أن نفس صلاح الدين كانت تجيش بالآمال والطموحات يدلنا على ذلك أنه بعد عقد صلح الرملة اجتمع باخيه العادل وابنه الأفضل وأشار عليهما انه يجب استغلال فترة الهدنة لاستكمال توحيد الجبهة الاسلامية لاضافة بلدان مهمة إلى الدولة الأيوبية وأشار أن يذهب أحدهما إلى آسيا الصغرى للاستيلاء عليها من دولة سلاجقة الروم التي

كانت انقسمت في ذلك الحين وحدث تنازع فيها بين ابناء السلطان قلج أرسلان الثاني ليضمها إلى الدولة الأيوبية ذلك أن آسيا الصغرى كانت الطريق البري الذي كانت تسلكه الحملات الصليبية وفي وقت من الأوقات تحالف قلج أرسلان الثاني مع فردريك بربروسا امبراطور المانيا أو الدولة الرومانية المقدسة ، وأشار بأن الآخر سيذهب إلى أخلاط في الجزيرة بأرمينيا ويستولي عليها ثم يذهب إلى اذربيجان وبلاد فارس لضمها إلى الدولة الأيوبية . وهذه بلدان مهمة فيها امكانات بشرية ومادية كبيرة ليضمها الى الجبهة الاسلامية بحيث يتمكنون من القضاء على الوجود الصليبي بعد نهاية مدة الهدنة ولكن القدر عاجل صلاح الدين قبل أن يحقق ما كان يطمح إليه ، بالإضافة إلى أنه قد أفصح في أحد الأوقات عن نيته ، يذكر ابن شداد قاضيه ومؤرخه الذي كتب سيرته أنه قال لأصحابه يوماً متى يسر الله وفتحت الساحل ، يعني لم يبق بيد الصليبيين شيء رتبت أمور البلاد وأوصيت وودعت ثم سرت في البحر إلى جزائره ، أي إلى جزر البحر المتوسط ، اقاتل هؤلاء الفرنجة حتى لا أدع أحداً يكفر بالله أو أموت . انظر كيف أن هذا الجهاد أو الرغبة في الجهاد قد استولت على قلبه ذلك ان ابن شداد يقول : ذلك أن حب الجهاد والشغف به قد استولى على قلبه وعلى سائر جوانحه فلم يكن له حديث إلا فيه ولا ذكر إلا في آلاته ولا اعتناء إلا برجاله وكان أي أحد من الكتاب إذا أراد أن يتقرّب إلى صلاح الدين يؤلف له كتاب في فضائل الجهاد وأخبار المجاهدين . فهجر في سبيل الجهاد – كما يقول ابن شداد – وطنه وأهله وسكنه وكان قد اكتفي بخيمة تلعب بها الريح ميمنة وميسرة في سبيل الجهاد في سبيل الله ، فمن الظلم والاجحاف أن نحمّل صلاح الدين ما حدث من التداعي بعد وفاته فكل جيل يتحمل ما حصل بعد ذلك ، والأمثلة كثيرة في التاريخ ، وما حصل بعد النبي صلى الله عليه وسلم لو لم يكن هناك أبو بكر الذي استطاع أن يتصدى لتلك الفتنة من ردة العرب ، هل يعتبر النبي صلى الله

عليه وسلم مسؤولاً عما حدث من ردة العرب ؟ لا ، إنما كان بعده جيل استطاع أن يواجه تلك الفتنة ويقضي عليها وتقوم حركة الفتوح الإسلامية ، كما أن ما حدث بعد صلاح الدين يتحمله الجيل الذي جاء بعده . على أية حال لما مرض صلاح الدين وغاب عن وعيه أواخر صفر قام الأفضل الابن الأكبر بتحليف أمراء والده لأن يقسموا له يمين الولاء وخاصة الأمراء الذين كانت لهم اقطاعات وممتلكات في بلاد الشام . بعضهم كان يشترط إما ان يترك الحصن الذي بيده أو القلعة التي في حوزته أو يزيد في اقطاعه أو نحو ذلك ، على أية حال عندما مات صلاح الدين تولى الأفضل نور الدين علي الابن الأكبر وكان بقية الابناء والأخوة كل واحد بيده ما أعطاه صلاح الدين وأقطعه من البلاد .

وكان من المفترض أن يذعن بقية ملوك بني أيوب ، إخوة صلاح الدين وابنائه، للسلطان الأفضل نور الدين علي إلا أن نور الدين علي في الحقيقة كان في ذلك الحين شاباً وكان طائشاً حيث ذكر المؤرخون أنه بعد وفاة والده تظاهر بالمعاصي وعهد بالوزارة إلى شاب مغرور لا يفقه في أمور الإدارة والسياسة شيء ، ذلك الشاب هو ضياء الدين ابن الأثير شقيق المؤرخ المشهور الذي كان له في الأدب كتاب المثل السائر ، وكان ابن الأثير في ذلك الحين شاباً مغموراً وأيضاً مغروراً فأشار على الأفضل بمشورة أدت إلى تدهور أمور الدولة الأيوبية ، فأشار عليه بأن يبعد كبار قادة أبيه ورجاله الذين اعتمد عليهم مثل القاضي الفاضل والعماد الأصفهاني وكبار زعماء العسكر من الصلاحية أتباع صلاح الدين ومن الأسدية من أتباع أسد الدين شيركوه وقال إذا أبعدتهم وعينت أمراء جدد وقادة جدد خاملين هؤلاء سيدينون لك بالتبعية ويذعنون لك باعتبارك صاحب الفضل عليهم أما هؤلاء فسينظرون لك دائماً من علياء باعتبار ما قاموا به من جهاد في زمن أبيك . واستجاب لهذه المشورة فأبعد أمراء وقادة أبيه حتى أن القاضي الفاضل ترك دمشق وذهب إلى مصر كذلك العماد الأصفهاني ، أيضاً

بهاء الدين بن شداد ترك دمشق وذهب إلى حلب وأقام عند الظاهر غازي بن صلاح الدين .

في نفس الوقت أشار عليه بمشورة أخرى سيئة وهي : قال إن بيت المقدس يحتاج إلى نفقات كبيرة ويحتاج إلى مؤونة وإلى رجال يدافعون عنه والفرنج (الصليبيون) يطمعون فيه فسلمه لأخيك العزيز عثمان صاحب مصر حتى تكتفي شره وشر الفرنج ، فأرسل رسالة إلى أخيه العزيز في مصر يطلب منه أن يتسلم منه بيت المقدس ففرح العزيز، فهذه طبعًا هبة ليست سهلة، فلذلك أرسل فوراً عشرة آلاف دينار إلى والي بيت المقدس ليوزعها على الجنود وعلى رجال الحامية وأخذ يتأهب لاستلام بيت المقدس . لكن فجأة تراجع الأفضل عن تسليم بيت المقدس مما كان له أسوأ الأثر في النفوس ، في نفس العزيز عثمان وفي نفوس القادة الآخرين فأشاروا على العزيز عثمان ، لا سيما زعماء الصلاحية ، أن يذهب إلى الشام ويستولي على دمشق ويخلع منها الأفضل لأنه بهذه الطريقة سوف يؤدي إلى تدهور البلاد . وفعلاً قام بحملة عام ٥٩٠ هجرية وسار متجهًا إلى الشام ، وكان الأفضل في ذلك الحين في غور الأردن فسمع وعاد مسرعًا إلى دمشق ثم أرسل يستنجد بأخيه الظاهر صاحب حلب وبعمه العادل ، الذي كان في ذلك الوقت قد ذهب إلى الجزيرة ذلك أنه بعد وفاة صلاح الدين أخذ المنافسون في الجزيرة من بقايا الزنكيين والأراتقة يتحفزون جميعًا للانقضاض على الممتلكات الأيوبية في الجزيرة وفي أعالي نهري الفرات ودجلة فتصدى لهم العادل وكبح جماحهم وحال بينهم وبين الاستيلاء على ممتلكات الأيوبيين في تلك البلاد ، فوصلت الرسالة من الأفضل إلى العادل في الجزيرة عند ذلك ذهب مسرعًا ووصل إلى دمشق فجاء العزيز وحاصر دمشق عند ذلك عمل العادل على تسوية النزاع بين الأخوين فاتصل بالعزيز عثمان صاحب مصر واتفق معه على أن يفك الحصار على أن يتسلم بيت المقدس وأصلح بين الأخوين . وفعلاً انسحب العزيز عثمان

إلى مصر . وبعد عودته إلى مصر ظل الأفضل على سيرته الأولى وجعل الأمور مسلمة ليد ابن الأثير الذي يذكر المؤرخون أنه آذى الأكابر من الدولة وكثر شاكوه وقل شاكروه ، وفي نفس الوقت كان أن سبب هذا النزاع أن حامية جبيل ، وكان فيها والي كردي ، فلما شعر بهذه الأمور وازداد ضغط الصليبيين عليه عند ذلك باع جبيل بستة آلاف دينار من الصليبيين وكان ذلك في عام ٥٩١ هـ ولذلك لما سمع بعض القادة في مصر تأثروا بذلك وأشاروا على العزيز بالخروج مرة أخرى وانتزاع دمشق من الأفضل لأنه إذا بقي الأمر على هذا الحال وبقي الوزير ضياء الدين ابن الأثير مسيطراً عليه فإن الفرنجة سوف يستولون على البلاد واحدة بعد الأخرى ، فهذه الحامية يئست من أوضاعها فباعت حصن من أهم الحصون التي فتحها صلاح الدين من الصليبيين بستة آلاف دينار .

وبالفعل خرج مرة أخرى لحصار الأفضل في دمشق وعند ذلك استعان الأفضل مرة أخرى بعمه العادل الذي جاء إلى دمشق واشتد الحصار ، كان ذلك عام ٥٩١ هـ اشتد حصار العزيز عثمان على دمشق ، عند ذلك استطاع العادل وهو رجل محنك وقائد عسكري كفؤ ويعرف طبيعة الحزبين العسكريين اللذين كانا في ذلك الحين هما أقوى شيء في الدولة وهما الصلاحية أتباع صلاح الدين والأسدية اتباع أسد الدين شيركوه ، فاتصل بزعماء الأسدية واستطاع أن يستميلهم إلى جانبه وطلب منهم ان ينفصلوا عن العزيز عثمان وفعلاً انفصلوا عن العزيز عثمان وانضموا إلى العادل ، عند ذلك شعر العزيز عثمان أنه لا قدرة له على مواصلة حصار دمشق فعاد إلى مصر ، فعند ذلك سار الأفضل والعادل في إثر العزيز عثمان إلى مصر للاستيلاء عليها على أن يتولى الأفضل مصر ثم يعهد بدمشق إلى عمه العادل أبي بكر بن أيوب ، ووصلوا إلى مصر ، لكن في ذلك الحين زاد فيضان النيل فتوقف العادل وأراد أن يصلح بين الأخوين فأرسل إلى العزيز عثمان يطلب منه أن يبعث إليه بالقاضي الفاضل ليعمل تسوية بين الأخوين

فجاء القاضي الفاضل واجتمع بالأفضل وبعد ذلك تم عقد اتفاقية على أن يعود الأفضل إلى دمشق وفي نفس الوقت تقام الخطبة بدمشق للعزيز عثمان . بعد ذلك أصبح الأفضل في دمشق والعزيز في مصر وبقي العادل في مصر مع العزيز عثمان .

عاد الأفضل إلى دمشق وساءت أمور الدولة مرة أخرى وظن أن مجاهرته بالمعاصي هو سبب تلك المشكلات فتاب وتزهد وتقشف وأعلن التوبة . لكن الأمور بقيت في الوزير يد ضياء الدين ابن الأثير فهرب كثير من القادة والأمراء إلى العزيز عثمان في مصر وإلى العادل واخبروهما إلى انه يجب الخروج وانتزاع دمشق من الأفضل . وفي ذلك الحين خرج العزيز عثمان ابن صلاح الدين وعمه العادل أبو بكر بن أيوب بالجيوش وحاصروا دمشق وانتزعوها من الأفضل في عام ٥٩٢ هجرية وتولى العادل على دمشق . وأصبح العادل يحكم دمشق بالإضافة إلى اقطاعاته في الجزيرة وفي الكرك والشوبك أما الأفضل فأعطوه قلعة بصرى ، وبذلك انتهت تقريباً حرب الوراثة الأيوبية ، أما الظاهر غازي صاحب حلب فكان يتدخل في ذلك النزاع من حين إلى آخر ويشارك فيه . ولكن بعد ذلك خدمت الظروف في نهاية المطاف العادل بحيث سيطر على الدولة الأيوبية بالكامل وكان ذلك على النحو التالي : حدث أن العزيز عثمان صاحب مصر خرج في رحلة صيد فجنح به الحصان فتأثر فمات سنة ٥٩٥ هجرية ، وكان العادل أبو بكر في ذلك الحين يحاصر ماردين في الجزيرة لينتزعها من الأراتقة فعند ذلك عيّن رجال الدولة ابن العزيز عثمان سلطاناً واسمه المنصور وكانَ لا يزال طفلاً فاتفق الزعماء على أن يبعثوا للأفضل ليأتي ليتولى الأتابكية أي الوصاية على الابن الصغير ، فجاء الأفضل فاستولى على مصر وتولى الأتابكية وزكى القاضي الفاضل هذا الاختيار . وكان يمكن أن تسير الأمور على ما يرام ، لكن الأفضل كان - كما رأينا - رجلاً أخرقاً لا يفقه شيء بأمور السياسة . وكان وزيره ابن الأثير

هرب بعد أن نهب أموالاً كثيرة عندما انتزع العزيز وعمه العادل دمشق منه فذهب إلى الموصل وهرب بتلك الأموال التي جمعها من دولة الأفضل .

فعندما أصبح الأفضل أتابكًا على المنصور بن العزيز عثمان في مصر حدثته نفسه بأن ينتزع دمشق من عمه العادل أبي بكر بن ايوب ، وبالفعل ذهب مسرعًا بجيشه للاستيلاء على دمشق . ولما علم العادل ترك على حصار ماردين ابنه الكامل محمد وجاء في فرقة صغيرة واستطاع أن يدخل دمشق قبل وصول الأفضل ، وجاء الأفضل وحاصر دمشق حصارًا شديدًا استمر ستة أشهر . وهنا نلاحظ أن دمشق حوصرت أربع مرات من وفاة صلاح الدين في عام ٥٨٩ هجرية أي خلال ست سنوات بينما مدن الصليبيين لم تتعرض للحصار من قبل المسلمين . فحاصر الأفضل عمه العادل ستة أشهر حتى ضاقت الأقوات وانعدمت في دمشق واضطر العادل أن يقترض من بعض التجار في دمشق . لكن جاءته النجدات ، فقد تمكن ابنه الكامل من الاستيلاء على ماردين وجند التركمان من الجزيرة وجاء بهم ومر على قلعة جعبر على الفرات وكان فيها أموال وذخائر العادل فتزود بها وعند ذلك جاء وصد الأفضل عن دمشق . وفي ذلك الوقت اتصل العادل ببعض زعماء الصلاحية والأسدية واستمالهم إلى جانبه مما جعل الأفضل يفك الحصار وينطلق إلى مصر ، لكن العادل تابعه بجيوشه إلى مصر والتقى به خارج القاهرة وهزمه ودخل واستولى على القاهرة . عند ذلك أقطعه بعض القلاع التي لا قيمة لها في الجزيرة واستولى على مصر بوصفه أتابكًا ، وصيًا ، على الملك الصغير المنصور ابن العزيز عثمان . لكن لما توطدت له الأمور في مصر جمع كبار الفقهاء والعلماء وقال قبيح بي وأنا في هذا السن من الشيخوخة والتجربة أن أظل أتابكًا لطفل صغير فوافقوه وأصدروا فتوى بأنه يجوز له خلع ابن العزيز عثمان . وخلعه وضرب السكة باسمه وأعاد توحيد الدولة الأيوبية ، كان ذلك عام ٥٩٦هجرية ، وكان أن ظهر له منافس من قبل الظاهر غازي إلا أنه

استطاع بعد ذلك أن يكبح جماحه ، وما جاء عام ٥٩٨ هجرية إلا وكانت الدولة الأيوبية قد عادت متحدة تحت لواء العادل أبو بكر بن أيوب ، واستعان بعد ذلك بابنائه الثلاثة الكبار وهم الكامل محمد فعهد إليه بولاية مصر ، والمعظم عيسى فعهد إليه بدمشق والقدس ووسط الشام ، والأشرف موسى فعهد إليه بمناطق في الجزيرة مثل الرها وحران وغيرها . بينما بقي الظاهر غازي بن صلاح الدين في حلب كما بقي المنصور بن تقي الدين في حماه وأسد الدين شيركوه ابن أسد الدين شيركوه بقي في حمص . وأذعن بقية ملوك بني أيوب للعادل باعتباره السلطان الأوحد بالدولة الأيوبية . لكن الأوضاع بالنسبة للجبهة الإسلامية المتحدة لم تكن جيدة ، الظروف اختلفت والموقف اختلف ، يعني تحولت الدولة الأيوبية من موقف الهجوم لاسترداد البلاد المغتصبة من قبل الصليبيين إلى موقف الدفاع عما بقي بحوزتها من البلاد ، وإذا كانت الدولة الأيوبية بعد ذلك بقيت نصف قرن من الزمان أو أكثر من نصف قرن من الزمان فإنها لم تستطع أن تستولي على أي مدينة مهمة من المدن الكبيرة التي بيد الصليبيين مثل صور وعكا وطرابلس وانطاكية وهذا السبب الرئيس الذي أدى إلى سقوطها في نهاية المطاف حيث لم تستطع أن ترتقي في إقامة فريضة الجهاد مثلما كانت زمن صلاح الدين وبذلك فقدت مبرر وجودها وشرعيتها فسقطت لتحل محلها دولة المماليك كما سنرى فيما بعد والتي استطاعت أن ترتقي بهذه الفريضة بنفس المستوى الذي كانت عليه زمن السلطان صلاح الدين .

بعد هذه اللمحة الموجزة عن الدولة الأيوبية بعد وفاة السلطان صلاح الدين الأيوبي نتحدث ، بعد ذلك ، عن الأوضاع بين المسلمين والصليبيين . لما انتهت مدة صلح الرملة ثلاث سنوات وثلاثة أشهر وكان ذلك الحين العزيز عثمان قد انتزع دمشق كما رأينا من الأفضل ، فجدد الهدنة أو مددها مرة أخرى مع الصليبيين . على أية حال خلال ذلك كان امبراطور ألمانيا في ذلك الحين هو هنري السادس

ابن الامبراطور بربروسا وكان شابًا طموحًا على قدر كبير من الكفاية وكان ذو أطماع كبيرة . كان يتطلع إلى أن يسيطر على الدولة البيزنطية ويسيطر على الممتلكات الصليبية في بلاد الشام ويسترد بيت المقدس وما فقده الصليبيون زمن صلاح الدين ، لذلك أخذ يتجهز لحملة صليبية كبيرة وبالفعل جاءت أو بدأت طلائع الحملة تصل إلى بلاد الشام وكان في ذلك الحين ملك الصليبيين هو هنري دي شامبني الذي تزوج من ايزابيل بنت عموري الأول ووصلت تلك الحملة الألمانية قبل قدوم هنري السادس لأنهم مجرد أمراء وأساقفة يقودون جماعات كثيرة من الصليبيين لكن كان هو يتجهز على أن يأتي بحملة كبرى . كانت هذه طلائع للحملة الألمانية فوصلت تلك الحملة وجاء الصليبيون وتقدموا من عند عكا وأغاروا على ضواحي بيت المقدس وأسروا بعض المسلمين مما جعل العادل بعد ذلك يتقدم ويطلب من العزيز في مصر أن يرسل له امدادات وتقدم إلى قرب عكا وهزم بعض جموع الصليبيين الموجودين عند عكا . في ذلك الحين الحملة الألمانية ما لبثت أن عادت إلى أوربا والسبب في ذلك أنه وصلهم النبأ بموت هنري السادس امبراطور ألمانيا وكان لموته أثر كبير على فشل الحملة التي كان يزمع القيام بها وبذلك اكتفى المسلمون شر حملة كبيرة كانت ستأتي وربما تؤدي إلى تغيير ميزان القوى بين المسلمين والصليبيين إلى درجة كبيرة .

على أية حال ، بعد انسحاب تلك الحملة ، أخذت جموع أخرى تتأهب للقدوم فجاء العادل أبو بكر بن أيوب وكان في دمشق في ذلك الحين واستولى على يافا في شوال عام ٥٩٣ هجرية ، ويافا مدينة مهمة من الموانئ التي تقع إلى الجنوب من عكا، فاستولى عليها بالسيف وأسر آلاف الصليبيين فيها . لكن خلال ذلك وصلت بعض الجموع الصليبية . وكان هنري قد مات فعند ذلك بحث الصليبيون عن زوج للأرملة ايزابيل فزوجوها من ملك قبرص عاموري الثاني الذي ورث الجزيرة بعد موت أخيه فتزوج عاموري من ايزابيل أرملة هنري وأصبح هناك وحدة بين

قبرص الصليبية وبين عكا وبقايا مملكة بيت المقدس ، طبعًا يسمونها مملكة بيت المقدس رغم أنها مقتصرة على عكا وعلى صور وعلى بعض المناطق الساحلية . فجاء عاموري وتولى أمور الصليبيين ،ورغم أنه كما يقول ابن الأثير رجل عاقل يؤثر السلامة إلا أنه أراد أن يرد على استيلاء العادل أبو بكر على يافا فتقدم إلى بيروت، وكانت بيروت في ذلك الحين يتولاها واحد اسمه عز الدين أسامة ، وكان منذ أكثر من عام وهو يجهز السفن ويغير على كل الأساطيل الصليبية التي تأتي عبر البحر مما جعل الصليبيين يشتكون إلى العادل وإلى العزيز عثمان ليمنعا أسامة من ذلك، واعتبروا أن ما يقوم به هو من أعمال القرصنة . لكنهما لم يمنعاه ، باعتبار ذلك جهاداً في سبيل الله . فعندَ ذلك جاء الصليبيون بقيادة عموري ومن توافد إليه من حملات من الغرب ، وهي حملات صغيرة ليست مثل الحملات الكبيرة ، وتقدموا إلى بيروت واستولوا عليها بعد شهرين من سقوط يافا ، كان ذلك في ذي الحجة عام ٥٩٣ هجرية . فجاء استيلاء الصليبيين على بيروت رداً على استيلاء العادل على يافا . وأثبت عموري أنه قائد قدير يستطيع أن يعوض الصليبيين ويحمي كيانهم الدخيل في بلاد الشام . وظن العادل بعد ذلك ان الصليبيين سيكتفون ببيروت فأذن لبقية العساكر أن يعودوا لبلدانهم سواء الذين في مصر ، أو الذين في الجزيرة ، لكنه فوجئ في محرم عام ٥٩٤ هجرية بالصليبيين يتقدمون ويحاصرون حصن تبنين أو قلعة تبنين في وسط فلسطين وهذه من القلاع المهمة التي تعتبر من أهم القلاع التي تدافع عن بيت المقدس ، وحاصروا هذه القلعة الكبيرة وكادوا يستولون عليها في محرم ، فجاء العادل ورابط أمامهم ثم أرسل إلى العزيز عثمان أن يرسل له نجدات فجاء جيش مصر ، عند ذلك خشي الصليبيون من الهزيمة فانسحبوا من تبنين وعادوا إلى عكا . وبذلك فشلت محاولتهم في الاستيلاء على تبنين .

بعد ذلك تم عقد صلح بين الجانبين بعد أن حاول الصليبيون الاستيلاء على

جبلة واللاذقية وهما من الموانئ المهمة الواقعة إلى الشمال من طرابلس بين انطاكية وبين طرابلس . وكان صلاح الدين قد فتحهما وأصبحت جبلة واللاذقية تابعتين لمملكة حلب ، للظاهر غازي ابن صلاح الدين في حلب ، فطلب الامدادات من عمه العادل فأرسل له امدادات وتمكن من صد الصليبيين عن جبلة واللاذقية وبالتالي بقي للمسلمين بعض المناطق الساحلية المهمة على شواطئ الشام . بعد ذلك عُقد صلح في شعبان عام ٥٩٤ هجرية لمدة خمس سنوات وثمانية أشهر وتم عقد الهدنة بين المسلمين والصليبيين ، وبعد نهاية الهدنة تأتي الحملة الصليبية الرابعة وهو ما سنتحدث عنه . لكن يجب قبل ذلك أن نتحدث عن البابوية التي آلت عام ٥٩٤ هـ إلى أشهر البابوات وأعظمهم في العصور الوسطى وهو البابا انوسنت الثالث ، وقد تولى البابوية من عام ١١٩٨ ميلادية ١٢١٦ ميلادية ، يعني من عام ٥٩٤ إلى ٦١٢ هجرية ، نحو ١٨ سنة واستطاع أن ينهض بالبابوية نهضة لم تعرفها من قبل ، يمكن أن يقارن بالبابا إربان الثاني والبابا غريغوري السابع ، ذلك ان البابوية في ذلك الحين كانت في نزاع مع الامبراطورية الرومانية المقدسة في المانيا ، لكن بعد وفاة هنري السادس تخلصت البابوية من خصم خطير وأصبح البابا انوسنت الثالث وصيًا على ابنه الصغير فردريك الثاني . وكان البابا انوسنت الثالث رجل متضلع في القوانين الكنسية وكان عبقريا وكانت له طموحات واسعة جدًا في أن يجعل من الكنيسة الكاثوليكية تسيطر على الشرق اللاتيني وتسترد بيت المقدس من المسلمين وتسيطر على الدولة البيزنطية واستطاع بتضلعه بالقوانين الكنسية واللاهوتية أن يثبت أو أن يؤدي إلى إنجاح كثير من مطالبه ودعاويه في الغرب فاستطاع بعد ذلك أن يُخضع ملكي فرنسا وانكلترا لما أوقع عليهما قرار الحرمان فخضعا له ولأوامره ، كما استطاع ان يحصل من ملك فرنسا وملك البرتغال وملك اراغون على الاعتراف بأنهم يتولون بلدانهم كمنح اقطاعية منه ، يعني هبات من البابا ، فوصلت البابوية إلى مكانة

كبيرة جداً ، وفي نفس الوقت أرسل إلى بطريق بيت المقدس وكان بطريق بيت المقدس في ذلك الحين ليس في بيت المقدس وانما في عكا وكان يسمى ايمار ، وطلب منه تقريراً مفصلاً عن أحوال المسلمين ، هذا التقرير مهم جداً لأنه يبين عبقرية أنوسنت الثالث الذي كان يريد أن يعرف كل شيء عن المسلمين هذا التقرير وصف بلاد الشام ووصف أوضاع المسلمين وخلافات الأيوبيين بعد صلاح الدين كما وصف الديار المصرية ووصف ميناء دمياط وأهميته وأنه يقع عند مدخله برج يسمى برج السلسلة يمكن اذا أُستولى عليه الدخول إلى مصر والاستيلاء عليها وان مصر بلد مهم جداً يجب الاستيلاء عليه ، وأيضاً المسافات بين المدن . هذا التقرير مهم جداً للحملة الصليبية الخامسة التي سنتحدث عنها فيما بعد .

البابا انوسنت الثالث هذا استطاع ان يرفع البابوية إلى مكانة كبرى وانه استطاع ان يجعل الأوربيين يحاربون في حملة صليبية ضد اوربيين ذلك انه زمن البابا انوسنت الثالث ازداد خطر حركة منشقة عن الكنيسة وهي حركة تسمى الحركة الألبيجنسية ، وهم جماعة خرجوا عن الكنيسة في القرن الخامس الهجري بسبب ما انغمس فيه رجال الكنيسة من ترف ومن حب للدنيا فهؤلاء دعوا إلى التطهر وإلى الزهد وإلى التقشف وانصرفوا عن مباهج الحياة وحرموا أكل اللحم وأيضاً حرموا الزواج ، يعني اتخذوا طقوس دينية مستمدة من البوذية والهندوسية وغلاة المتصوفة المسلمين ، وقالوا ان الانسان في زهده وتقشفه وتعذيبه نفسه ترتقي روحه دون حاجز حتى تصل إلى أعلى عليين في السموات فاتبعهم عدد كبير من الناس في جنوب فرنسا حتى اتبعهم أمير تولوز فاعتبرت البابوية هذه حركة متهرطقة فدعا انوسنت الثالث إلى حملة صليبية ضد هؤلاء الهراطقة في جنوب فرنسا ، وشن البابا حملة صليبية ضد هؤلاء بدأت من عام ٦٠١هجرية واستمرت إلى عام ٦٠٩ هجرية ، حوالي ثمان سنوات ضد هؤلاء حتى تم القضاء عليهم نهائياً . ولم يتم القضاء عليهم إلا بعد قيام حركة الأحياء

الانجيلي التي قادها فرنسيس الأسيسي ودومنيك القشتالي وشرحنا لكم في مادة الغزو الفكري قصة فرنسيس الأسيسي ودومنيك القشتالي اللذين أسسا في بداية القرن السابع الهجري طائفتي الرهبان الفرنسيسكان والدومنيكان الذين انصب عملهم بعد ذلك على الوعظ والتبشير والدعوة للنصرانية ، ولم يقتصر عملهم على الدعوة للنصرانية في أوربا بل اتبعهم عدد كبير من الناس وظهرت هاتان الحركتان وامتدتا ليقوم الرهبان الفرنسيسكان والدومنيكان بعمليات التنصير في جميع أنحاء العالم ولذلك ستأتي كل الحملات الصليبية التالية ومعها منصرون من الرهبان الفرنسيسكان والدومنيكان يريدون تنصير المسلمين وادخالهم في النصرانية . ومن هنا يظهر الدافع التنصيري أو تظهر حركة التنصير كدافع من دوافع الحروب الصليبية وكنتيجة من نتائجها .

في بداية الحروب الصليبية لم يكن الدافع التنصيري بارزًا الآن يصبح الدافع التنصيري بارزًا ، أيضًا الحروب الصليبية التي انبثقت عنها هذه الحركة حركة الاحياء الانجيلي التي دعت إلى التنصير وإلى تنصير المسلمين بالذات وأفرد فرنسيس الأسيسي في القانون الذي وضعه لطائفته فصلاً خاصًا عن المنصرين الذين يجب أن يذهبوا إلى بلاد المسلمين وكيفية عملهم ، وكذلك فعل دومنيك القشتالي ، وهؤلاء الرهبان الفرنسيسكان والدومنيكان هم الذين تولوا فيما بعد التدريس في الجامعات في أوربا وهم الذين انبثقت عنهما حركة الاستشراق الموجهة إلى المسلمين بقصد دراسة علوم المسلمين وعقيدتهم وشريعتهم .. الخ

فالبابا انوسنت الثالث استطاع أن يشن هذه الحرب ضد الألبيجسيين مستعينًا بالفرنسيسكان والدومنيكان ونجح في القضاء على تلك الحركة في الجنوب الفرنسي ، ليس هذا فحسب بل انه استطاع أن يشعل حرب صليبية كبرى في أوربا ضد المسلمين عندما استعان به الفونس الثامن في الأندلس ضد

الموحدين واستطاع البابا انوسنت الثالث أن يثير الأمراء والجماهير الأوربية فجاءت النجدات من أوربا، وحتى من القسطنطينية شرقًا التي أصبحت بيد الكاثوليك كما سنتحدث عند الحملة الصليبية الرابعة ومن سائر أنحاء أوربا فاجتمع الأمراء والفرسان وشاركوا الفونس الثامن في تلك المعركة التي تعرفونها في تاريخ المغرب والأندلس وفي تاريخ الأندلس وهي معركة العقاب عام ٦٠٩ هجرية والتي انتصر فيها الفونس الثامن والصليبيون انتصاراً كاسحًا على دولة الموحدين في الأندلس . وتلك المعركة هي التي قررت مصير الوجود الإسلامي في الأندلس حيث تمكن النصارى من الاستيلاء على بلدان المسلمين في الأندلس بلد اثر بلد ولم يبق بيد المسلمين إلا تلك المملكة الصغيرة هي مملكة غرناطة في أقصى الجنوب الشرقي . فهذا البابا انوسنت الثالث كان من أقدر البابوات وأكثرهم نشاطًا وكان له نفوذ واسع النطاق في أوربا . على أية حال قبل أن نتحدث عن الحملة الصليبية الرابعة نشير إلى أنه عندما انتهت الهدنة بعد مضي خمس سنوات حاول الاسبتارية في حصن الأكراد وفي المناطق الشمالية الاستيلاء على بعض مناطق حماه فتصدى لهم صاحب حماه المنصور ابن تقي الدين عمر فهزمهم هزيمتين متتاليتين في رمضان عام ٥٩٩ هجرية المعركة الأولى وقعت ثالث رمضان وانتصر فيها المنصور صاحب حماه بعد ذلك تجهز الاسبتارية مرة أخرى فوقعت معركة في آخر رمضان عام ٥٩٩ هجرية وانتصر المنصور فيها انتصارا كبيرا .

على أية حال يجب أن نشير هنا إلى أنه في ذلك الحين كانت مملكة حلب تواجه هجوماً صليبياً من قبل ليو الثاني ملك الأرمن ذلك الأمير كان يسيطر على قيليقية في شمال انطاكية وتلقى التاج من الغرب الأوربي، من هنري السادس وتوج عام ٥٨٢ هجرية وأصبح يعرف باسم الملك ليو الثاني وكان يطمع في الاستيلاء على انطاكية وكثيرا ما شن الغارات على مناطق حلب وآذى المسلمين

في الريف الواقع إلى الشمال والغرب من حلب .

بعد ذلك نتحدث عن الحملة الصليبية الرابعة التي تعتبر من الحملات المنحرفة حيث اتجهت إلى الدولة البيزنطية أو القسطنطينية رغم أنه كان هدفها ليس القسطنطينية وإنما كان هدفها مصر ذلك أن ريتشارد قلب الأسد كتب رسالة يدعو فيها إلى حملة صليبية جديدة يجب أن تتجه إلى مصر وشرح سهولة الاستيلاء على مصر وأن مصر بما فيها من امكانيات مادية كبيرة هي التي زودت صلاح الدين بكل ما يحتاجه للقضاء على مملكة بيت المقدس . أيضًا عرف الصليبيون ما كان يطمع إليه عموري الأول في الاستيلاء على مصر لذلك انتشر عدد من الدعاة في أوربا ، طبعًا الروح الدينية كانت منتشرة ، والدعاة أمثال بطرس الناسك وغيره الذين ظهروا في الحملة الصليبية الأولى أيضًا كان هناك عدد كبير من الدعاة منهم واحد اسمه فولك نيللي وكان يتميز بقدرة كبيرة على الاقناع ومؤثر جداً في الجماهير النصرانية فدعا إلى حملة صليبية وتأثر به عدد كبير من الناس ، بالإضافة إلى أن هذا العصر عصر الروح الصليبية بسبب انتشار الرؤى ، والنصارى أمة ضلت عن طريق الحق فسلط الله عليهم الشياطين تؤزهم أزًا فانتشرت الرؤى في أوربا وانتشرت كثير من النبوءات ، من ضمنها أنهم كانوا يرون صلبانًا تسبح في السماء ، طبعًا الشياطين تُظهر لهم مثل هذه المظاهر فانتشرت وتواترت الأخبار بتلك الرؤى ، طبعًا هذا يؤدي إلى اشتعال الروح الصليبية وانه يجب القتال في سبيل الصليب ، أي الحرب المقدسة لإعادة أعظم ما يتمنى إليه الانسان النصراني وهو بيت المقدس ، فلذلك لما جاءت الدعوة للحملة الصليبية الرابعة فتبنى تلك الدعوة أو استجاب لها عدد من الأمراء مثل بولدوين التاسع أمير الفلاندر وهي من أكبر الولايات في فرنسا كذلك فيليب السوابي في المانيا وأيضًا واحد اسمه بونيفيس دي مونتفرات من أسرة في المانيا وعدد كبير من الأمراء استجابوا لتلك الحملة ، وأيدها البابا انوسنت الثالث

الذي كان حريصًا على دعمها ، لما رأى الأمراء يستجيبون لتلك الحملة وجد ان هذه الحملة هي التي ستحقق الهدف ذلك ان الحملة الصليبية الأولى كانت حملة من الأمراء وليس من الملوك ونجحت ، أما الحملتان الثانية والثالثة فكانت من الملوك وما دار بين الملوك من تنافس ونزاع أسهم في فشل الحملتين لكن الأمراء أقل مرتبة وجيوشهم مدربة ويستطيع البابا أن يفرض شخصيته عليهم ويجعلهم يذعنون له بالطاعة فلذلك فعلاً استجاب كثير من الأمراء وتجهز الناس في الغرب الأوربي لتلك الحملة الصليبية التي دعوا لقيامها لتتجه إلى مصر .

جاء بعض الأمراء وسلكوا طريق البحر منها حملة فلمنكية سارت عن طريق البحر إلى الشرق . بعد ذلك تجمع الأمراء والفرسان في إوربا وجرت نقاشات فيما بينهم واتفقوا على أن تكون وجهة الحملة هي مصر ، وهذا يحتاج إلى امكانيات بحرية كبيرة ، ولذلك لجأوا إلى الدول التي لديها قدرة بحرية ، وكانت أشهر دولة في أوربا عندها أساطيل هي البندقية ، والبندقية دولة تجارية في إيطاليا والبنادقة تجار على سفنهم ويملكون من السفن في البحر الأبيض المتوسط ما يستطيعون به نقل الصليبيين ولكن من المعروف أن البنادقة وأيضًا الجنويين والبيازنة أثناء الحروب الصليبية اهتموا بالدرجة الأولى كما أشرنا بالمكاسب الاقتصادية والأرباح التجارية عند ذلك وافقوا ان ينقلوا الصليبيين مقابل دفع مبلغ كبير وهو ٨٥ ألف مارك من الفضة يدفعونه للبنادقة ، عند ذلك وافق الصليبيون على ذلك لكنهم لم يستطيعوا جمع إلا مبلغ ٤٩ ألف مارك ، طبعا السفن كل سفينة لها صاحب ومهما كان أصحابها لن يتخلوا عن بقية المبلغ عند ذلك لما وصلت المفاوضات بين الأمراء الصليبيين وبين البنادقة إلى طريق مسدود بسبب عدم دفع المبلغ وهؤلاء الصليبيون حريصون إلى الانتقال إلى مصر عند ذلك توصلوا إلى اتفاق ، وكان زعيم البندقية في ذلك الحين هوالدوق – أو الدوج – ويسمى دندلو فاتفق معهم على ان بقية المبلغ يعفيهم منه مقابل ان يساعدوه في

الاستيلاء على مدينة تقع على الضفة الشرقية من بحر الادرياتيك وتسمى زارا على سواحل كرواتيا الحالية التي كانت ضمن يوغسلافيا ، والاقليم قديم معروف يسمى اقليم دلماشيا فيستولون على زارا ذلك أن زارا كانت مركزًا تجاريًا للبنادقة فانتزعه منهم المجريون قبل سنة وكان البنادقة يحرصون على استعادته فطلبوا منهم أن يساعدوهم على استرداد هذا الميناء من المجريين وبالتالي يكون هذا هو الثمن لنقلهم إلى مصر . وبالفعل ارتحلوا من البندقية بحرًا ليستولوا على زارا ، وكان ذلك بدون علم البابا انوسنت الثالث فاستولوا على زارا ، ولما استولوا على زارا وهي بلد مسيحي وليست بلداً مسلمانهبوها وسلبوا ما فيها وقتلوا سكانها ثم اختلفوا على الغنيمة واقتتل البنادقة والصليبيون ثم اصطلحوا فيما بعد . سمع البابا بذلك فاعتبر هذا جرمًا شنيعًا ضد المسيحية عند ذلك أصدر قرار الحرمان ضد الحملة لكنه تراجع بعد ذلك وقصر قرار الحرمان على البنادقة واعتبر انهم هم الذين أجبروا الصليبيين وأرغموهم لينحرفوا بتلك الحملة . على أنهم بعد ذلك أخذوا يتجهزون للذهاب إلى مصر . بعد ذلك حدثت ظروف في القسطنطينية جعلت الحملة تنحرف إلى القسطنطينية . والبنادقة في ذلك الحين الذي كانوا يعقدون فيه اتفاقيةمع الامراء الصليبيين كان لهم تجار في مصر يتفقون مع السلطان العادل لاعطائهم امتيازات تجارية في دمياط والاسكندرية والقاهرة يريد أن يستميلهم وان يتقي شرهم وتعهدوا في مقابل ذلك الا يشاركوا في أي حملة على مصر والشام . اذن البنادقة وجدوا أنه ليس من مصلحتهم ان تذهب الحملة إلى مصر لأن ذلك سيؤدي إلى ضياع امتيازاتهم عند الدولة الأيوبية . في ذلك الحين تحدث ظروف في القسطنطينية تجعل الحملة برمتها تنحرف وتذهب إلى القسطنطينية ، تلك الظروف هي : ان الامبراطور اسحاق أنجيلوس الثاني الذي حالف صلاح الدين في وقت من الأوقات ثار عليه أخوه الكسيوس الثالث وخلعه من العرش وفقأ عينيه ووضعه في السجن مع ابنه

الكسيوس الرابع واستولى على العرش . استطاع ابنه الكسيوس الرابع أن يفر من سجنه وذهب إلى الغرب وقابل زوج أخته فيليب السوابي امبراطور ألمانيا وعرض عليه الأمر ثم أرسله بعد ذلك ليعرض الأمر على الصليبيين وطلب مساعدتهم بأن تذهب الحملة الصليبية إلى القسطنطينية لتساعده في استرداد عرشه ومقابل ذلك يدفع لهم مائتي ألف دينار ذهب ، ويساعدهم بعشرة آلاف فارس للمشاركة في الحملة الصليبية وأن يُخضع بطريرك القسطنطينية الارثوذكسي اليوناني لسيطرة البابوية الكاثوليكية في روما ، وهذا العرض وجد هوىً في نفوس البنادقة وفي نفوس الصليبيين وفي نفس البابا ، لأن البابا يريد السيطرة على بطريركية القسطنطينية لأنه يعتبر الكنيسة الارثوذكسية في البلقان والقسطنطينية كنيسة متهرطقة وقد حدث انشقاق كبير بين الكنيستين في القسطنطينية وفي روما انتهى ذلك الانشقاق بالانقسام الديني عام ٤٤٦ هجرية/ ١٠٥٤ ميلادية ، وكان البابا يريد السيطرة على الكنيسة الارثوذكسية في القسطنطينية ليصبح هو رأس الكنيسة العالمية لا أحد ينافسه فوافق هذا هوى ورغبة لدى البابا انوسنت الثالث ، أما الصليبيون فقد وجدوا هناك اغراءات كبيرة ، هذه الأموال سيأخذونها مقابل مساعدة اليكسيوس الرابع ، وأيضاً وجدوا ان الاستيلاء على القسطنطينية سوف يساعدهم لأن تكون قاعدة متقدمة يستولون منها على بلاد الشام وتكون قريبة من الشام لاسترداد بيت المقدس من المسلمين . وكان البنادقة يحقدون على الامبراطورية البيزنطية التي حرمتهم من كثير من الامتيازات وأعطت امتيازات تجارية لمنافسيهم من الجنوية ، ذلك أن القسطنطينية أعطت امتيازات تجارية للجنوية في القسطنطينية وفي بعض الجزر في بحر إيجة وفي بعض المراكز التجارية على سواحل البحر الأسود ، وبذلك ازدهرت تجارة الجنويين بسبب هذه الامتيازات فأراد البنادقة الانتقام من القسطنطينية والحصول على امتيازات وطرد الجنوية من تلك المراكز والاستيلاء عليها منهم

وبالفعل سارت الحملة بعد ان كانت وجهتها مصر اتجهت إلى القسطنطينية فوصلت إلى القسطنطينية وحاصرتها ثم بعد ذلك دخل الصليبيون الى القسطنطينية واستولوا عليها سنة ٦٠٠ هجرية ، وعاد الكسيوس إلى عاصمة والده أما الكسيوس الثالث لما وصلت تلك الحملة أخذ أمواله الخاصة وهرب ، ثم قام الكسيوس الرابع باخراج أبيه من السجن وقام أتباعه ونصبوه امبراطوراً فأصر الصليبيون على أن يكون الكسيوس الرابع قسيماً له على العرش وفعلاً جعلوا قسيماً له ولكن بعد ذلك لم يستطع أن يفي بسائر ما وعد به الصليبيين لأن الخزينة خاوية وأمور الدولة كانت قد ضعفت وانهارت ولم يعد لدى القسطنطينية ما تدفعه من مطالب لذلك ثار الصليبيون في القسطنطينية وقضوا على اسحاق انجيلوس وأيضاً لقي ابنه الكسيوس الرابع مصرعه فعند ذلك انتشر الصليبيون مثل الجراد المنتشر في القسطنطينية ، كان ذلك عام ٦٠٠ هجرية /١٢٠٤ ميلادية فاستولت الحملة على القسطنطينية وانتشر الصليبيون مثل الذئاب الجائعة في شوارع القسطنطينية ينهبون ويسلبون ويقتلون . كان هناك مؤرخ بيزنطي معاصر له كتاب لا يزال موجوداً ومترجم إلى الانجليزية واسمه نيكتاس خونياتس له كتاب بكى فيه القسطنطينية وذكر ذلك النهب الذي ارتكبه الصليبيون وتمنى لو أن القسطنطينية سقطت بأيدي المسلمين فإنهم سيكونون أرحم من هؤلاء النصارى الكاثوليك . فعندما استولى المسلمون على بيت المقدس لم يفعلوا ما فعله هؤلاء فما تركوا شيئًا يلمع إلا ونزعوه . نزعوا كل ما في الكنائس من الحلي واستولوا عليها ودخلوا إلى كنيسة أيا صوفيا وهم سكارى فشربوا الخمر وداسوا على الأناجيل احتفالاً بالنصر ودمروا وأحرقوا حتى أن نكتاس خونياتس ذكر بأن القسطنطينية تحولت بأكملها وكأنها سوق للحوم من الدماء التي فيها واللحم الذي انتشر من قتل الناس ، فارتكبوا فيها مجازر ونهب وسلب حتى أن سائر المؤرخين الذين أرخوا لهذه الحملة من الغربيين في العصر الحاضر اعتبروا أن الصليبيين

ارتكبوا أعظم وأشنع جرم في تاريخ أوربا وأنه لا يوجد شيء مؤلم في التاريخ الأوربي مثل نهب الصليبيين للقسطنطينية ، تلك المدينة التي زخرت على مدى أكثر من تسعمائة سنة بالروائع والكنائس وفيها ما فيها من حُلي من الذهب والفضة كلها ذهبت أدراج الرياح ودُمرت بشكل كامل ونزعوا السيراميك والرخام من الكنائس ومن القصور ، وطبعًا هذا الكلام حقيقي ، يذكر أبو شامة في كتاب الروضتين ان عز الدين اسامة صاحب عجلون في ذلك الحين كان من امراء الأيوبيين وكان يبني له دارًا فوصلت إلى موانئ الشام الكثير من تلك المنهوبات من الرخام والسيراميك واستطاع أن يحلي بيته بالكثير من تلك الروائع التي باعها الصليبيون وجاء بها التجار ليبيعوها في سواحل الشام .

على أية حال بعد ذلك اجتمع الصليبيون وانتخبوا من بينهم بولدوين التاسع أمير الفلاندر امبراطورًا لاتينيًا كاثوليكيًا في القسطنطينية كما عينوا اسقفًا أو بطريركًا من البنادقة على الكنيسة في القسطنطينية بدل البطريرك اليوناني وزالت الامبراطورية البيزنطية من داخل القسطنطينية ، بعد ذلك توسع الصليبيون وقسموا بقية الممتلكات بينهم كاقطاعات على نظام الاقطاعي الغربي . لكن اليونانيين من أصحاب العاصمة وبعض زعمائهم استطاعوا ان ينشئوا امارات أو عدد من الامارات أشهرها امارة شرق البحر الأسود وتسمى امارة طرابيزون وامارة أسسها تيودور لاسكاريس في نيقية وامارة أيضًا في ابيروس ، وظل اليونانيون يناضلون في سبيل استرداد عاضمتهم إلى ان تمكنوا بعد نحو ستين سنة عام ٦٦١ هجرية من استرداد عاصمتهم من الكاثوليك الصليبيين .

طبعًا هذه الحملة الصليبية الرابعة التي انحرفت عن هدفها لكن بعض الصليبيين تورعوا عن ذلك العمل فمنهم من ذهب إلى الشام . لكن كثيرًا من الذين كانوا يخشون المسلمين في الشام وجدوا في القسطنطينية وفي بلاد الامبراطورية البيزنطية التي سقطت بيد الصليبيين أن فيها من مباهج الحياة

أكثر مما في الشام فارتحلوا إلى بلاد العاصمة البيزنطية . على أية حال ، أدى هذا العمل إلى سد الطريق البري أمام الصليبيين ذلك انه لما قام تيودور لاسكاريس امبراطورية في نيقية في غرب آسيا الصغرى أصبح يشكل حاجزاً بين القسطنطينية وبين أن يسلكوا الطريق البري لأنه بمجرد ما يعبرون البسفور سيجدون أمامهم امبراطوراً معادياً بيزنطياً هو تيودور لاسكاريس فلم يجرؤ أحد من الصليبيين أن يعبر براً متجهاً إلى بلاد الشام .

على أية حال ، بعد ذلك جاءت جموع أخرى من الصليبيين في نفس العام وأغاروا على بلاد المسلمين ووصلوا في غاراتهم إلى بيت المقدس فاستدعى العادل العساكر وجاؤوا إليه وتقدم إلى الصليبيين فخافوا ، ثم بعد ذلك حدث الصلح بينه وبين الصليبيين . بعد ذلك حدث أن العادل خشي أن يكون ذلك مقدمة لحملة صليبية وسمع باستيلاء الصليبيين على القسطنطينية ، فخشي أن يكون ذلك بداية لحملة كبرى لذلك تنازل في الصلح الذي عقده مع الصليبيين عن ما حصل عليه المسلمون في يافا ، حيث أعطاهم يافا وأعطاهم بعض الحصون المهمة على أن يعقدوا الهدنة معه . لكن في شمال الشمال قامت امارة طرابلس باعتداءات عام ٦٠٣ هجرية ، اضطر بعدها السلطان العادل أبو بكر إلى استدعاء العساكر فجاءت العساكر من الشرق ومن كل أرجاء الدولة الأيوبية ، عند ذلك سار وأقام عند حمص طوال شهر رمضان عام ٦٠٣ هجرية ، ثم تقدم إلى طرابلس وحاصرها وشدد عليها الحصار ، ولو استمر ربما استولى عليها ، إلا أنه تخلى عن الحصار لأنه شاهد في عساكره فشلاً وضجراً والسبب في ذلك انه كان في وقت الصيف وكان في شهر يوليو وكان معروفاً أن نقطة الضعف في العسكرية الأيوبية أن العساكر كان لهم اقطاعات وانهم كانوا يحتاجون إلى العودة الدورية إلى اقطاعاتهم لحصد محصولاتهم وجني بساتينهم ، فلما رأى فيهم فشلاً وضجراً عقد الصلح مع امارة طرابلس الصليبية وعادت العساكر وجمد الموقف

تقريباً بين المسلمين وبين الصليبيين .

على أية حال في ذلك الحين حدث أن عموري لوزجنان مات ، ولما مات أصبح عرش المملكة شاغراً ، وكانت زوجته ايزابيل قد ماتت قبله – المملكة يسمونها مملكة بيت المقدس إلا انها تقتصر على عكا وعلى صور – ولم يعد وريث في المملكة إلا فتاة صغيرة هي ماري بنت ايزابيل التي هي بنت عموري الأول والتي انجبتها ايزابيل من كونراد دي مونتفرات فأصبحت هي الوريثة حسب النظام الاقطاعي عند الصليبيين ، أصبحت الوريثة الشرعية لبيت المقدس في نظرهم ، فتولى حنا دي أبلين صاحب صيدا الوصاية عليها إلى أن بلغت سن الرشد وصار عمرها ١٨ سنة فبحث القادة عن امير كي يتزوجها حتى يصبح ملكًا على بيت المقدس ، وتشاور الصليبيون في بلاد الشام وبعد ذلك أرسلوا يستشيرون ملك فرنسا فرشح من عنده زوجًا للملكة الصغيرة وهو حنا دي بريين وكان في الستين من عمره وكانت هي في الثامنة عشرة من عمرها فأرسله إليهم ، وحنا هذا فارس صليبي مشهور وكان من الذين يتطلعون إلى غزو مصر فجاء إلى الشام وتم عقد الزواج في عكا وأصبح هو الزوج للملكة الصغيرة ماري وأصبح ملكًا على بيت المقدس ، وسنرى دور حنا دي بريين في غزو مصر . لكن لم تلبث هذه الأميرة الشابة أن ماتت بعد أن أنجبت من حنا دي بريين بنتًا صغيرة تسمى يولاند لتصبح هي الوريثة الشرعية لبيت المقدس وبالتالي صار موقف حنا دي بريين حرجًا ، لكن الأمراء اجتمعوا وعينوه وصيًا على البنت الصغيرة حتى تكبر وتتولى العرش ويتزوجها أحد الرجال ويتولى العرش وهو ما سيحدث عندما يتزوج فردريك الثاني يولاند ويصبح هو الوريث لمملكة بيت المقدس . على أية حال في هذا الوقت جمد الموقف تقريباً بين المسلمين وبين الصليبيين ، ويذكر المؤرخون أنه حدثت تظاهرات شعبية أو حركة شعبية للمسلمين ، ذلك انه لما جمد الموقف وكلما مرت فترة من الفترات يعقد السلطان العادل هدنة مع الصليبيين وأحيانًا يتنازل

لهم عن بعض المناطق في بلاد المسلمين أو عن بعض الحصون . ولم تكن حركة الجهاد بنفس المستوى الذي كان عليه السلطان صلاح الدين . يذكر سبط ابن الجوزي المؤرخ في كتابه مرآة الزمان أنه خطب في أحد المرات في جامع دمشق وذكر فضائل الجهاد فاحتشد نحو ثلاثين ألف مسلم يدعون إلى الجهاد في سبيل الله حتى ان النساء قطعن أو قصصن شعورهن ليصنعن منها حبال أو شكالات لخيول المجاهدين ، فجيء بتلك الشعور المصنوعة ووضعت أمام المحراب فكانت شيئًا عظيمًا حتى ضج الناس بالبكاء وقامت القيامة فتجهز الناس وجاؤوا بأسلحتهم ، من ضمنهم من إحدى القرى من قرى دمشق تسمى زملكا ، خرج منها جميع رجالها وكان عددهم ثلاثمائة رجل بالعدد والسلاح ، فعند ذلك احتشد ثلاثون ألفًا من المجاهدين وعامة الناس وسار بهم سبط ابن الجوزي ونزل بهم من الجولان من العقبة التي تسمى عقبة فيق أو أفيق وكان في ذلك الحين المعظم عيسى ابن العادل في نابلس ، فوصلوا إلى نابلس وقابلوه فاستقبلهم في جامع نابلس ومعهم تلك الشعور التي صنعت كحبال فلما قدموها للمعظم عيسى أخذها ووضعها على وجهه وهو يبكي ، وكان الصليبيون في ذلك الحين قد تلقوا نجدات وتوغلوا في ديار المسلمين ولما رأوا تلك الحشود خافوا ، وسار ذلك الجيش الشعبي وتقدم وأغار على ممتلكات الصليبيين حتى حدود أسوار عكا مما منع الصليبيين من الخروج وتحصنوا بالحصون والقلاع والمدن ولم يجرؤوا على مواجهة ذلك الحشد الشعبي الكبير فعادوا بغنائم وفيرة إلى دمشق . وهذا يبين أن عامة الشعب المسلم عنده استعداد على البذل والتضحية في سبيل الله .

حملة الأطفال :

حملة عجيبة غريبة هي حملة الأطفال ، حملة صليبية قادها الأطفال ، وهذه الحملة حدثت سنة ٦٠٩ هجرية / ١٢١٢ للميلاد قصة هذه الحملة تثبت أن الروح الصليبية كانت منتشرة في أوربا وكان هناك كثير من الرؤى وكثير من الأحلام

وكثير من الخرافات التي تظهر ، من ضمن تلك الخرافات والرؤى أن فتىً أو صبي فرنسي يسمى ستيفن كان في الثانية عشرة من عمره وكان راعي غنم ، فجأة بينما كان فيليب اغسطس مجتمعًا في مجلسه وإذ بهذا الطفل يقتحم المجلس ويدخل ويقول ان معه رسالة من المسيح وان المسيح دعاه ، وطبعًا المسيح عندهم الرب ، فهو أرسل ستيفن ، فأصبح ستيفن في نظرهم نبيًا ، وقال إنه دعاه إلى أن يدعو إلى حملة صليبية جديدة . عند ذلك ، استخف به فيليب اغسطس وأمره أن يعود إلى بيته ويترك هذا الأمر ، لكن ذلك الطفل أو ذلك الصبي ستيفن عاد وقال انه هو النبي الذي أرسله المسيح وانه سيقود حملة من الأطفال لتحرير الأماكن المقدسة في بلاد الشام واسترداد بيت المقدس من المسلمين وأنه أُخبر من قبل المسيح بأنه ستحدث معجزة وهي أنه إذا قاد الأطفال سوف ينشق البحر أو ينفلق البحر وتنحسر المياه فيعبر عليها مثل ما عبر موسى وقومه عندما طاردهم فرعون إلى أن يصل إلى الأراضي المقدسة في بلاد الشام وعند ذلك يفتحون بيت المقدس ، هو كان خطيبًا وكان مؤثرًا ،والعصر كان عصر خرافات فتأثر به كثير من الأطفال وكثير من الأساقفة الصغار فاحتشد معه نحو خمسين ألف طفل كلهم تقريباً في الثانية عشرة والثالثة عشرة من أعمارهم واحتشدوا من جميع أقطار فرنسا والناس تأثروا بهم وخرجوا وتوجهوا إلى مرسيليا حتى ينحسر البحر فيعبرون ، عند ذلك أراد ستيفن أن يمتع نفسه فأشار بأنه بصفته نبياً مرسلاً من قبل المسيح يجب أن تكون له عربة تليق بمقامه عند ذلك صنعوا له عربة عليها سقف يظلله من الشمس وركب على العربة وتجرها الأحصنة ومعه بعض الأطفال من أبناء النبلاء والأمراء فاتجه ذلك الحشد من باريس في وسط فرنسا متجهًا إلى الجنوب إلى مرسيليا ، فسارت الرحلة وكان الناس في الطريق يعجبون بهؤلاء الأطفال الذين يعتبرونهم جنود المسيح الذين سيحررون الأرض المقدسة من المسلمين ويستردون بيت المقدس ، وصلت الحملة ،

حقيقة هذه جرت ومصادرها في التاريخ الأوربي ، فوصلت تلك الحشود مع ستيفن إلى مرسيليا ثم وصلوا إلى الميناء ، فاجتمع الناس ليروا كيف ينشق البحر وكيف يعبر هؤلاء إلى بلاد الشام ، وانتظروا يوم ويومين فما انشق البحر ، بعد ذلك صرخ الأطفال في ستيفن ورموه بالحجارة وقالوا انه كذاب ، ولكنه ظل مصراً على أن المعجزة سوف تتحقق وسوف يحرر الأراضي المقدسة ويسترد بيت المقدس من الكفار ، ويقصد بالكفار المسلمين ، واستمر على ذلك عدة أيام فما انشق البحر ولا انفلق لهم ، عند ذلك ظهر تاجران فرنسيان في مرسيليا وقالا نحن نتكفل بنقلكم إلى الأراضي المقدسة ، كان هذان التاجران واحد اسمه هيو الحديدي والثاني اسمه وليام الخنزير فاستأجرا لهم سبع سفن فحملوهم في تلك السفن وانطلقت صوب الأراضي المقدسة بزعمهم ومر ١٨ سنة لم يعلم أحد في الغرب عن تلك الحملة شيء . في نفس الوقت الذي حدثت فيه هذه الحركة في فرنسا –لاحظوا أن الروح الصليبية منتشرة في ذلك الحين – يعني في هذا الوقت الذي كانت فيه هذه الحملة تجري كان البابا انوسنت الثالث يدعو لمساعدة الفونس الثامن وذهبت عشرات الألوف لقتال المسلمين في الأندلس ، فالروح الصليبية منتشرة ، وحدثت معركة العقاب عام ٦٠٩هجرية . فلما سمع أطفال المانيا رأوا انهم ليسوا أقل من أطفال فرنسا فظهر في المانيا نبي مزعوم جديد اسمه نيقولا قال بأنه سيقود الأطفال الألمان لتحرير الأماكن المقدسة ليس بالحرب ، ستيفن قال بالحرب سنتغلب على المسلمين ، لكن نيقولا قال بالتبشير ندخل المسلمين في النصرانية ، انظروا الحركة التنصيرية بدأت تظهر ، وقال بأنهم سينطلقون وينشق لهم البحر وسوف يصلون ويدخلون الكفار المسلمين – بزعمهم – في النصرانية وبالتالي تدخل بحوزتهم الأماكن المقدسة ، ويصبح المسلمون رعايا للكنيسة الكاثوليكية . فاحتشد مع نيقولا عدد كبير وانقسموا على دفعتين كل دفعة تقريباً عشرين ألف ، سارت الدفعة الأولى من المانيا وهي مسافة أبعد

من فرنسا التي كانت قريبة من مرسيليا ، لكن هؤلاء كان يقتضي منهم أن يعبروا الجبال في سويسرا الحالية وفي جبال الألب إلى ان يصلوا ايطاليا حتى يصلوا إلى البحر . على أية حال مات عدد كبير منهم في الطريق بسبب طول الرحلة فلما وصلوا إلى ايطاليا ، اتجهوا إلى جنوة . حتى ان البابا انوسنت الثالث استقبل عدداً منهم وتأثر بهم ونصحهم بالعودة إلى بلادهم ، لأنه كان يدرك أن هذه مجرد خرافة ولكنهم أصروا ، وأصر نيقولا بأنه سوف ينجح وذهب إلى جنوة وبعد ذلك استأجر بعض السفن الجنوية أخذتهم ونقلتهم بحراً لكن كثير منهم تأثروا وعادوا لما لم ينفلق البحر وبعضهم تبنتهم بعض الأسر الإيطالية فتبددت الحملة الألمانية .

كيف جاء الخبر بعد ١٨ سنة من تلك الحملة التي قادها ستيفن ؟ بعد ١٨ سنة جاء أسقف عاد من الشرق وأخبر أنه كان أحد صبيان تلك الحملة وكان أسقفاً صغيراً انضم إلى ستيفن وتأثر به قال : ركبنا في تلك السفن السبع مع هذين التاجرين الخبيثين ، طبعاً هما أرادا أن يستفيدا منهم ويبدو أنهما رتبوا أمورهما لبيعهم فعند ذلك سارت السفن السبع المحملة بأولئك الأطفال واتجهت جنوباً ، لكن سفينتين تحطمتا بالقرب من جزيرة كورسيكا وغرق من فيها ، أما بقية السفن الخمس صارت تمشي بالبحر وإذا بها تطوق باسطول اسلامي ويستلم رجال الأسطول أولئك الأطفال ويأخذوهم إلى ميناء بجاية في الجزائر وبيعوا في أسواق الرقيق وتوزعوا بين الناس ومنهم أعداد كبيرة وصلت إلى الاسكندرية وبيعوا بأسواق الرقيق ومنهم من حُمِلَ إلى بغداد ، يذكر هذا الأسقف أنه كان ضمن جماعة بلغوا سبعمائة اشتراهم والي الاسكندرية وشغلهم في مزارعه وبساتينه يعملون طوال العام وظلوا على ذلك حتى تمكن من العودة ليخبر بنتائج تلك الرحلة الكبيرة رحلة أولئك الأطفال أو حملة الأطفال ، وهذا يبين مدى الروح التنصيرية التي كانت منتشرة ومدى الخزعبلات التي كانت منتشرة في

أوربا ، ولا شك ان الذين وصلوا إلى الشام ومصر بعضهم أسلم ومنهم من اشتغل مترجمين ، ربما وصل إلى العادل وابنه الكامل عدد منهم فيما بعد ، لكن هذه الحملة تبين الروح الصليبية التي كانت منتشرة في أوربا حتى أن أولئك الأطفال يخرجون بتلك الحشود الضخمة يريدون تحرير الأماكن المقدسة .

بعد ذلك في اللقاء القادم سوف نتحدث ان شاء الله عن الحملة الصليبية الخامسة ، تلك الحملة مهمة جداً لأنها اتصفت بطابع صليبي وتبشيري تنصيري ، فجاءت وفيها عدد من المنصرين وهم فرنسيس الأسيسي وجاك دي فتري أسقف عكا وكان قد وصل في هذا الوقت في هذه الحملة إلى بلاد الشام فأصبح أسقفاً على عكا وأيضاً واحد اسمه اوليفر أوف كولون ، فأصبحت الحملات الصليبية تأتي ومعها منصرين بغية ادخال المسلمين في النصرانية ، وطبعاً هذه نقطة تحول في تاريخ الحروب الصليبية ، ذلك ان الحروب الصليبية إذا كانت قبل هذا التاريخ كانت تأتي بهدف الاستيلاء على بلاد المسلمين والقضاء عليهم ، وهنا تأتي لتحويلهم أيضاً إلى النصرانية ، يعني إذا كانت الحروب الصليبية تحت شعار الصليب للقتال في سبيل الصليب جاء وقت من الأوقات بعد عدة قرون وقد خمدت الروح الصليبية لكن الوليد الخبيث الذي تولد عن الحروب الصليبية وهو تنصير المسلمين باقٍ إلى اليوم . هذا التنصير للمسلمين لا يزال مستمراً عندما اعتذر البابا الحالي الموجود في روما قبل سنتين أو ثلاث سنوات اعتذر للمسلمين عن الحروب الصليبية وما صار فيها من قتل للمسلمين فهل اعتذر عما تولد من الحروب الصليبية وهو التنصير ؟ ، لم يعتذر عن التنصير . فالتنصير باقٍ ، بل الكنيسة الكاثوليكية وسائر الكنائس الغربية سواء البروتسانتية والانجليكانية تعمل على التنصير على قدم وساق وتسعى لتحويل المسلمين عن دينهم وتدمير عقيدتهم . على أية حال قبل أن نتحدث عن الحملة الخامسة ، وهو ما سنتحدث عنه في اللقاء القادم إن شاء الله نشير إلى السبب المباشر لتلك الحملة الصليبية

التي أدت إلى مجيئها ، وهو ان المعظم عيسى بن العادل عندما استقبل تلك الحملة الشعبية التي قادها سبط ابن الجوزي عند ذلك عمد إلى جبل مطل على عكا ذلك الجبل يسمى جبل الطور وهو غير طور سيناء الموجود في شبه جزيرة سيناء ، هذا جبل آخر قريب من عكا يشرف عليها ، عند ذلك عمد المعظم عيسى ابن العادل إلى بناء قلعة الطور على ذلك الجبل ويذكر أبو شامة أنه ظل يعمل في ذلك أكثر من سنة وأحضر عدداً كبيراً من البنائين ومن الرجال العاملين حتى أحكم بناء تلك القلعة وأتقنها وشحنها بالرجال والسلاح والعتاد فشعر الصليبيون في عكا وخاصة ملكهم الجديد حنا دي بريين ان هذه القلعة تعتبر عملاً أو تمهيداً من العادل وأنه يزمع القضاء على الوجود الصليبي في عكا واستئصال بقايا المدن الصليبيةالموجودة في بلاد الشام، لذلك أرسل الصليبيون وخاصة حنا إلى البابا انوسنت الثالث يخبره ببناء تلك القلعة ويدعو للقيام بحملة صليبية جديدة لانقاذ الممتلكات الصليبية الباقية وليس لاسترداد بيت المقدس من المسلمين .

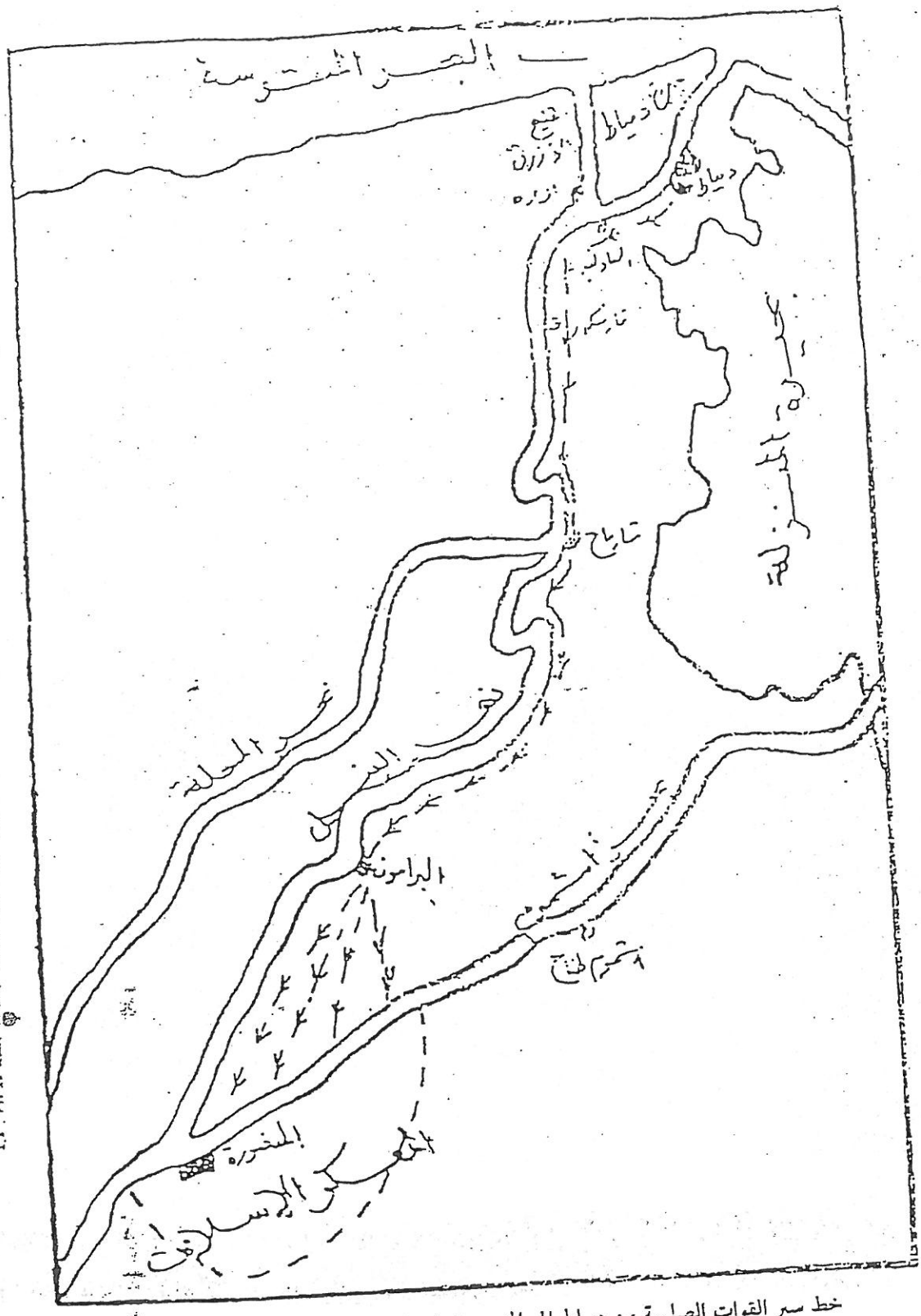
البابا انوسنت الثالث من جانبه لا شك ان انتصار النصارى الصليبيين في معركة العقاب على الموحدين قد أثار فيه النشوة وأراد أن يتبع ذلك بعمل آخر وهو استرداد بيت المقدس من المسلمين واعادة الممتلكات الصليبية مثلما كانت ، لذلك أخذ يعمل لشن حرب صليبية جديدة . وفي ذلك الحين ، كما قلنا كانت الروح الصليبية في أوربا مشتعلة ، قائمة على قدم وساق لدرجة أنه كان من أشهر الدعاة في ذلك الحين مندوب من قبل البابا يسمى روبرت كورسون فظل طوال عام ٦١٠ هجرية يدور في أرجاء فرنسا ويدعو إلى شن حملة صليبية جديدة ولذلك لا نعجب من الروح الصليبية السائدة ، فإذا كنا رأينا حملة الأطفال الذين جاؤوا بتلك الحملة نجد أيضاً أن جموعاً ضخمة جداً ذكرها المؤرخون الغربيون من الشيوخ والأطفال والبرصى والمقعدين والنساء بل حتى النساء العاهرات ذوات السمعة السيئة احتشدوا جميعاً ليشنوا حرباً صليبية مقدسة ، يعني أقصى ما

كان يتمناه الإنسان في الغرب الأوربي . وأخذوا يحتشدون لكن البابا حث مندوبه على أن لا يعمل على حشد أولئك الذين لا يمكن الإفادة منهم في الحرب الصليبية . وحدث في نفس الوقت أن جامعة باريس وكانت في ذلك الحين جامعة لاهوتية ، أصدر أساتذتها فتوى بأنه كل من اتخذ شعار الصليب فيجب أن يفي بنذره وإذا لم يوف بنذره في الاشتراك بالحرب المقدسة ضد المسلمين فإنه يعتبر بذلك مرتكبًا لجريمة عقوبتها الإعدام . لذلك أخذ البابا يدعو إلى مجمع ديني وهو المجلس الذي عرف باسم مجمع اللاتران الكنسي ، وبدأ البابا انوسنت الثالث يدعو لهذا المجمع منذ عام ٦٠٩ هجرية / ١٢١٣ ميلادية ، وطاف مندوبه روبرت كورسون يدعو إلى تلك الحملة ويدعو الامراء ويدعو رجال الدين للاشتراك في ذلك المجمع وبالفعل أخذ البابا من جانبه يرسل مندوبين آخرين يدعوهم لحضور ذلك المجمع وأخيرًا انعقد ذلك المجمع الكنسي ، مجمع اللاتران الكنسي في الحادي عشر من نوفمبر عام ١٢١٥ ميلادية / ٢٠ رجب ٦١٢ هجرية ، هذا الاجتماع يعتبر من أكبر الاجتماعات النصرانية لم ينعقد مثله منذ قرون . رأينا مجمع كليرمون الذي أعلن فيه الباب اربان الثاني الحرب الصليبية الأولى لكن الذين حضروا هذا المجمع من رجال الدين ومن الشخصيات الأخرى أكثر من مجمع كليرمون ذلك أن عددهم يتجاوز الف وثلاثمائة ما بين أسقف ومطران ورئيس كنيسة ، ولم يقتصر الأمر على حضور رجال الدين لهذا المؤتمر بل أيضًا جاء بعض الحكام من أمراء وغيرهم وحضروا ذلك المجمع الديني ، وعندما عقدت جلسات المؤتمر عمل البابا انوسنت الثالث على تسوية كل الأمور المتعلقة بالكنيسة ورفع من شأن البابوية إلى حد كبير لذلك ساد المؤتمر جو عجيب ، وهو الاعتقاد بأن الكنيسة هي الطريق الوحيد للخلاص وان رضا الكنيسة هي من رضا الرب المسيح بزعمهم . وبعد ذلك ألقى البابا انوسنت الثالث خطابًا في المجمع ، طبعًا في كلامه افتراء كبير ، زعم ان بيت المقدس تعاني الأمرين تحت حكم المسلمين وان المسلمين ينتهكون حرمات

كنيسة القيامة ويتهكمون على صليب السيد الرب المسيح بزعمهم كما ذكر أنه يجب القضاء على المسلمين وطالب الحاضرين بمساعدته في القيام بهذا العمل المقدس، واستطاع البابا انوسنت الثالث بما عرف عنه من فصاحة ومن تأثير في قلوب و عقول سامعيه أن يؤثر في الناس الحاضرين بهذا الكلام ، بدليل انهم صاحوا جميعًا بأنه يجب القضاء على المسلمين . على أية حال بعد ذلك تحدث بعض المندوبين العلمانيين من رجال الدين وناقشوا مشروع استعادة بيت المقدس وأيضًا كان من بين المشاريع أنه يجب مهاجمة مصر وغزوها لأنها هي المخزن الذي تزود منه صلاح الدين بما يحتاجه من مواد ومن مؤن لإسقاط المملكة الصليبية في بلاد الشام . عند ذلك صيغت قرارات لذلك المجمع وأيضًا تم وضع الأطر والقوانين فيما يتعلق بتمويل الحملة والامتيازات التي تعود على الصليبيين الذين يشاركون في الحملة ، كما أصدر المجمع قرارًا يحرم التجارة مع المسلمين ، هذا نوع من الحرب الاقتصادية ، مع الأسف هم استخدموه كثيرًا في ذلك العصر ، الآن انظر إلى هؤلاء الصليبيين منذ وقت مبكر ضد المسلمين وهم يستخدمون الحرب الاقتصادية ، ومحاربة المسلمين اقتصاديًا ، ونحن في هذا العصر نحن أحوج ما نكون فيه إلى الحرب الاقتصادية ، وإلى مقاطعة المنتجات الغربية خاصة الأمريكية والمنتجات اليهودية مع ذلك لا نستخدم هذا السلاح ، لو كل انسان بنفسه استخدم هذا السلاح وقاطع هذه البضائع ، هذه الدولة العظمى الكافرة امريكا التي تعمل على مساعدة اليهود في قتل اخواننا المسلمين في فلسطين لو كل واحد منا يمتنع عن شراء هذه البضائع لأسهمنا في الجهاد ، يسهم كل واحد فيما يستطيع ، فهم في هذا المجمع الكنسي الذي عقده البابا انوسنت الثالث في عام ٦١٢هجرية يصدر قرار من ضمن القرارات المهمة التي يلزم الالتزام بها وهو أنه يجب تحريم الاتجار مع المسلمين ، يعني حرب اقتصادية ، يعني حرب على المستويين العسكري والاقتصادي ، على أية حال

أعلن البابا أنه سوف يقدم ثلاثين ألف جنيه بالاضافة إلى ثلاثة آلاف مارك من الفضة ، وأيضًا فرض على نفسه وعلى كافة رجال الدين في الكنيسة بأن يقدموا عشر دخلهم أما الطوائف الدينية الرهبانية فيجب أن يقدموا واحد على عشرين من دخلهم ، كما طلب البابا من الذين سوف لن يذهبوا مع الحملة ان يمدوا اخوانهم الصليبيين المتوجهين بما يحتاجونه من مصروفات لمدة ثلاث سنوات وعهد البابا إلى بطريق بيت المقدس وإلى رئيسي الداوية والاسبتارية بالصرف من الأموال لصالح هذه الحملة ، أيضًا أصدر المجمع عددًا من القرارات ، فقد وعد المجمع – وطبعًا هذا باسم البابا – أن كل الذين يقدمون سفنهم لحمل الجنود أو الذين يعملون في بناء هذه السفن أو يساهمون في نفقات الحملة أن تغفر لهم جميع خطاياهم ، أيضًا الاعفاءات المادية لكل الذين سيذهبون مع الحملة على نفقتهم الخاصة فقد اعفاهم البابا من دفع الضرائب بمجرد اتخاذهم الصليب وحمل الصليب بالإضافة إلى وضع ممتلكاتهم تحت حماية الكنيسة لحين عودتهم ، كذلك بالإضافة إلى هذا فإن من يتاجر مع المسلمين فإنه يحق للكنيسة والسلطات الغربية الأوربية ان تصادر تجارته . وأيضًا القرارات أعطت الحق لمن يقبض على أي تاجر لاتيني يتعامل مع المسلمين ان يعامله معاملة الأسرى ، وقد ذكر بعض المؤرخين أن عدد تلك البنود سبعة عشر بندًا أمر البابا بتنفيذ تلك التعليمات بالكامل وايضًا الغفران لكل من ينفذها وكل بقدر اسهامه بتخليص الأرض المقدسة بزعمه ، وأمر البابا بإعلان قرارات المجمع في أيام الآحاد والأعياد الرسمية في كافة أنحاء البلاد الأوربية ، وبعد ذلك أخذ البابا يرسل المبشرين والدعاة للدعوة إلى الحملة الصليبية في سائر انحاء أوربا وعند ذلك أخذ الدعاة ينتشرون في الغرب الأوربي بالاضافة إلى مشاركة عدد من الشعراء وكما أشرت إلى انتشار الروح الصليبية ونتيجة أن الشياطين ، تتسلط عليهم أمة ضالة أرسل الله عليهم الشياطين تؤزهم أزًا فلذلك راجت روايات في صفر سنة ٦١٤هجرية أنه

ظهر في السماء السيد المسيح بزعمهم مصلوباً على خشبة الصليب ثلاث مرات في مناطق مختلفة في مقاطعة كولونيا بألمانيا ، هذا أثار الشعب الأوربي وجعله يهب عن بكرة أبيه للمشاركة بهذه الحملة الصليبية ومحاولة تخليص القبر المقدس، طبعًا كل الكتاب يذكرون هذا وان هذا الصليب الذي تراءى لهم في السماء ظهر وقد يكون هذا حقيقة ولكن هذه من الرؤى الشيطانية التي تتراءى لهم مثل هذه الرؤى ليزدادوا ضلالاً ويمشون في تلك الطريق المدمرة التي تؤدي إلى دمارهم من ناحية وأيضًا تؤدي إلى حرب المسلمين أهل الدين الحق من ناحية أخرى . وبهذا نجحت الدعوة للحملة الصليبية الخامسة وسوف نتحدث عنها في الأسبوع القادم بالتفصيل وشكرًا .



خط سير القوات الصليبية من دمياط إلى المنصورة (إبتداء من ١٧ يوليو ١٢٢١م/ ٢٥ جمادي الثاني ٦١٨هـ) نقلاً عن محمود عمران: الحملة الصليبية الخامسة

الحملة الصليبية الخامسة :

بسم اللّه والحمد لله والصلاة والسلام على رسول اللّه وبعد : كنا قد تحدثنا في الأسبوع الماضي عن الموقف في الدولة الأيوبية بعد وفاة صلاح الدين وحرب الوراثة الأيوبية إلى أن تمكن السلطان العادل من بسط نفوذه من جديد على الدولة الأيوبية وأعاد الوحدة لتلك الدولة ، ثم تحدثنا عن الموقف بين المسلمين والصليبيين في بلاد الشام وعن الحملة الصليبية الرابعة والبابا انوسنت الثالث وجهوده الصليبية وظهور حركة التنصير الأوربية وحملة الأطفال وأيضًا تحدثنا عن الدعوة للحملة الصليبية الخامسة ومجمع اللاتيران الذي دعا إليه البابا انوسنت الثالث سنة ٦١٢ هجرية / ١٢١٥ ميلادية ، ذلك المجمع الضخم الذي عقد في أوربا وألقى فيه البابا انوسنت الثالث خطابًا هامًا دعا إلى شن حملة صليبية ضد المسلمين لاسترداد بيت المقدس واتهم المسلمين بأنهم ينتهكون حرمة كنيسة القيامة ويتهكمون على الصليب المقدس وأشرنا إلى القرارات التي اتخذها مجمع اللاتيران بتوجيه وانشاء حملة صليبية جديدة تشترك فيها سائر البلدان الأوربية واتخذ ذلك المجمع عددًا من القرارات المتعلقة بتمويل الحملة وتوفير السفن وما يحتاج لتلك الحملة ، بعد ذلك انتشر الدعاة في أوربا يدعون إلى حملة صليبية جديدة وشاركهم في ذلك الشعراء وأخذت الحملة تحتشد ، كما أرسل البابا انوسنت الثالث إلى السلطان العادل رسالة يطلب فيها تسليم بيت المقدس ويهدده إن لم يفعل ذلك بحملة صليبية جديدة . وإذا كان البابا انونسنت الثالث قد مات بعد ذلك بفترة قصيرة بعد مجمع اللاتيران فإن خليفته البابا هونوريوس الثالث واصل الجهد بنفس الوتيرة وظل يدعو إلى حملة صليبية جديدة وانتشر الدعاة في سائر أنحاء أوربا وطالب البابا الجديد هونوريوس الثالث من اندريه الثاني ملك هنغاريا للوفاء بنذر والده الذي كان قد تعهد بشن حماة صليبية جديدة ولكنه مات قبل أن يفي بنذره وعند ذلك أخذت الحشود تحتشد في أوربا وكان أول القادة

الأوربيين نهوضاً إلى تلك الحملة هو ملك هنغاريا اندريه الثاني الذي سار بقواته واتجه غرباً واتصل بالبندقية ، لأنه لا بد لنقل الحملة من توفير السفن ، وكان مجمع اللاتيران اتخذ قراراً بغزو مصر وبأن تكون وجهة الحملة مصر ، فالحقيقة ان هذا اتجاه جديد في تفكير الصليبيين ظهر منذ منذ بداية القرن السابع الهجري وأصبح بعد ذلك الدعاة والمخططون الأوربيون يدعون إلى ان تتجه الحملات نحو مصر بدءاً من أوائل القرن السابع الهجري حتى نهاية عصر الحروب الصليبية في العصور الوسطى واعتبر الدعاة أن مصر هي قلب العالم الإسلامي ووصفوها بهذا الوصف ومنهم من وصفها بأنها رأس الأفعى وأن صلاح الدين لم يتمكن من تحطيم مملكة بيت المقدس الصليبية وانزال الهزيمة الساحقة بالصليبيين في حطين إلا بعد أن استولى على مصر وتزود بما تحتاجه جيوشه من مؤن ومن أغذية ومن رباط الخيل ومن رجال ، ومعروف أن مصر منذ العصور الاسلامية الأولى كانت قاعدة مهمة للمسلمين وزادت تلك المكانة في عصر الحروب الصليبية ذلك أن عظمة مصر انبثقت أولاً من موقعها الفريد بين القارات قرب ملتقى ثلاث قارات بالإضافة إلى الامكانات المادية والبشرية فيها حيث يجري نهر النيل وحيث كانت بلاد مصر من أغنى البلدان الإسلامية ، فلذلك منذ وقت مبكر حاول الصليبيون منذ زمن بلدوين الأول الذي غزا مصر وتطلع إلى الاستيلاء عليها ، ثم الجهود التي بذلها عموري الأول للاستيلاء على مصر إلا أن نور الدين فاز بها في نهاية المطاف وأصبحت ضمن الجبهة الاسلامية المتحدة لذلك اتجه تفكير الصليبيين بأنه لا يمكن لهم الاستيلاء على بيت المقدس مرة أخرى ودوام استعمارهم لبيت المقدس وبلاد الشام إلا بالسيطرة على مصر ، لذلك كان قرار مجمع اللاتيران الكنسي الذي حضره أكثر من الف وثلاثمائة من المطارنة وكبار الأساقفة والأمراء ومندوبي الملوك أن اتخذ القرار برئاسة انوسنت الثالث أن تكون وجهة الحملة مصر فلذلك كان لا بد من أن تتخذ الحملة أو تعبر عن طريق البحر

للوصول إلى مصر ، كان – كما أشرنا – أول من نهض للقيام بتلك الحملة هو اندريه الثاني ملك هنغاريا ، طبعًا هنغاريا التي تشمل بلاد المجر، فجاء بجيشه ، وكان لا بد له من توفير السفن ، ولم يكن يملك سفنًا في ذلك الحين فاتصل بالبندقية ، فالبندقية كما قلنا من أكبر المدن التجارية التي لديها أساطيل كبيرة ، أساطيل وسفن في حوض البحر الأبيض المتوسط ، كذلك جنوة وبيزا هذه المدن في ايطاليا التي كان لديها أساطيل وكان انوسنت الثالث قد قام برحلة لإصلاح ذات البين بين جنوة وبين بيزا ذلك ان خلافات كانت بينهما حتى تتوحد جهودهما الصليبية ، وطبعًا تلك المدن التجارية كما أشرنا لكم منذ اللقاء الأول أو المحاضرة الأولى انها اشتركت في الحروب الصليبية وكانت دوافعها الاقتصادية مقدمة على دوافعها الدينية لذلك فإن اندريه الثاني ملك هنغاريا اتصل بالبندقية وحتى يحصل منها على السفن التي تنقله وجيوشه إلى بلاد الشام تنازل للبنادقة عن ميناء زارا التي انتزعها البنادقة بمساعدة الصليبيين من المجريين زمن الحملة الصليبية الرابعة وقبل ذهابها إلى القسطنطينية عام ٥٩٨هجرية / واتفق معهم على نقله إلى بلاد الشام فوفرت البندقية السفن لاندريه الثاني مقابل مبلغ ، حسب حجم السفن التي ستنقل جيشه وكان معه عدد كبير ، ارتحل هو وطلائع جيوشه وكان معه زهاء خمسة عشر ألف مقاتل ، بقية جيشه وعدده ثلاثين ألف مقاتل وصل فيما بعد ليشارك في الحملة الصليبية الخامسة ، أيضًا قام واشترك بتلك الحملة ليوبولد السادس دوق النمسا وتسمى في تلك الحين استريا ، كما شارك ملك قبرص هيو الأول في تلك الحملة ، ووصلت الحملة إلى عكا التي كان ملكها في ذلك الحين هو جان دي بريين أو حنا دي بريين الذي كان ملكًا على بيت المقدس عندما تزوج ماري ابنة ايزابيل ابنة عموري الأول ، بعد ذلك ماتت ماري هذه ولكنه خلف منها بنتًا هي يولاند كما أشرنا فيما سبق ، فأصبح هو الوصي على ابنته الصغيرة ريثما تكبر وتتزوج ويصبح زوجها ملكًا لبيت المقدس فكانت ابنته يولاند

هي الوريثة الشرعية في نظرهم لمملكة بيت المقدس ، وإن كانت مملكة بيت المقدس ليست في ايديهم في ذلك الحين ، لكن اعتبروا بأنها ستعود وان عكا هي التي تمثل مملكة بيت المقدس في ذلك الحين على أية حال وصل الزعماء الصليبيون الثلاثة اندريه الثاني ملك هنغاريا و ليوبولد السادس دوق النمسا وفيليب ملك قبرص وصلوا إلى عكا ثم اجتمعوا بجان دي بريين وأيضًا جاء إلى عكا امير طرابلس وانطاكية بوهيموند الرابع كذلك اسقف عكا جاكيوس دي فتري الذي عين اسقفًا على عكا وحضر مجمع اللاتيران وكان له دور في الدعوة للحملة الصليبية في اوربا وجاكيوس دي فتري هذا يعتبر من أوائل المنصرين الذين أخذوا يتطلعون إلى نشر النصرانية بين المسلمين لذلك نجده في هذه الحملة الحملة الصليبية الخامسة يمارس دوراً تنصيرياً ويقوم بتنصير الأطفال المسلمين ويدعو إلى النصرانية بين المسلمين الخاضعين لنفوذ الصليبيين ، فعقد الصليبيون مجمعًا حربيًا في مدينة عكا والهدف معروف وهو الاتجاه إلى مصر إلا انه في ذلك الحين لم يكن لدى الصليبيين من السفن ما يستطيع نقل جيوشهم بالكامل إلى مصر وما يحتاجونه من مؤن فاتخذوا قراراً بمهاجمة بعض المناطق الاسلامية في بلاد الشام كنوع من التمويه لصرف نظر الدولة الأيوبية برئاسة السلطان العادل عن الهدف الحقيقي وهو الاتجاه إلى مصر . على أية حال قرروا مهاجمة بعض المناطق الاسلامية فاتجهوا جهة نحو بيت المقدس والمناطق المحيطة بها من الشمال خاصة بيسان ونابلس أما بيت المقدس في ذلك الحين فلم يتخذوا قراراً بمهاجمتها ذلك أن بيت المقدس منذ السلطان صلاح الدين جرى – كما هو معروف – تحصينها تحصيناً جيداً وقام صلاح الدين بتدمير مصادر المياه المحيطة ببيت المقدس فكانت المشكلة التي ستواجه أي جيش صليبي يأتي لحصار بيت المقدس هي نقص المياه . عند ذلك جاء الصليبيون واندفعوا من عكا للاغارة على المناطق الاسلامية الواقعة إلى الشرق . غير أن السلطان العادل كان في مصر في ذلك

الحين فخرج على عجل من مصر ولم يكن معه إلا جيش صغير ، إذ المعروف حسب نظام الاقطاع الحربي ان الدولة الأيوبية مقسمة إلى اقطاعات ومناطق بين القادة والأمراء فكل أمير في منطقة أو قلعة أو مدينة يتولى أمرها ومعه جيشه الخاص الذي يعتني بتلك المنطقة ويستثمرها لكن في وقت الحرب ووقت الطوارئ يُقدِّم الخدمة الحربية للسلطان ، فكان السلطان العادل يحتاج لوقت حتى يراسل قادة الدولة وامرائها ليأتوا بجيوشهم إليه ، فخرج في جيشه الصغير ، جيشه الخاص من مصر ووصل إلى فلسطين وصعد على تلة قريبة من مدينة بيسان فرأى الجيش الصليبي وعدده أكثر من خمسة عشر ألف مقاتل فعند ذلك وجد أنه لا يستطيع مواجهته ، فلو واجهه في معركة غير متكافئة ستحل الهزيمة به وبجيشه الصغير وهو السلطان ، ولا شك أن هزيمة السلطان في المعركة سيكون نكسة على الجبهة الاسلامية برمتها ، لذلك تحاشى الاصطدام مع الصليبيين وقرر الصعود من المنطقة الشمالية من فلسطين من بيسان نحو دمشق كما أرسل إلى والي دمشق يطلب منه تحصينها . لما مشى مندفعًا من أمام الصليبيين متحاشيًا مواجهتهم ، يذكر المؤرخون ان ابنه المعظم عيسى ، وكان في ذلك الحين مرابطًا في نابلس ، فسأله ابنه بالعجمية يعني بالكردية إلى أين ، فأجابه والده بالعجمية قال اقطعت الشام مماليكك وتركت أولاد الناس الذين يعودون إلى الأصول فبمن أقاتل ؟، أي ليس لديه الجيش اللازم ، المعظم كان واليًا على الشام واقطع الكثير من المناطق المهمة لبعض مماليكه ولم يقطعها للرجال المحاربين العسكريين المتمرسين حتى يقدموا الخدمة السريعة للسلطان ، فعند ذلك وصلت رسالة الملك العادل إلى والي دمشق فاخذ يعمل على تحصينها ونقل غلة داريا ، وداريا إحدى قرى دمشق الزراعية الواقعة في الغوطة ، غوطة دمشق ، نقل الغلة ، والغلة المقصود بها القمح والشعير والحبوب التي يحصلها الناس في غوطة دمشق فنقلها إلى داخل دمشق وشرع في تحصين مدينة دمشق لأن الصليبيين اتخذوا قراراً

بمهاجمة المناطق الشرقية بما فيها نابلس وبانياس ودمشق ، فخشي العادل على دمشق ، أما عامة الناس في القرى المحيطة بدمشق لما رأوا الوالي ينقل الغلة إلى داخل دمشق ويقوم بهدم السدود الصغيرة الواقعة على نهر بردى لاغراق الغوطة غوطة دمشق ليصبح من المستحيل على الصليبيين أن يحاصروا دمشق من الجهة الغربية فيضطرون إلى أن يحاصروها من الجهة الشرقية في الصحراء بعيداً عن المياه ، وهذا سيؤدي إلى فشل الحملة كما فشلت الحملة الصليبية الثانية . خاف الناس من سكان القرى فأدخلوا أهلهم وذراريهم إلى دمشق مما أدى الى ارتفاع الغلاء وخاف الناس وضج الناس في المساجد يقنتون وتوقعوا البلاء من الصليبيين . يذكر المؤرخون ان السلطان العادل عندما أخذ يصعد نحو الجولان من هضبة فيق أو أفيق رأى شيخًا وعلى ظهره حملاً – أي يحمل متاعه – فخرج العادل من جيشه وذهب إلى ذلك الشيخ وسأله قال يا شيخ لا تعجل على نفسك فعرفه فقال يا سلطان المسلمين أنت السلطان إذا رأيناك تعجل فمن باب أولى أن نعجل نحن ، يعني إذا كنت وأنت السلطان تفر من بين يدي الصليبيين فمن باب أولى أن نعجل نحن ، وكان العادل في قلة من العساكر وكان شديد الحذر محنكًا وداهية ولديه تجارب كثيرة لا يمكن أن يشتبك بجيش مكون من فرقة صغيرة مع جيش كبير يؤدي إلى هزيمته مما سيكون له أسوأ الأثر على الجبهة الاسلامية بكاملها ، على أية حال ، وصل إلى خارج دمشق وعسكر في مرج الصفر وأرسل إلى سائر المدن والقلاع في بلاد الشام والجزيرة يدعو القادة والأمراء للقدوم إليه بجيوشهم حتى يتمكن من مواجهة الصليبيين ، كان أول الأمراء وأقربهم وصولاً إلى دمشق هو المجاهد أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه وكان هذا هو أمير حمص فجاء بجيشه الذي يبلغ سبعمائة من الفرسان ، لما رأى أهل دمشق ذلك الجيش داخلاً إلى دمشق اطمأنوا ورحبوا به ، ويذكر المؤرخون أن دخول المجاهد إلى دمشق كان يومًا مشهودًا ، ثم بعد ذلك ذهب إلى عمه العادل فأقام عنده في مرج

الصفر ، وأخذت الجيوش تتوالى بالوصول إلى العادل ، على أية حال خلال ذلك الوقت الذي تقدم فيه الصليبيون ، استغل العادل وصول العساكر وأرسل بعض النجدات إلى ابنه المعظم عيسى الذي كان مقيماً في عسكره الخاص في نابلس وطلب منه ارسال النجدات لتدعيم الدفاع عن بيت المقدس .

فوصل الصليبيون إلى بيسان عام ٦١٤هجرية في شهر شعبان من ذلك العام ١٢١٧ميلادية ، وكان في بيسان في ذلك الحين سوق دوري وقد سمعتم بالأسواق الدورية مثل ما هو موجود في اليمن وفي عسير وفي الجنوب مثل سوق الثلاثاء وسوق السبت وسوق الخميس ، أسواق دورية معروفة في البلاد الإسلامية وكان هناك سوق دوري في بيسان وكان ذلك في آخر اسبوع من شهر شعبان ، والمعروف انه قبل المواسم الدينية والعيدين يهتم الناس ويتزودون بما يحتاجونه والناس يذهبون إلى الأسواق بكل ما لديهم من محاصيل ومواشي ، وكان قد اجتمع في ذلك السوق شيء كبير من المؤن ومن السلع ومن المواشي والأغنام ، فوصل الصليبيون واقتحموا بيسان واستولوا على ما جمعه المسلمون في ذلك السوق، ويذكر المؤرخون بأنهم نهبوا ما لا يعلمه ولا يحصي عدده إلا اللّه بالكامل من سلع ومن مواشي فاستاقوها وقتلوا كثيراً من الناس ، فمن فر نجا ومن وقع في أيديهم أخذوه أسيراً ، وامتدت غاراتهم إلى منطقة السواد المحيطة بالمنطقة ، (السواد معروفة هي القرى أي الريف ، تسمى السواد ، المناطق الزراعية تسمى السواد ، المناطق المحيطة بالمدن) فأغاروا على منطقة طبريا وحاصروا نابلس عدة أيام ثم عادوا إلى عكا وأيديهم ملآنه بالغنائم ، غنائم لا حصر لها من المواشي والأغنام ومن السلع ومن كل ما جمعه المسلمون في تلك الأسواق ، وأيضاً عدد كبير من الأسرى وخاصة الأطفال ، يذكر المؤرخون انهم عندما عادوا نحو عكا قام أسقف عكا جاكيوس وراؤول بطريق بيت المقدس فقاما بتعميد الأطفال المسلمين ، أي تنصيرهم ، التعميد كما شرحنا لكم هو أن يأتي القسيس

في الكنيسة ويغمس الطفل في ذلك الماء الذي يضع فيه ماء وملحاً وزيتاً ويغمسه فيه ويقول تؤمن بالأب والابن والروح القدس فوالداه يقولان نعم بذلك يصبح نصرانياً فقام أسقف عكا جاكيوس وبطريق بيت المقدس راؤول بتعميد الأطفال الصغار المسلمين . طبعاً هذا يكشف أن الحروب الصليبية أصبحت منذ ذلك التاريخ أو منذ أوائل القرن السابع الهجري أصبحت تتصف بطابع تنصيري ، أي أصبح الطابع التنصيري دافعاً من دوافع الحروب الصليبية ونتيجة من نتائج تلك الحروب ، بعد ذلك كل الحملات أتت ومعها منصرين يهدفون إلى تنصير المسلمين . بعد ذلك لما عادوا إلى عكا قرر جان دي بريين مهاجمة قلعة الطور ، قلعة الطور كما قلنا لكم تقع على جبل الطور في شمال فلسطين الحالية بناها المعظم ، واستمر يبنيها أكثر من سنة وكان بناؤها سبباً في مجيء الحملة الصليبية الخامسة أو كان من ضمن الأسباب ذلك أن جان دي بريين بعث للبابا انوسنت الثالث يشرح له خطورة بناء قلعة الطور وأنها تشرف على عكا وعلى ممتلكات الصليبيين بحيث لا يستيطعون التحرك إلا تحت نظر المسلمين فعند ذلك قرر الصليبيون بقيادة جان دي بريين الاستيلاء على حصن أو قلعة الطور ، يذكر المؤرخون أنهم استغلوا ظروف الطقس في أحد الأيام ولم تشعر حامية قلعة الطور بالصليبيين في يوم كان كثير الضباب إلا وهم يحاصرونها ، في الأيام العادية يستيطعون اكتشافهم قبل أن يصلوا ، وفي ذلك اليوم جاء فيه ضباب كثيف فما شعر رجال الحامية إلا والصليبيين قد وضعوا رماحهم على أسوار القلعة ، كان ذلك في اليوم الثاني من رمضان عام ٦١٤هجرية ، لكن رجال الحامية خرجوا وقاتلوا الصليبيين قتالاً باسلاً حتى أجلوهم عن أماكنهم وطبعاً المسلمون في القلعة كانوا مرتفعين فقذفوهم بالسهام وبقوارير النفط وبالاحجار حتى أجلوهم خارج أسوار الحصن وهم أعلى منهم فقاتلوهم حتى أبعدوهم وقتل عدد من زعمال الصليبيين كما تكبد رجال الحامية خسائر أيضاً وحاول الصليبيون بعد ذلك في

الرابع من رمضان اقتحام القعلة مرة أخرى فيذكر المؤرخون أنهم صنعوا سلمًا كبيرًا من الخشب بحيث يمكن الصعود عليه إلى أعلى أسوار القلعة فوضعوه على القلعة وبدأوا بالصعود إلا أن المسلمين كافحوهم كفاحًا بطوليًا وتمكن أحد الزراقين المتخصصين في النفط من رجال الحامية بأن يحرق ذلك السلم بقارورة نفط وبعد أن أحرقه فشلت تلك المحاولة وقاتل المسلمون حتى اضطر الصليبيون في سادس رمضان للانسحاب عن قلعة الطور وتركها على حالها . بعد ذلك جاء المعظم وصعد للقلعة وحيا رجال الحامية الذين دافعوا واستماتوا في الدفاع عنها ، لأنهم لو استسلموا للصليبيين لقتلهم الصليبيون ولما أبقوا على حياتهم فشكرهم على ذلك ووزع عليهم المكافآت والخلع والملابس واحتفظ بقلعة الطور مؤقتًا . على أية حال بعد ذلك أخذ العادل يرسل النجدات إلى بيت المقدس وفي نفس الوقت بعدما فشلوا أمام قلعة الطور عند ذلك قام ابن أخت ملك هنغاريا اندريه الثاني وابن اخته هذا يسمى ديونيس أراد أن يقوم بغارة في منطقة صيدا فنصحه حاكم صيدا الصليبي بأن لا يهاجم المنطقة الجبلية الواقعة شرقي صيدا تلك المنطقة التي تسمى حاليًا منطقة جزين وهي جبلية وسكانها معروف انهم محاربون أشداء ، (دائمًا سكان الجبال يتميزون بالقوة والشراسة) نصحه بالامتناع عن مهاجمة ذلك الاقليم الجبلي الذي يشمل جزين ومنطقة الشقيف ولكن ديونيس أصر ، استهوته الغنائم التي حصل عليها الصليبيون من منطقة بيسان وما حولها ، فخرج ومعه خمسمائة من فرسان الصليبيين وتوغلوا في الاقليم الجبلي الواقع خارج صيدا أو شرق صيدا ووصل الصليبيون إلى قرية تسمى قرية الميادنة وكان أهل تلك القرية محاربون أشداء فانسحبوا من القرية إلى أعالي الجبال ، فوصل الصليبيون ونزلوا في القرية ، نزلوا ليستريحون ، فانقض عليهم سكان القرية وأخذوهم قتلاً وأسرًا وقتل ديونيس وفلول منهم فرت على وجهها لا تلوي على شيء إلى أن وصلوا في أحد الشعاب فوجدوا رجلاً مسلمًا يذكر

المؤرخون ان اسمه الجاموس فطلبوا منه أن يدلهم على الطريق إلى صيدا فقال لهم أنا أوصلكم في طريق إلى صيدا ، قالوا ان أوصلتنا سالمين أغنيناك ، فسار بهم ذلك الرجل الذي يدعى الجاموس في طرق وعرة ووقعوا أيضًا بين سكان الجبال فقتلوهم ، عند ذلك شعروا بأن الجاموس غرر بهم فقتلوه ولم ينج منهم سوى ثلاثة أشخاص ، عادوا إلى صيدا ، أما بقية تلك الفرقة الصليبية وعددها خمسمائة فقد قُتلوا وأُسروا وجيء بالأسرى منكسة أعلامهم إلى دمشق وكان يومًا مشهودًا . على أية حال ، أما أندريه الثاني ملك هنغاريا فقد شعر أنه وفىّ بقسم والده وأن الظروف تستدعي عودته فقرر العودة إلى بلاده رغم أن راؤول بطريق بيت المقدس هدده بأن يوقع عليه قرار الحرمان ولكنه ما استجاب لذلك التهديد فعاد إلى بلاده ، كما مات هيو الأول ملك قبرص ، وجمد الموقف في بلاد الشام ولم يبق إلا ليوبولد السادس دوق النمسا وجان دي بريين فأخذ ينتظر وصول الحملة الصليبية الكبرى التي قدمت والتي كانت في طريقها إلى الشام ، كانت الحملة التي جاء بها اندريه الثاني وهيو صاحب قبرص كانت الطليعة الأولى للحملة الصليبية الخامسة ، ثم ان اندريه عاد إلى بلاده بعسكره ذلك الذي كان من خمسة عشر ألف إلا أن جيشه الرئيسي الذي يعادل ثلاثين ألف فقد وصل بعده ، لأنه لم يأت معه في المرة الأولى لعدم توافر السفن اللازمة ، واستأجر سفنًا من البندقية لكن البندقية كانت سفنها وأساطيلها مشغولة فيها تجارة في حوض البحر الأبيض المتوسط وكانت تحتاج إلى الوقت لكي تعود السفن وتحمل بقية المحاربين فاندريه ملك هنغاريا عاد إلى بلاده وفي نفس الوقت وصل الجيش الرئيسي وعدده ثلاثين ألف إلى عكا لينضم إلى جان دي بريين ووصلت أيضًا حملات أخرى من الاسكندنافيين ومن الفلمنكيين ومن شمال أوربا بحيث وصل الحشد في عكا إلى عدد كبير جدًا بالاضافة إلى ان السفن توفرت وأصبح لدى الصليبيين عدد من السفن التي تجمعت ثم رحلت بعد ذلك ونزلت في دمياط .

اتفقت المصادر الغربية المعاصرة للحملة على أن عدد السفن يتراوح ما بين ستمائة إلى ستمائة وخمسين سفينة ، هذا عدد ضخم ، فعند ذلك قام جان دي بريين وقاد تلك الحملة التي اتجهت بحراً ولم تتجه براً لأن طريق البر كانت تعترضه عسقلان وهي في ذلك الحين في أيدي المسلمين فقرر أن يذهب عن طريق البحر ليستولي على دمياط ومنها يتقدم إلى مصر ، طبعًا من الناحية البحرية كان لا يمكن غز مصر إلا من ثلاثة أماكن إما من ميناء الاسكندرية فهذا صعب وبعيد جداً ، أو من ميناء الرشيد وهذا أسهل للصليبيين ولكنه أيضًا بعيد ، أو من دمياط التي كانت قريبة من عكا وقريبة من قبرص ويمكن أن تتلقى الامدادات والمؤن، فوصل الجيش الصليبي ، ولو نظرتم في الخارطة تجدون المكان الذي نزل فيه الصليبيون ، ذلك انهم وصلوا وكانت مدينة دمياط تقع عند مصب نهر النيل ، ونهر النيل يتفرع إلى فرعين رئيسين هما فرع رشيد وفرع دمياط ، فيصب فرع دمياط في البحر الأبيض المتوسط وتقع مدينة دمياط عند المصب وإلى الغرب من دمياط يفصل دمياط عن نهر النيل مكان يسمى جيزة دمياط ، وهذا منطقة برية صالحة أن يقيم فيه المعسكر فنزل الصليبيون في جيزة دمياط وعند ذلك علم الكامل بنزول الصليبيين والكامل هو محمد ابن السلطان العادل فجاء بجيشه ورابط في جنوب دمياط في مكان عرف باسم العادلية جنوب مدينة دمياط ، نزل الصليبيون وكانوا يحتاجون الوقت حتى يرتبوا أمورهم خوفًا من أن يهاجمهم المسلمون فقاموا ببناء سور حول معسكرهم وحفروا خندقًا ووضعوا الستائر للدفاع عن معسكرهم ، ثم أقاموا بعد ذلك ، وكان نزولهم عند دمياط في آخر ربيع الأول ٦١٥هجرية / مايو ١٢١٨ ميلادية . وقبل مسيرهم من عكا هناك حادثة يجب أن نشير إليها لأنها مهمة جداً تبين مدى الحقد الصليبي النصراني وانهم كما أشرنا لكم في تعريف الحروب الصليبية إنما كان هدفهم الرئيسي القضاء على الإسلام والمسلمين ، لذلك بعث الصليبيون وهم يحتشدون في عكا برسالة

إلى ملك الحبشة النصراني يطلبون منه أن يهاجم بلاد الحجاز من الجنوب ويذهب إلى مكة لهدم الكعبة ، لأنهم كانوا يتوقعون الاستيلاء على مصر وإذا هدمت الكعبة ، وهي رمز الاسلام وقبلة المسلمين سيكون هذا كارثة على العالم الإسلامي وسيؤدي إلى انهيار العالم الاسلامي وانهيار مقاومة المسلمين . وطبعًا هذا يكشف الهدف الحقيقي للحروب الصليبية ذلك أنهم يهدفون إلى استئصال شأفة المسلمين، وأيضًا كما قلنا أن الحملة كان معها بعض المنصرين منهم جاكيوس دي فتري وكان تحويل المسلمين إلى النصرانية هدفهم ، طبعًا هذا يبين مدى التعصب ضد المسلمين منذ الفتوحات الإسلامية الأولى التي فتحت بلاد نصرانية كثيرة لم يهدم المسلمين معابدهم ولم يتعرضوا لرموزهم الدينية بشيء وهذا يبين مدى التعصب الذي كان يعتلج في نفوس أولئك الصليبيين . على أية حال لما نزل الصليبيون عند دمياط وأقاموا معسكرهم في جيزة دمياط عند ذلك أخذوا يهاجمون برج السلسلة وهذا البرج برج مقام في وسط مجرى نهر النيل في قبالة مدينة دمياط ، وهذا البرج أقيم في مجرى النهر ولكنه أقرب إلى الضفة الغربية ، ضفة النهر الغربية ، وكان هذا البرج مكون من عدة طوابق وكان فيه سلاسل ممتدة تمتد إلى برج آخر بأسوار دمياط ، هذه السلاسل ضخمة جداً ، يذكر المؤرخون ان وزنها كان مائة وثلاثين قنطاراً ، والقنطار يعادل نحو ٩٧ كيلو ، هذا يبين ضخامة السلسلة ، السلسلة حلقاتها ضخمة جداً ليست سلسلة عادية لأن السلسلة العادية ممكن السفينة تصدمها وتقطعها و،تحطمها وتعبر ، فكانت هذه السلاسل وهذا البرج يسميه المؤرخون قفل الديار المصرية ، ذلك أنه تشد تلك السلاسل من البرج إلى البرج الآخر وعند ذلك يستحيل على السفن أن تعبر في نهر النيل . عند ذلك واجه الصليبيون معضلة وهي كيفية ادخال سفنهم إلى النهر وكان لا بد لهم من مهاجمة برج السلسلة في وسط النهر للاستيلاء عليه حتى يمكن تنزيل تلك السلاسل إلى القاع وعند ذلك تعبر سفنهم بأمان وعند ذلك تعبر سفنهم بأمان ، ويجري حصار

دمياط والاستيلاء عليها ثم التقدم داخل البلاد ، عند ذلك ظل الصليبيون يهاجمون برج السلسلة شهرين كاملين ، هجمات شديدة والحامية داخل البرج دافعت دفاعًا مستميتًا وصدوا كثير من هجمات الصليبيين ، والصليبيون لجأوا إلى أساليب كثيرة منها إقامة عدد من السفن ثلاث أو أربع وربطها في بعضها ويُبنى عليها برج مثل القلعة وتقرب إلى جانب البرج ليقاتلون المحاصرين داخل برج السلسلة وظل الصليبيون يهاجمون برج السلسلة زهاء شهرين كاملين وحاميته تدافع عنه دفاعًا مستميتًا .

خلال ذلك : كان العادل مرابطًا في مرج الصفر وكانت تأتيه النجدات من الجزيرة ومن مدن الشام وكان يرسل تلك الفرق إلى ابنه محمد الذي كان مرابطًا في العادلية جنوب دمياط لمكافحة ومواجهة الصليبيين ، من ضمن تلك الاجراءات التي اتخذها العادل انه طلب من ابنه المعظم عيسى أن يهدم قلعة الطور ، وقال ان هذه القلعة هي سبب مجيء هذه الحملة . طلب منه أن يهدمها ويسويها بالأرض حتى يستفيد من حاميتها في أن يرسلها إلى أخيه الكامل في مصر ليستفيد من رجال تلك الحامية في القتال ضد الصليبيين ، تلكأ المعظم في البداية لأنه عزّ عليه هدم تلك القلعة التي بناها وأنفق عليها أن يسلمها أو يدمرها بكل سهولة لكن والده استرضاه بالمال ووعده ببعض الاقطاعات في مصر ، عند ذلك قام بهدم أسوار وأبراج تلك القلعة ، قلعة الطور المهمة ونقل ما فيها من أسلحة ومن ذخائر إلى بيت المقدس وإلى الكرك والشوبك وعجلون وصفد ثم أرسل حامية القلعة إلى مصر لمساعدة الكامل ضد الحملة الصليبية التي تريد الاستيلاء على مصر .

على أية حال بعد شهرين كاملين تمكن الصليبيون من الاستيلاء على برج السلسلة كان ذلك في ٢٩ جمادى الأول سنة ٦١٥هجرية ، وهذه كارثة حلت بالمسلمين ، الخبر أرسل إلى السلطان العادل ، ذهب به صدر الدين ابن شيخ

الشيوخ ووصل الخبر إلى الشام ، وذكر المؤرخون ، أن السلطان العادل تأثر بذلك غاية التأثر ، (والسلطان العادل كما هو معروف مقاتل قديم عاصر أخاه صلاح الدين وكان يعرف نقاط الضعف والقوة عند الصليبيين ويعرف ان هذا البرج يعتبر قفل للديار المصرية) فلما سمع بسقوط البرج بأيدي الصليبيين ، يذكر المؤرخون أنه مجرد ما وصله الخبر دق بيده على صدره المًا وجزعًا فمرض ومات بعد ثلاثة أيام ، مات كمدًا بسبب سقوط البرج ، أبو شامة المؤرخ المعروف صاحب كتاب الروضتين في أخبار الدولتين كتب في تاريخه يقول (وكان طالبًا شابًا في ذلك الحين) ، قال : (سمعت شيخنا أبو الحسن السخاوي لما وصل الخبر بسقوط برج السلسلة وقد شق ذلك على الناس وتألموا له فرأيت شيخنا يضرب يدًا بيد على ذلك الخبر الذي وصل وسمعت الفقيه عز الدين بن عبد السلام يسأل شيخنا أبو الحسن السخاوي عن أهمية ذلك البرج قال له : والله يا بني انه قفل الديار المصرية) ، قال – يقول أبو شامة : فوالله لقد صدق فقد زرت ذلك البرج عام ٦٢٨هجرية ، (أي بعد ١٢ سنه) فوجدته متلما قال شيخنا ، فعلاً فيه سلاسل هي قفل الديار المصرية ، إذا أقفل لا يستطيع أي مركب أن يدخل لكن إذا نزلت السلسلة تستطيع المراكب ان تصل إلى القاهرة وإلى قوص وإلى أسوان في أقصى الصعيد . فكان قفل الديار المصرية كما ذكر المؤرخون فبذلك ساء موقف المسلمين بسببين ، السبب الأول سقوط برج السلسلة والسبب الثاني ما ترتب عليه من موت السلطان العادل ذلك ان السلطان العادل كان عمره حينذاك ٧٥ سنة ، ولكن السلطان العادل كان صاحب حنكة وصاحب خبرة لو بقي على قيد الحياة لكان له الرأي القيم في الجهاد والنضال ضد الصليبيين ، على أية حال بعد ذلك ، لما مات السلطان العادل ، كان معه صديقه كريم الدين الخلاطي فأرسل على عجل إلى ابنه المعظم عيسى الذي كان مرابطًا في نابلس خوفًا من الصليبيين فعاد مسرعًا إلى دمشق ودفن أبوه سرًا حتى لا يعلم الناس ثم رتب أمور الدولة في

الشام واستولى على الأموال والخزائن التي خلفها والده ثم أرسل بعد ذلك يخبر بقية ملوك بني أيوب وأخيه الأكبر الكامل محمد يخبره بما حدث من موت والده ، فالمسلمون تعرضوا لكارثتين متعاقبتين سقوط برج السلسلة وأيضًا موت السلطان العادل ، كان العادل محنكًا بدليل أنه ، قبل موته طلب من ابنه الآخر الأشرف موسى (وكان واليًا على الجزيرة كان يتولى مناطق الجزيرة وهي الرها وحران والخابور والمناطق التي في الجزيرة فهو كان يدير الممتلكات الأيوبية في الجزيرة) ، طلب منه ، أن يضغط على الصليبيين في شمال الشام مثلما فعل نور الدين عندما كان عموري يتنافس مع نور الدين في الاستيلاء على مصر وعندما كان عموري يقوم بحملاته الأربع على مصر كان نور الدين يهاجم الصليبيين في المناطق الشمالية حتى يخفف الضغط عن قواته في مصر فكذلك أشار العادل قبل موته على الأشرف موسى ان يهاجم الصليبيين في شمال الشام فجاء الأشرف موسى وهاجم قلعة مهمة كان يتولاها فرسان الداوية تسمى قلعة صافينا في جبال العلويين جبال النصيرية الحالية ثم خرب ما حولها من حصون ثم تقدم بعد ذلك وهاجم حصن الأكراد وهو من أهم الحصون التي يتولاها فرسان الاسبتارية في شمال الشام ، وخرب ما حول حصن الاكراد ، وكاد أن يستولي على حصن الأكراد لولا حدوث ظرف داخلي داخل الأمة الإسلامية أدى الى ان استنزاف جزء من القوات الأيوبية ذلك أنه في هذا الوقت الذي كانت الحملة الصليبية تهدد المسلمين في مصر جاء خبر من داخل بلاد المسلمين ، ففي ذلك الوقت بالذات قام سلطان سلاجقة الروم في آسيا الصغرى وهو سلطان مسلم اسمه عز الدين كيكاوس بن كيخسرو بن قلج ارسلان الثاني جاء بحملة يريد ان يستولي على حلب في شمال الشام ، يريد الاستيلاء على حلب مستغلاً الأفضل نور الدين علي بن صلاح الدين الذي ،جرده عمه العادل من جميع ممتلكاته وأعطاه حصن سميساط في شمال الشام ، فاستغل عزالدين كيكاوس الأفضل وراسله وتودد إليه

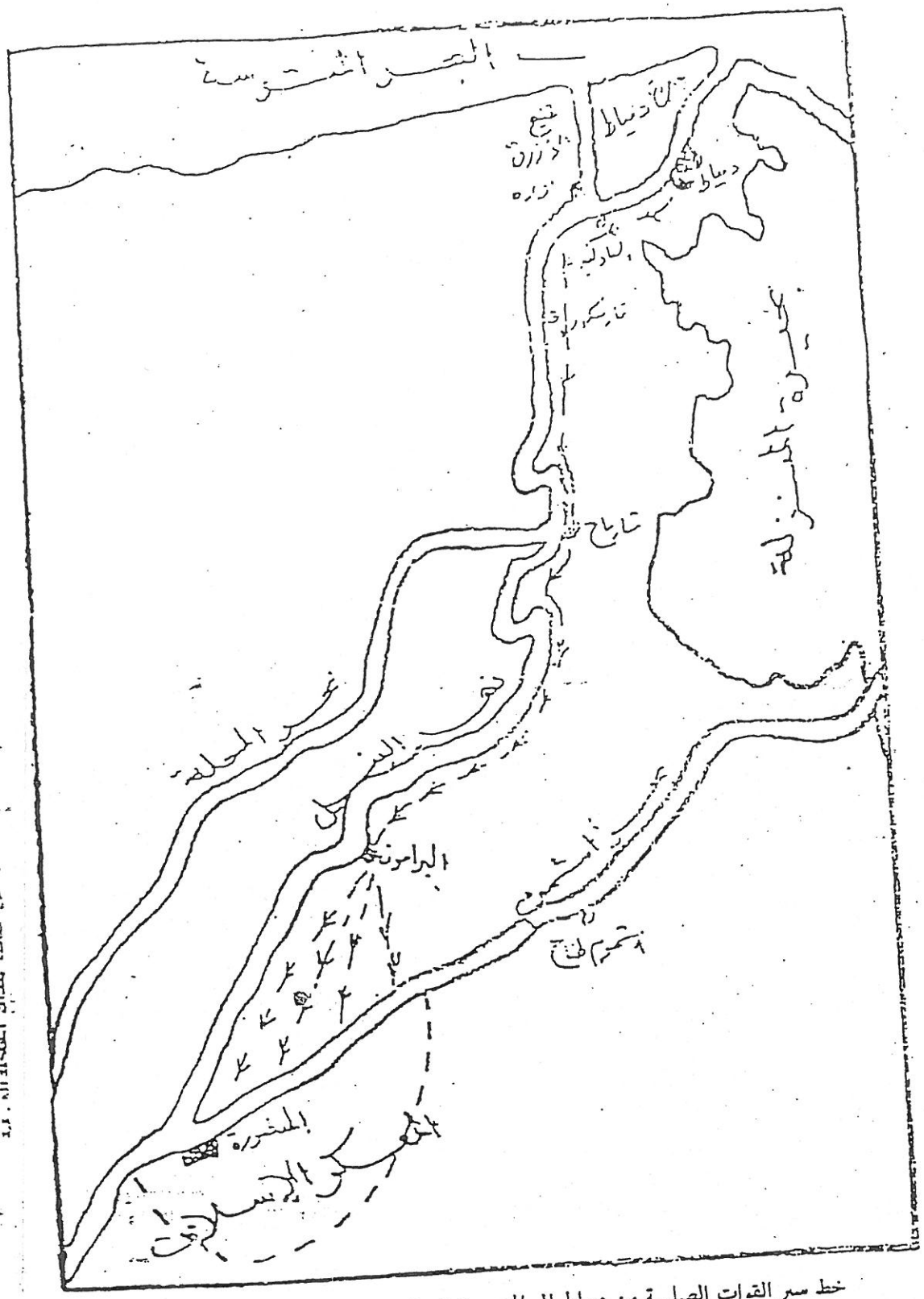
وطلب منه أن يتفق معه ويستولي عز الدين كيكاوس على حلب وما يتبعها في شمال الشام ويسلمها للأفضل على أن يقيم له الخطبة والسكة ، يريد أن يخدعه بذلك ، فوافق الأفضل على ذلك ومشى معه وسار عز الدين كيكاوس واستولى على حصن رعبان في شمال الشام التابع لحلب وسلمه للأفضل ، عند ذلك تشجع الأفضل وأرسل إلى بعض الأمراء واستمالهم إلى جانبه ومالوا إليه ، فعند ذلك أخذ يزحف واستولى على منبج وعلى تل باشر ولكن لم يسلم منبج وتل باشر للأفضل ، فشعر الأفضل أنه يعمل بذلك على هدم مملكة ابن أخيه العزيز بن الظاهر بن صلاح الدين ، والعزيز هذا هو ابن بنت العادل ، أمه كانت تسمى ضيفة خاتون بنت العادل وأخوها الأشرف ، عند ذلك أرسلت أخته وكانت الوصية على ابنها أرسلت إلى أخيها الأشرف تستنجد به لصد خطر عز الدين كيكاوس الذي كان قد حرض في ذلك الحين بعض زعماء الجزيرة للوقوف ضد الأشرف فتمردوا عليه فاضطر الأشرف إلى وقف حملته ، طبعاً هذا يبين أن عز الدين كيكاوس لم يكن على وعي كامل بالحركة الصليبية وبالحروب الصليبية التي تريد استئصال شأفة المسلمين بينما كان يفكر في أهدافه الخاصة ، كان الواجب عليه بوصفه سلطاناً مسلماً في هذا الوقت أن يوحد جهوده مع الأيوبيين لمواجهة هذا الخطر الصليبي الداهم الذي لم يوفر أي مسلم ولكنه لم يفعل ذلك ، طبعًا هذا يبين أن النزاعات بين المسلمين أحيانًا تؤدي إلى كارثة على الأمة الإسلامية . على أية حال شُغِلَ الأشرف بن العادل بسبب تلك الغزوة ، طبعًا تصدى لعز الدين كيكاوس وهزمه وبعد ذلك مات عز الدين كيكاوس ، لكن التمرد الذي أثاره عز الدين كيكاوس ضد الأشرف من قبل الزعماء في الجزيرة استمر زمنًا طويلاً وأشغل الأشرف لمدة تزيد على ثلاث سنوات لم يستطع تقديم نجدة فعالة لأخيه الكامل ، خاصة بعد موت والده واقتصرت الجهود حين ذاك على الكامل محمد وما يأتيه من مساعدات من أخيه المعظم عيسى في بلاد الشام ، على أية حال بعد ذلك

السلطان الكامل ظل يكافح الصليبيين ،الذين بعد أن استولوا على برج السلسلة أصبحت مراكبهم يمكن لها أن تعبر داخل نهر النيل عند ذلك لجأ الكامل إلى بناء جسر على النيل ، طبعًا كان معه مهندسون وكل ما كان يحتاجه الجيش من عمال و مهندسين يقومون بالعمل اللازم ، فقام المهندسون على عجل ببناء جسر على نهر النيل ليحول دون عبور السفن ، لأن الأسطول الصليبي سيشق طريقه ويدخل النهر ويدخل ومعه أكثر من ستمائة سفينة ، فقام المهندسون وبنوا جسرًا على النيل بين الضفتين حتى تمنع السفن الصليبية من العبور ، لكن الصليبيين تمكنوا من تحطيم ذلك الجسر فلجأ الكامل ، إلى طريقة أخرى لاعاقة السفن الصليبية ، فجاء بمجموعة من السفن والمراكب التابعة له وتقدم بها إلى عند المكان الذي وصلته السفن الصليبية فأمر بخرقها وأُغرقت في نهر النيل فأصبحت عائقة ، وطبعًا سفن ضخمة امتلأت بالماء من الصعب انتشالها في ذلك الحين ، عند ذلك لجأ الصليبيون إلى حيلة أخرى وهي ، أنه إذا لاحظتم الخريطة أنه يوجد إلى غرب جيزة دمياط ، يوجد مجرى قديم يسمى النهر الأزرق كان يجري فيه نهر النيل قديمًا فتحول عن هذا المكان ، فقاموا بحفره لإجراء الماء فيه فحفروه بالفعل وأجروا فيه الماء لتدخل سفنهم وجاءت عواصف وأمطار في ذلك الحين وفعلاً امتلأ ذلك المجرى بالماء ، لكن لم يكن ذلك المكان يمكن أن تدخل فيه السفن الكبيرة وخلال ذلك دمياط ظلت صامدة في ذلك الحين ، لكن حدث بسبب موت السلطان العادل أن مؤامرة داخل الجيش الاسلامي سببت كارثة مؤقتة على المسلمين . السبب في ذلك أن أحد القادة الأكراد ويسمى عماد الدين أحمد بن علي بن المشطوب كان من كبار الأكراد الهكارية ، (الهكارية قبيلة كردية تقع شمال الموصل) وكان عماد الدين ابن أحمد بن المشطوب من كبار القادة ويتبعه عدد كبير من الجيش من قبيلته الأكراد الهكارية في الجيش الأيوبي ووالده معروف هو علي بن المشطوب كان من كبار قادة صلاح الدين وشارك كما رأينا في الجهاد ، كان

هو وبهاء الدين قراقوش اللذان توليا الدفاع عن عكا زمن الحملة الصليبية الثالثة ، فنظم عماد الدين ابن المشطوب مؤامرة انقلابية بهدف عزل السلطان الكامل عن السلطنة وتولية أخيه الصغير الفائز ، لأنه رأى انه العوبة في يده يمكن أن يسيطر على الدولة من خلاله ورتب الأمر وأخذ يحبك تلك المؤامرة وسمع بها الكامل ودخل عليهم في خيمة ووجد ابن المشطوب ومعه بعض القادة والرجال وهم يحلفون على المصحف لأخيه الفائز ، فبعضهم خرج من الخيمة وأُحرج موقفهم لكن الكامل خاف أن يقبضوا عليه ، وإذا لاحظتم ان الكامل كان في معسكره في العادلية جنوب دمياط عند ذلك انسحب ليلاً من المعسكر وذهب إلى قرية تقع على أحد فروع النيل ويسمى بحر أشموم يصب في بحيرة المنزلة فوصل إلى بحر أشموم وأصبح الصباح وإذا بالسلطان ليس في المعسكر فلما سمع الجنود بذلك وأن السلطان خرج وفر فروا على وجوههم لم يبق أحد بالمعسكر، كل واحد انطلق هاربًا وتركوا المعسكر بالكامل بما حواه من أسلحة ومن أغذية ومن منجنيقات ومن آلات تركوها وذهبوا ، كان السلطان بمثابة اليعسوب ، اليعسوب إذا غاب عن النحل يتشتت النحل ، عند ذلك أخذوا يبحثون عن السلطان إلى أن وجدوه في أشموم طناح ولحق به عدد من الجنود ، طبعًا لما رأى الصليبيون في الصباح أن المعسكر الإسلامي خال من الجنود ظنوا أن في الأمر خدعة فأرسلوا فرقة من الكشافة لتنظر إلى المعسكر فلما وصلوا وجدوا المعسكر خاليًا وليس فيه إلا حرس قليل عند ذلك عبر الصليبيون إلى معسكر السلطان واستولوا عليه صفوًا عفوًا بغير قتال وجدوا معسكرًا كاملاً بما يحويه من مؤن وأغذية وسلاح وجدوه بالكامل فاستولوا عليه ، عند ذلك طوقوا دمياط وحاصروها براً وبحرًا ، ، واشتد الحصار على دمياط ، على أية حال ، خلال ذلك لم يعق الصليبيين في الاستيلاء على دمياط سوى الظروف الخاصة التي حدثت داخل المعسكر الصليبي ، ذلك أنه بعد سقوط برج السلسلة بعض الصليبيين عادوا إلى أوربا ، إلا أنه وصلت حملات أخرى من

أوربا كان معها مندوب من قبل البابا يسمى بيلاجيوس ، المندوب البابوي بيلاجيوس ، لما جاء كان مجيئه كارثة على الصليبيين لأنه دخل في نزاع مع جان دي بريين واعتبر نفسه القائد الأعلى للحملة الصليبية وأنه يمثل البابوية والنزاع هذا كان له أثر فيما بعد على فشل الحملة الصليبية بكاملها كما سنرى . عند ذلك بيلاجيوس ادعى أنه هو الذي يتولى أمر الحملة وليس جان دي بريين باعتباره وصياً على مملكة بيت المقدس ، على أية حال الكامل ، تلك الكارثة التي نزلت به وبجيشه ومعسكره وقع بيد الصليبيين لم ينقذه منها إلا أخاه المعظم ، المعظم جاء لنجدته من الشام ووصل إلى أشموم طناح واستقبله الكامل وأخبره بالمؤامرة التي حاك خيوطها ابن المشطوب عند ذلك أقسم المعظم عيسى أن لا ينزل عن فرسه حتى ينفي ابن المشطوب وذهب إلى خيمته وطلب منه أن يركب معه واستدرجه إلى أن أخرجه من المعسكر وأصر عليه أن يرحل إلى الشام ، حاول أن يأخذ غلمانه واغراضه فرفض وأرسله إلى الشام مخفوراً ووصل إلى حماه واستقبله صاحب حماه ، لكن في حماه كان فيه أكراد هكارية انضموا إليه ولحق به بعض أتباعه فخرج من حماه وأغار على ريف حلب مما جعل الأشرف يأتي إليه وأنزل به الهزيمة وأسره ثم أطلق سراحه وأرسله إلى الجزيرة وأقطعه بعض الاقطاعات في الجزيرة إلا أنه عاد وتمرد في الجزيرة وأسهم في اشغال الأشرف وقت من الأوقات حتى قبض عليه الأشرف واعتقله بسنجار . على أية حال بعد ذلك لما جاء المعظم عيسى واطمأن الكامل بوجود أخيه معه أعاد تنظيم صفوف جيشه من جديد ثم عبر مرة أخرى وعسكر في مكان ، لو لاحظتم الخريطة يسمى فارسكور جنوب معسكر العادلية الذي وقع بيد الصليبيين ، على أية حال أحاط الصليبيون بدمياط براً وبحراً حاصروها حصاراً شديداً ؛ بعد أن قدم المعظم المساعدة لأخيه وتم تنظيم الجيش الأيوبي وعاد بعد ذلك إلى الشام ليعمل على الضغط على الصليبيين في بلاد الشام ، عند ذلك كانت حامية عكا وعددها خمسمائة فارس

أرادوا استغلال تلك النكسات التي حلت بالمسلمين في مصر فخرجت الحامية للاغارة على مناطق المسلمين وتصدى لهم المعظم وهزمهم عند مكان اسمه القيمون وقتل عدداً كبيراً من رجال تلك الحامية وفروا إلى عكا ثم سار المعظم بعد ذلك وهاجم قيسارية واستولى عليها وهدمها ، وحاول الاستيلاء على قلعة الحجاج وهي حصن بناه الصليبيون قبل مسيرهم إلى مصر في مكان يسمى عتليت فأراد الاستيلاء عليه لكنه لم ينجح . المهم أنه خلال ذلك وصلت نجدات إلى الصليبيين فخاف المعظم فقام بهدم حصني تبنين وبانياس وهي من الحصون المهمة في بلاد الشام التابعة للمسلمين ، يذكر الذهبي أنهما كانا بمثابة قفل للشام . على أية حال ظل السلطان الكامل في فارسكور يناضل الصليبيين الذين أحاطوا بدمياط من كل الجهات وحاصروها حصاراً شديداً وخلال ذلك كان الكامل يعمل على تزويد حامية دمياط بما تحتاجه من المؤن . وكان قد أحاط بها الصليبيون وحدثت عملية شبيهة بما حدث لعكا زمن الحملة الصليبية الثالثة وتولى تلك العملية رجل يسمى شمايل الشامي وبذل جهوداً كبيرة كان مسؤولاً عن البريد فتولى أمر إيصال المؤن والأغذية إلى مدينة دمياط ، ومعروف ان الصليبيين توغلوا في سفنهم في مجرى نهر النيل وأحاطوا بدمياط من جهة البحر فكان الوسيلة الوحيدة لإيصال المؤن إلى دمياط عن طريق قوارب صغيرة تحمل بالدقيق والجبن والعسل وما يحتاجونه، وطبعاً كان يقوم شمايل الشامي مع رجاله بتسريب تلك القوارب الصغيرة إلى قرب دمياط فتأخذها حامية دمياط ، خلال ذلك الصليبيون استطاعوا ان يحبطوا كثيراً من تلك القوارب فلجأ شمايل الشامي إلى وسائل أخرى من ضمن تلك الوسائل التي لجأ إليها في ايصال المؤن إلى دمياط انه كان يأتي باجسام الحيوانات الميتة من الحمير والبغال والغنم فيخرج ما في أحشائها كأنها ميتة ثم يحشوها بالدقيق والزبد والعسل وما تحتاجه وطبعاً يربطها والنيل يدفعها وعندما تقترب من عند الأسوار وبكلاليب كان رجال حامية دمياط



خط سير القوات الصليبية من دمياط إلى المنصورة (إبتداء من ١٧ يوليو ١٢٢١م/ ٢٥ جمادي الثاني ٦١٨هـ) نقلاً عن محمود عمران: الحملة الصليبية الخامسة

يخطفونها ويرفعونها ويتزودون بها ، طبعاً مهما كانت هذه العملية فإنها لا تستطيع أن تزود كل سكان دمياط بكل ما يحتاجون إليه سيما وأنهم مع حاميتها يزيدون عن ستين ألف ولذلك مع طول الزمن مات الكثير منهم من الجوع واشتد الجوع بدمياط ومع ذلك ظلت صامدة أكثر من تسعة أشهر . حدث في ذلك الحين ، أن الأخبار كانت تأتي أن نجدات وصلت إلى الصليبيين من ضمن تلك النجدات نجدة جاءت من ألمانيا بقيادة لويس دوق بافاريا وهذا أرسله الامبراطور فردريك الثاني امبراطور الدولة الرومانية المقدسة ، ذلك الامبراطور الذي كان قد تعهد أن يقوم بحملة صليبية لكن كان كلما أرسل له البابا اعتذر لظروف خاصة في أوربا في مملكته ، وكلما أعطى موعداً وجاء الموعد أجله وقال انه لا يستطيع الآن الذهاب . في النهاية أرسل أحد امرائه وهو لويس دوق بافاريا بجيش كبير ووصل لويس وزاد في قوة الصليبيين ، عند ذلك وصلت الأخبار بأن فردريك الثاني قادم وان هناك حملة كبيرة قادمة، طبعاً جيوش الصليبيين التي وصلت إلى دمياط كبيرة جداً ، يذكر المقريزي انهم كانوا أربعين ألف من الفرسان ومائة وسبعين ألف من المشاة ، حتى ولو قلنا أن هذا مبالغ فيه فإن ستين ألف عدد كبير جداً فأحاط الصليبيون بدمياط وكافحهم الكامل كفاحاً كبيراً جداً ، أما الملك المعظم في بلاد الشام فقد أرسل لأخيه الأشرف يستنجده لكنه ظل مشغولاً في الجزيرة في إخماد التمرد ، تمرد كثير من الزعماء . سمع المعظم بأن فردريك قادم وأن أمماً من الغرب تحتشد وقادمة فاستنتج استنتاجاً خاطئاً وهو ان الصليبيين سوف يستولون على بيت المقدس وكان في بيت المقدس فرقة عسكرية في ذلك الحين يتولاها أخوه العزيز عثمان بن العادل ومملوكه عز الدين ايبك فطلب منهما هدم أسوار وتحصينات بيت المقدس حتى اذا استولى عليها الصليبيون ، يمكن استردادها فيما بعد منهم . فقالا له نحن نحفظه ولكنه أصر على هدم أسوار وتحصينات بيت المقدس ، وطبعاً يذكر المؤرخون أنه منذ عهد صلاح الدين إلى

ذلك الوقت أي زهاء ثلاثين سنة بعد فتح بيت المقدس ظلت البناية والعمارة قائمة في أسوار وتحصينات بيت المقدس حوالي ثلاثين سنة حتى أصبح كل برج من أبراج الأسوار كأنه قلعة لحصانته . وأصبح من الصعب الاستيلاء عليه بالقوة ، مع ذلك توصل أو استنتج المعظم بأنه يجب هدم الأسوار والتحصينات وأصر على هدمها ، وفعلاً قاموا بهدمه في محرم عام ٦١٦ هجرية ، لكن السكان المدنيين المساكين عندما رأوا هذا الوضع ورأوا الهدم في الأسوار والتحصينات في الأبراج خرج السكان إلى قبة الصخرة يبكون وإلى المسجد الأقصى وحلقوا شعورهم وشقوا ملابسهم وقطع النساء شعورهن بسبب ذلك الحدث ، عند ذلك خاف الناس من الصليبيين ، خرجوا من بيت المقدس وتشتت سكان بيت المقدس وتفرقوا أيدي سبأ منهم من لجأ إلى الكرك ومنهم من ذهب إلى دمشق ومنهم من هاجر إلى مصر . وهكذا سفح المعظم في الرمل جهود وأموال ثلاثين سنة ظلت تنفق في تحصين أسوار بيت المقدس . على أية حال لأن دمياط في ذلك الحين لا زالت صامدة والمخاوف من حملات صليبية جديدة لم يكن لها ما يبررها أنا أعتقد أن المعظم ارتكب خطأ بذلك ، على أية حال حاصر الصليبيون دمياط براً وبحراً وشددوا الحصار عليها للاستيلاء عليها ، وفي ذلك الحين وهم يحاصرونها كان قد وصل مع الحملات الجديدة راهب من ايطاليا هو فرنسيس الأسيسي الذي يسمونه القديس فرنسيس مؤسس طائفة الرهبان الفرنسيسكان التي تدعو إلى النصرانية بالوعظ والتبشير وجاء ووصل مع الجموع الجديدة وتحدث مع زعماء الصليبيين ورأى معركة نشبت وتكبد فيها الصليبيون خسائر كبيرة فطلب منهم أن يسمحوا له بالذهاب إلى السلطان الكامل يدعوه إلى النصرانية ، بعد ذلك جاء بعلم أبيض فوصل إلى عند معسكر السلطان عند فارسكور فلم يفهم منه الحرس إلا كلمة سلطان سلطان ، فسمحوا له بمقابلة السلطان ، لما رأى السلطان مثل بين يدي السلطان وكان عليه ثياب قذرة رثة حافي القدمين عند ذلك ، وكان خطيباً

مفوهًا ، أخذ يدعو السلطان إلى النصرانية، وكان مع السلطان بعض المترجمين الذين يبدو انهم من بقايا حملة الاطفال اشتراهم الكامل ورباهم وأصبحوا مترجمين مع الصليبيين ، فدعاه إلى النصرانية واعتناق الدين النصراني ، و سمع منه الكامل كل ما دعا إليه ، ولم يرد عليه وأهداه هدايا لكنه بعد ذلك قال للسلطان ان عندي دليل ان ديني هو الحق قال ما هو : قال اشعل نارًا واقفز عليها قال الكامل لا نحتاج إلى هذا الدليل ، لأن هذه لعبة بهلوانية يعرفها المصريون ، على أية حال طلب من السلطان الكامل أن يحسن معاملة الأسرى ووعده بذلك ، ولما جاء مغادرًا طلب منه الإذن بالسماح له بالذهاب إلى بيت المقدس حتى يقيم فيها ، فأذن له السلطان وأعطاه السماح بالذهاب إلى بيت المقدس إلى أخيه المعظم فذهب وأقام في دير على جبل صهيون كنيسة عرفت باسم كنيسة الرهبان الفرنسيسكان وظلت قائمة واستمرت وظلت بعد ذلك محل نزاع طويل بين الفرنسيسكان واليهود . المهم منذ ذلك الوقت توسعت حركة الرهبان الفرنسسكان من المنصرين وانتشروا في الكثير من البلدان، على أية حال ، بعد حصار طويل على دمياط استولوا عليها في شعبان عام ٦١٦ هجرية بعد حصار دام أكثر من تسعة أشهر فتمكنوا من اقتحامها عنوة وكان أن سكانها وحاميتها البالغ ستين ألف ، لم يبق منهم إلا ثلاثة آلاف مات الناس من الجوع واشتد بهم الألم ولم يبق فيها إلا عدد من الأطفال والنساء والرجال ، الثلاثة آلاف الباقون معظمهم من النساء والأطفال فدخل الصليبيون إلى جامع دمياط وحولوه إلى كنيسة وارتكبوا فيه أعمالاً مشينة من هتك نساء المسلمين وفعل الفاحشة بهن وأخذوا الأطفال وكان معهم جاكيوس دي فتري الذي قام بجمع الأطفال واشتراهم ممن أسرهم من الصليبيين وقام بتعميد عدد كبير من الأطفال مثلما فعل بعد الغارة على بيسان ، ويذكر المؤرخون الصليبيون أنه مات بسبب التعميد أكثر من خمسمائة طفل ، لا يعرفون سبب ذلك ، وبقية الأطفال أرسلهم إلى راهبات وإلى رهبان إلى

الأديرة بالشام لتنصيرهم وتنشئتهم نشأة نصرانية . هذا يبين مدى ارتباط الحروب الصليبية بالحركة التنصيرية ، على أية حال بعد أن استولى الصليبيون على دمياط وجد السلطان الكامل انه ليس بحاجة إلى ان يبقى بفارسكور ولذلك انسحب جنوبًا إلى خط دفاع آخر ، وإذا لاحظتم الخريطة أنه أقام في منطقة ذات فضاء واسع جنوب دمياط ، جنوب منطقة يتفرع عندها النيل إلى فرعين عندما يقترب من دمياط فرع يسمى فرع دمياط والفرع الثاني يسمى بحر أشموم ، وبحر أشموم يصب في بحيرة المنزلة . عند تفرُّع هذين الفرعين إلى الجنوب منهما بنى السلطان قاعدته واتخذ له معسكرًا في فضاء فسيح لم يكن يعرف لِه اسم لكنه سُمي فيما بعد بمعسكر المنصورة وهو مدينة المنصورة الحالية التي تطورت الآن وأصبحت من أكبر المدن المصرية ، فأقام في هذا المكان وأحاط معسكره بأسوار وبنى له داراً فيها والعساكر بنوا لهم أماكن وخيم وتطورت مع مرور الزمن وكانت هذه البداية لنشأة مدينة المنصورة .

بعد الاستيلاء على دمياط عاد جان دي بريين إلى بلاد الشام بسبب ما كان يلقاه من مضايقة من المندوب البابوي بلاجيوس . السلطان الكامل كان خلال الحملة الصليبية الخامسة قد تقدم للصليبيين بعروض للصلح أربع مرات ، المرة الأولى عندما استولوا على برج السلسلة يسلمهم بيت المقدس وبعض الحصون في بلاد الشام التي فتحها صلاح الدين مقابل انسحابهم عن دمياط وقد وافق جان دي بريين على العرض لكن المندوب البابوي بيلاجيوس رفض ، ثم تقدم لهم بعرض آخر عندما حاصروا دمياط ورفض أيضًا ، وبعد ان استولوا على دمياط تقدم لهم بعرض ثالث ان يسلمهم كل ما فتحه صلاح الدين غربي نهر الأردن ما عدا الكرك والشوبك فرفض بيلاجيوس رغم ان جان دي بريين وافق وقال هذا نصر كبير لكن المندوب البابوي رفض وأيده الفرسان الداوية والاسبتارية وأيده أيضًا التجار الايطاليون من البنادقة والجنويين والبيازنة أيدوه في رفضه اعتبروا

أن مصر أصبحت فى أيديهم وأنها أصبحت لقمة سائغة وأن الطريق أصبح سالكًا إلى القاهرة ، وكان التجار الايطاليون من البندقة والجنويين والبيازنة يطمعون في الاستيلاء على خيرات مصر ، وكان لهم اتفاقيات خاصة مع الدولة الأيوبية لكن بعد أن استولوا على دمياط طمعوا في الاستيلاء على مصر ، وإذا استولوا على مصر ، تصبح مصر بيد الفرنج (بيد الصليبيين) فلا يُفرض عليهم ضرائب وبالتالي يسيطرون على التجارة التي تأتي من البحر الأحمر ومن جنوب شرق آسيا ويتحكمون في التجارة الرئيسية التي كانت تمثل التجارة العالمية في ذلك الوقت ، فطمعوا في الاستيلاء على مصر فرفضوا رغم ان جان دي بريين وافق على عروض الصلح ، على أية حال ، بعد ان استقر السلطان الكامل في معسكره الجديد الذي سمي فيما بعد بالمنصورة أخذت النجدات تأتي إليه من الشام من أخيه المعظم وأيضًا أخذت النجدات تأتي إليه من الجزيرة وجاء أخوه الأشرف بعد أن استكمل القضاء على الزعماء الذين هددوه ، خلال ذلك لو لاحظنا نجد أن الموقف المعنوي للمسلمين بعد سقوط دمياط كان صعب جدًا ، لما سقطت دمياط أرسل المعظم إلى سبط ابن الجوزي ، وهو المؤرخ المشهور وصديقه في دمشق ، يطلب منه أن يحث الناس على الجهاد ، ورأينا عام ٦٠٧ هجرية ان سبط ابن الجوزي قام في جامع دمشق وخطب فانضم معه ثلاثين ألف من أهالي دمشق وما جاورها وخرجوا في غزوة ضد الصليبيين ، فاستجاب ابن الجوزي وقام بنفس العمل إلا انه لم يستجب إليه أحد هذه المرة فما السبب ؟ السبب في ذلك انهيار الروح المعنوية للمسلمين ، ففي هذا الوقت الذي كانت فيه الحملة الصليبية تحرز تقدمًا وتستولي على برج السلسلة ثم تأخذ دمياط ثم يتقدم الصليبيون ويحرزون انتصارات ، كانت أوضاع المسلمين متدهورة في الجزء الشرقي من العالم الإسلامي ، في هذه الأوقات بالذات اقتحم (كما رأينا في مادة المسلمون والمغول) جنكيز خان بلاد الدولة الخوارزمية فاستولى على اترار وعلى بخارى وعلى

سمرقند وعلى بلاد ما وراء النهر في نفس هذا التاريخ ، فيقول ابن الأثير : (وأشرف المسلمين على خطة خسف في شرق الأرض وغربها ، أقبل المغول من الشرق ففعلوا ما فعلوا بالمسلمين ، وجاء الفرنج من الغرب فاستولوا على دمياط وغيرها ، وكان المسلمون يتوقعون البلاء صباحًا ومساءً) ، فانهارت الروح المعنوية للمسلمين بسبب تلك الأوضاع الخطيرة ، الأوضاع ساءت جدًا ، المعروف انه في هذا الوقت عام ٦١٨هجرية كان جنكيز خان قد وصل إلى الاطراف الشرقية للخلافة العباسة ووصل إلى حدود العراق وقواته وصلت إلى شمال الجزيرة ، (الجزيرة الفراتية) ، فالوضع انهار ، الوضع المعنوي بالنسبة للمسلمين ساء جدًا لذلك تقدم السلطان الكامل بالعرض الأخير للصليبيين تنازل لهم عن كل ما فتحه صلاح الدين في بلاد الشام وان يعطيهم كل الساحل بما فيها جبلة واللاذقية وكل المناطق التي كانت بيد الصليبيين قبل فتوحات صلاح الدين ، لكن المندوب البابوي رفض وأصر على ان يدفع المسلمون خمسمائة ألف دينار لإعادة بناء أسوار بيت المقدس ويسلمون أيضًا الكرك والشوبك يعني فصل مصر عن الشام نهائيًا ، لذلك فشلت المفاوضات رغم ان جان دي بريين كان يحث بلاجيوس على ان يوافق لأن العرض كان مغريًا لكن المندوب البابوي رفض ذلك العرض وأيده في ذلك الداوية والاسبتارية وأيده أيضًا التجار الايطاليون من البنادقة والجنويون والبيازنة .

على أية حال بعد ذلك شاء الله خلال نحو ثلاث سنوات أن يكون فيضان النيل قليلاً ، النيل معروف انه يحدث فيضان في كل سنة عندما تهطل أمطار غزيرة على هضبة الحبشة النيل يفيض ويغمر كل منطقة الدلتا وفي ذلك العام الأخير رغم انه كان الصليبيون كانوا يعرفون بالنيل وقصته ولكن في ذلك العام جاء الفيضان على غير ما يتوقعون وكان ذلك في عام ٦١٨ تقدم الصليبيون وأرادوا الاتجاه جنوبًا للاشتباك مع المسلمين في معركة حاسمة ثم يتقدمون إلى

القاهرة وذلك في آخر جمادى الثاني عام ٦١٨ هجرية وتقدموا وسط هذا المثلث الذي يحيط به المياه من ثلاث جهات بحيرة المنزلة في الشرق والجهة الشمالية وبحر أشموم في الجنوب الشرقي ونهر النيل فرع دمياط في الغرب ، أيضاً السلطان الكامل أرسل السفن الاسلامية من أحد الفروع وهو بحر المحلة ليغير على السفن الصليبية من الخلف فتقدم الصليبيون إلى هذا المكان وخلال هذه الفترة جرت معارك واشتباكات بين السفن الاسلامية وبين السفن الصليبية وكانت الانتصارات في معظمها للمسلمين ، لما وصل الصليبيون إلى المثلث الذي يقابل معسكر السلطان الكامل عند المنصورة هنالك زاد فيضان النيل بصورة هائلة ويحدد المقريزي ذلك بأنه في شهر رجب أول ليلة من شهر توت القبطي بداية الفيضان وكان كما يقول المؤرخون المسلمون لا علم للصليبيين بأرض مصر والنيل، وهذه المناطق فيها ترع وفيها سدود وفيها أحراش لا يعلمها الصليبيون ، لما تقدكم الصليبيون ولم يأخذوا معهم ما يكفيهم من مؤن ظنوا ان المنطقة في يدهم وأنهم سيهزمون المسلمين ويأخذون ما يشاؤون من على ضفاف نهر النيل حتى يصلوا القاهرة فعند ذلك تقدمت فرقة أرسلها الكامل وفتحت فجوة عظيمة في الطين الذي يفصل النيل عن المنطقة الزراعية التي عليها الصليبيون فجوة كبيرة في ذلك الجدار الطيني أثناء زيادة النيل فعند ذلك غمرت المياه كل المنطقة التي عليها الجيش الصليبي ، فوقع الجيش الصليبي في مأزق فضاقت عليهم الأرض بما رحبت وكان خلفهم قنوات جافة فوصلتها المياه فأصبحوا يقعون في مأزق كبير جداً لا يستطيعوا الخروج منه ، وبقي لهم منفذ خلفي في منطقة ضيقة جداً ، منطقة لا يتجاوز عرضها عدة أمتار فسد عليهم الكامل بفرقة عسكرية من ألفي فارس وسدوا عليهم المدخل ، عند ذلك وقع الجيش الصليبي في ذلك الفخ ، فخ لا يستطيعون التقدم لا للإمام ولا للخلف وعند ذلك تناوشتهم سيوف المسلمين وسهامهم من جميع الجهات وأخذوا يقتلون فيهم بشكل كبير وهم لا يستطيعون

التحرك ، عند ذلك حرقوا ما تبقى معهم من خيام ومؤن لعلهم يرجعون فما استطاعوا الرجوع ، وهنا وقع الجيش الصليبي بأكمله في ذلك المأزق ولم يجدوا له منفذاً إلا الاتصال بالسلطان الكامل فأرسل بلاجيوس رسلاً إلى السلطان الكامل يطلب منه الصلح بعدما كان على مدى ثلاث سنوات يرفض الصلح ، يطلب الصلح والأمان ولا يطالب ببيت المقدس ولا غيرها إنما يطلب السماح لهم بالخروج في أمان وتزويدهم بالمؤن والطعام بعد أن اشتد بهم الجوع وكثير منهم يطلب أن يزودهم بالماء النظيف والغذاء مقابل ان ينسحبوا سالمين من أرض مصر ويسلموهم دمياط . السلطان الكامل وافق على العرض ، أما أخواه المعظم عيسى والأشرف موسى فأشارا عليه بانتهاز الفرصة للقضاء عليهم لكنه رفض وأصر على قبول العرض وقال بأن دمياط لا تزال في أيديهم وفيها حامية لا تقل عن عشرين ألفاً فلو قضينا عليهم لن يسلموا دمياط وربما تبقى هذه قاعدة حتى تأتي حملة أخرى ونصبح في مشكلة ، عند ذلك وافق على أن يسمح لهم بالخروج في أمان ويزودهم بالأطعمة وأن يسلموه دمياط ويجلون عن أرض مصر ، مقابل ذلك أخذ منهم رهائن حتى يتم تسليم دمياط ، وكان من ضمن الرهائن المندوب البابوي بيلاجيوس وجان دي بريين ولويس دوق بافاريا وكبار زعماء الداوية والاسبتارية وفرسان التيوتون وعند ذلك جرى الاستسلام وسمح بأن يزودهم بالغذاء والماء وسمح لهم في الخروج في أمان . لما سمع الذين بقوا في دمياط بذلك رفضوا ونادى بعضهم بأنهم لن يسلموا دمياط ولكن جان دي بريين و هو رهينة مع المندوب البابوي بيلاجيوس فأرسل إلى الذين في دمياط يهددهم إذا لم يسلموا دمياط سوف يسلم عكا للمسلمين في الشام ، طبعاً عكا هي عاصمة الوجود الصليبي في الشام ، لذلك وافقوا وانسحبوا عن دمياط وجلوا عنها في ٩ رجب عام ٦١٨هجرية / سبتمبر ١٢٠١ ميلادية ، وبذلك فشلت الحملة الصليبية الخامسة فشلاً ذريعاً ، وأسباب فشلها كثيرة لكن أهم سببين لهذا الفشل (رغم

انه احتشد فيها عشرات الألوف وجاءت نجدات لا حصر لها من أوربا) هو ما حدث من نزاع تسبب فيه المندوب البابوي بيلاجيوس . النزاع الذي قام بينه وبين جان دي بريين واعتبر نفسه هو القائد العام للحملة وممثل البابا بينما هو لا يفقه في الأمور العسكرية والنواحي الحربية مثل جان دي بريين الذي كان خبيراً عسكرياً فكان هذا النزاع سبباً في فشل تلك الحملة ، أما من الجانب الاسلامي فرغم الكوارث التي حلت بالمسلمين إلا أنه في نهاية المطاف كان اتحاد المسلمين خاصة أبناء العادل الثلاثة الكامل محمد الأكبر صاحب مصر وأخواه المعظم عيسى صاحب دمشق والشام والأشرف صاحب الجزيرة ومساعدة الأعظم الفعالة لأخيه الكامل هذه في نهاية المطاف اسهمت في فشل الحملة الصليبية الخامسة التي أرادت الاستيلاء على مصر وعادت تلك الحملة خاسرة تجر أذيال الخيبة والندامة إلى أوربا .

وفي المنصورة أقام السلطان الكامل بعد ان تسلم دمياط حفلاً حضره الشعراء وأنشدوه شعراً في هذه المناسبة العظيمة وكان من ضمن الشعراء الذين جاؤوا إلى الكامل الشاعر ابن عنين وغيره ، وكان من الشعراء الذين مدحوا المعظم عيسى والأشرف موسى بسبب نجدتهما لأخيهما الكامل محمد واحد يقول في قصيدة مطلعها :

أعباد عيسى إن عيسى أتاكم وموسى جميعاً ينصران محمدا

ومما قالته جارية للسلطان الأشرف تمدح سيدها تقول :

(وتقصد بفرعون عكا جان دي بريين ملك بيت المقدس تقول في قصيدة منها):

ولما طغى فرعون عكا وقومه فجاء إلى مصر ليفسد في الأرض

أتى نحوهم موسى وفي يده العصا فغرقهم في اليم بعضاً على بعض

فشاعر يقول يمدح الكامل :

بك اهتز عطف الدين في حلل النصر وردت على أعقابها ملـــة الكفـر
وما فرحت مصر بذا الفتح وحدهـــا لقد فرحت بغداد أكثر من مصر
ولو لم يقم في اللّه حـــــق قيامـه لما سلمت دار السلام من الذعر
(دار السلام بغداد)
وأقســـــم لولا عزمـــة كامليـــة لخافت رجال في المقام وفي الحجر

والشاعر بن عنين معروف أنه من كبار الشعراء في هذا العصر فمدح المعظم أيضًا وقال قصيدة جميلة من ضمنها يقول :

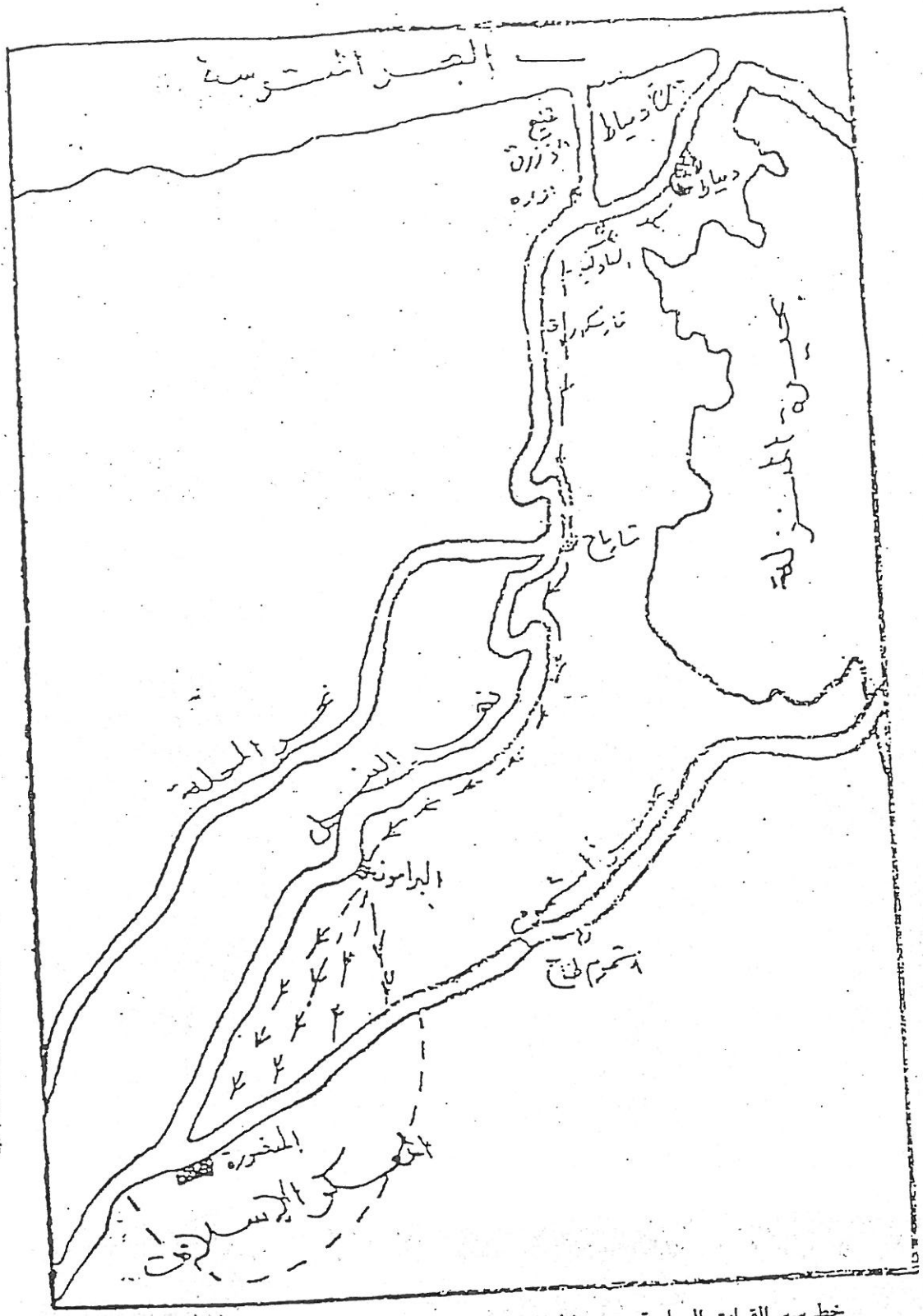
سلوا صهوات الخيل يوم الوغى عنا إذا جهلت آياتنا والقنـــا اللدنِـــا
غداة لقينا دون دمياط جحفـــــلاً من الروم لا يحصى يقينًا ولا ضمنا
قد اتفقوا رايًا وعـزمًا وهـــمة وديناً وان كانـوا قد اختلفوا لسنا
تداعوا بأنصار الصليب فأقبلت جموع كأن المـــوج كان لهم سفنا
وأطمعهم فينا غرور فأرقلـــوا إلينا سراعًا بالجياد و أرقلنـــــا
فما برحت شمر الرماح تنوشهم بأطرافها حتى اســتجاروا بنا منا
سقيناهم كأسًا نفت عنهم الكرى وكيف ينام الليـل من عـدم الأمنا
فقد صبروا صبرًا جميلاً ودافعوا طويلاً فما أجـدى دفاع ولا أغنى
لقوا الموت من زرق الأسنة أحمرا فألقوا بأيديهـم إلينا فأحســـنا
وما برح الإحسان منا ســـجية توارثه عن طيـــب آبائنا الابنـا
يسير بنا من آل أيـوب ماجـــد أبى عزمه أن يستـقر به مغنـى
سرى نحو دمياط بكل سـميذع نجيب يرى ورد الوغى المورد الأهنا
وقد عرفت أسيافنا ورقابهـــم مواقعها فيهـــا فإن عادوا عدنا
منحناهـم منا حـياة جديـدة فعاشوا بأعنـاق مقلـــدة منـا
ولو ملكوا لم يأتلـوا بدمائنـــا ولـوغًا ولكـن ملكنـــا فأسـجحنا

وهكذا فشلت الحملة الصليبية الخامسة إلا أن هذا الفشل الذي حل بها لم

يمنع بعد ذلك حملات صليبية ان تأتي إلى مصر بنفس الطريق ، طريق دمياط وهي الحملة الصليبية السابعة التي اتخذت نفس الطريق وحل بها ما حل بالحملة الصليبية الخامسة وهو ما سنتحدث عنه في لقاء قادم ان شاء الله .

أما جان دي بريين الوصي على مملكة بيت المقدس فإنه قد أقام في عكا لمدة سنة ثم ارتحل إلى أوربا في عام ٦١٩ هجرية / ١٢٢٢ ميلادية وذلك لمقابلة البابا هونوريوس الثالث وبعض ملوك أوربا للتشاور فيما يمكن عمله حول مستقبل مملكة بيت المقدس الأسمية والبحث عن زوج مناسب لابنته الملكة الصغيرة ايزابيلا التي شاع اسمها باسم يولاند وبعد أن ماتت امها ماريا ، فقد كان جان دي بريين محل اتهام حسب القوانين الاقطاعية الصليبية بأنه ملك مشكوك في صحته أو في صحة ملكيته، على أية حال ارتحل إلى أوربا بعد أن ولى نائبًا من قبله في عكا وبعد ذلك وصل إلى ميناء برنديزي بايطاليا ثم اتجه إلى البابا هونوريوس الثالث في روما ومعه الكاردينال بلاجيوس المندوب البابوي ثم تناقشا مع البابا عن أسباب فشل الحملة الخامسة وشرحا له أحوال الصليبيين في بلاد الشام ثم طلب جان دي بريين من البابا العمل على إعداد حملة صليبية جديدة لمحاربة المسلمين في بلاد الشام ، وأشار إلى انه إذا استولت هذه الحملة على بلاد المسلمين يجب أن تضم هذه الأراضي إلى مملكة بيت المقدس . على أية حال من أجل اختيار زوج مناسب للأميرة يولاند اقترح مقدم رئيس الفرسان التيوتون الذين لهم بعض الحصون والقلاع في بلاد الشام بأن يتم تزويج الأميرة يولاند من فردريك الثاني امبراطور الدولة الرومانية المقدسة الذي كان قد تقاعس وأجَّل القيام بحملته الصليبية حتى يصبح لديه حافز قوي للاشتراك في الحروب الصليبية ، على أية حال بعد ذلك كان الامبراطور فردريك الثاني قد ماتت زوجته وأصبح هو الزوج المناسب في نظر الصليبيين للأميرة الصغيرة ، وجرى الاتفاق فعلاً على أن يتزوج فردريك من يولاند وفي عام ٦٢٢هجرية جاءت رحلة أو بعثة من أوربا وكان مع تلك

البعثة جيمس رئيس أساقفة كابوا وذلك لعقد الزواج للأميرة يولاند من الامبراطور فردريك الثـاني ، ووصلت تلك البعثة إلى عكا . وفي كنيسة الصليب المقدس في عكا ، عقد الأسقف جيمس نيابة عن الامبراطور فردريك الثاني العقد علي يولاند وبعد ذلك أبحرت البعثة من صور ومعها الملكة يولاند وكانت في الرابعة عشرة من عمرها وذهبت إلى ايطاليا وكان فردريك في ذلك الحين في الخامسة والثلاثين من عمره واستقبل الامبراطور فردريك الامبراطورة الصغيرة يولاند ، بعد ذلك ضمها إلى حريمه ، طبعًا بعد ذلك أنجب منها ابنه كونراد الذي سيصبح فيما بعد هو الوريث الشرعي لمملكة بيت المقدس حسب القوانين الصليبية الاقطاعية ، على أية حـال بعـد أن أصبـح الامبـراطور فـردريك الثـاني هـو الزوج الشـرعي في نظر الصليبيين ليولاند كان لا بد له مـن القـيام بالحملة الصليبية لاسـترداد بيت المقدس ، وطبعًا يولاند بعد ذلك لم تعش طويلاً فماتت سنة ٦٢٥هجرية / ١٢٢٨ ميلادية ولكن أصبح فريدريك وصيًا على ابنه منها كونراد وهو أجل سفره عدة مرات وفي نهاية المطاف أقسم الامبراطور يمينًا بأنه سوف يبحر إلى بلاد الشام بعد عامين وحدد بالتحديد اغسطس عام ١٢٢٧ ميلادية للابحار إلى الشام سنة ٦٢٤هجرية ، وطبعًا الظروف التي جدت في الدولة الأيوبية ساعدته على أن يرتحل في حملته الصليبية تلك وهو ما سنتحدث عنه في الأسبوع القادم ان شاء الله ، ومن عنده سؤال أو استفسار فاليتفضل .



خط سير القوات الصليبية من دمياط إلى المنصورة (إبتداء من ١٧ يوليو ١٢٢١م / ٢٥ جمادي الثاني ٦١٨هـ) نقلاً عن محمود عمران: الحملة الصليبية الخامسة

الحملة الصليبية السادسة :

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، وبعد :

كنا قد تحدثنا في الأسبوع الماضي عن الحملة الصليبية الخامسة ورأينا كيف أسهم التعاون بين الأخوة الثلاثة أبناء السلطان العادل الكامل محمد سلطان مصر والمعظم عيسى صاحب دمشق ووسط الشام والأشرف موسى صاحب الجزيرة حيث أسهم التعاون بين الإخوة الثلاثة الكبار من أبناء العادل بفشل الحملة الصليبية الخامسة رغم أنها قد وصلت إلى عدد كبير بحيث بلغ الحشد بعد الاستيلاء على دمياط زهاء ستين ألف مقاتل ، لكنه بعد الحملة الصليبية الخامسة تبدلت الظروف ، ظروف الجبهة الداخلية في بلاد الشام ومصر ، وفي نفس الوقت كما أشرنا عاد المندوب البابوي إلى أوربا كذلك سافر جان دبريين ملك بيت المقدس الذي كان وصيًا على ابنته يولاند ليبحث لها عن زوج مع البابا هونوريوس الثالث ، وبالفعل جرى الاتفاق على أن تزوج من فردريك الثاني امبراطور الدولة الرومانية المقدسة التي هي ألمانيا والذي كان يحكم بالإضافة إلى المانيا صقلية وجنوب ايطاليا المملكة النورمانية التي ورثها عن طريق والدته التي كانت ابنة لملك النورمان ، وبالفعل تزوج فردريك الثاني وعقد له على يولاند ثم ارتحلت إلى أوربا ، وكان هدف البابا ورجال الدين من هذا الزواج أن يصبح لدى فردريك الثاني حافز للقيام بحملته الصليبية ، تلك الحملة التي كان وعد بالقيام بها منذ وقت مبكر إلا انه أخذ يسوف ويتأخر في تنفيذ وعده ، على أية حال قبل أن نشير ونبدأ الحديث عن الحملة الصليبية السادسة نذكر أن المعظم عيسى صاحب دمشق ، الحقيقة انه كان مخلصًا في جهاده وبذل جهودًا مضنية لمساعدة أخيه الكامل ، وأسهم كما رأينا بفشل الحملة الصليبية الخامسة وكان في جهاده وبطولاته مقتديًا في ذلك بعمه صلاح الدين إلا انه لم يكن لديه الامكانات التي بها يستطيع أن يواجه

الصليبيين بمفرده ومما قام بها أنه استطاع أن يبني جهاز استخبارات بديع جداً في التجسس على الصليبيين بل يذكر بعض المؤرخين المسلمين أنه في أحد المرات تنكر في زي زيات يبيع الزيوت وارتحل من دمشق وذهب إلى عكا ، عكا عاصمة جان دبريين ، وطبعًا استطلع أخبار الصليبيين متنكرًا في زي ذلك التاجر الذي يبيع الزيوت يعني زيت الزيتون وما أشبه ذلك من الزيوت ، ورهن خاتمه عند صاحب حانوت ، صاحب دكان في عكا ، ثم عاد إلى دمشق أرسل رسالة إلى جان دبريين يطلب منه أن يفك خاتمه الذي موجود عند التاجر الفلاني في الدكان الفلاني في المحلة الفلانية ، ولما تحقق جان دبريين من ذلك ووجد خاتم المعظم قامت قيامته في هذا الباب وكاد يموت غيظًا كيف يستطيع هذا الملك المسلم أن يأتي إلى عاصمة الصليبيين ويتجسس عليهم ويعود سالمًا ، طبعًا هذا سيكون له أثر معنوي على الملك الصليبي ، بعد ذلك يذكر المؤرخون ومنهم سبط ابن الجوزي ، المؤرخ المشهور صاحب كتاب مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ، وكان صديقًا للملك المعظم عيسى ، يذكر انه كان يرتب النيران والمنورون على الجبال الممتدة من عكا إلى بلاد المسلمين بحيث إذا قام الصليبيون بغارة أو أرادوا مباغتة بعض البلاد الإسلامية يكون المسلمون قد استعدوا لهم وتجهزوا لهم ، كما استطاع أن يستميل إليه بعض نساء الفرنج ، يعني جنّد نساء صليبيات يعملن جاسوسات لخدمته ، ويذكر سبط ابن الجوزي انه كان يهدي لأولئك النسوة كثير من أطايب الهند ومن التحف ومن الجواهر حتى يكتبن له تقارير مفصلة ، ويذكر أن الكشافة أو رجال الاستخبارات الاسلامية التابعين للمعظم كانوا على رؤوس الجبال القريبة من بلاد الصليبيين وكان أولئك النساء ، طبعًا إذا أرداوا أن يقوموا بغارة على بلد إسلامي أو على مدينة اسلامية أو على حصن إسلامي لا بد أن تسير الغارة في الليل حتى تكبس المسلمين وتفاجئهم في الصباح ، فكانوا إذا مشوا في الليل ، كن أولئك النساء يعطين إشارات متفق عليها لرجال الاستخبارات على الجبال ،

يبينّ عن طريق الشموع الجهة التي ستتجه إليها الغارة ، فإذا كان عدد الكتيبة الصليبية مائة فارس أشعلت الواحدة منهن شمعة واحدة ، وإذا كانوا مائتي فارس تشعل شمعتين وثلاثمائة فارس تشعل ثلاث شمعات ، وهكذا . يقول سبط ابن الجوزي سألته إنك تنفق في هذا أموال كثيرة وتخسر بذلك نقوداً لهؤلاء النساء فقال الملك المعظم إنني أفدي الشيء الكثير بالحقير ، لو وصل الفرنج إلى بلاد المسلمين واستاقوا في الصباح مواشيهم ونعمهم وقتلوا وسلبوا وأسروا النساء والأطفال ان هذا كارثة على المسلمين ، فأنا أدفع بالأموال حتى أتقي هذا الشر ، نتجهز قبل أن يصّل الفرنجة ، ويذكر المعظم لصديقه سبط ابن الجوزي أنه في أحد المرات كان قد استمال إليه امرأة من الفرنج وجاء فارس صليبي جاسوس من قبل فردريك الثاني زمن الحملة الصليبية الخامسة ، فأوعز لها المعظم بأن تستدرج ذلك الفارس وتغريه حتى تأخذ أخباره ، وبالفعل استمالته ومال إليهاوأخبرها بكل خططه وما جاء من أجله فكتبت للمعظم بتلك الأخبار فأفاد منها في مواجهة الحملة الصليبية الخامسة ، كما يذكر صاحب الشوبك وهو والي للمعظم اسمه سعد الدين بن مسعود ، قال في أحد المرات: جاءتني رسالة من المعظم بنفي راهب نصراني كان في صومعة على أحد الجبال يتعبد من النصارى الرهبان من النصارى الشرقيين قال بناء على أمر الملك طردته من تلك الصومعة ، قال : فغاب سنة ثم أتى بعد سنة ومعه أمر بتوقيع من الملك المعظم بأن أقطعه قرية زراعية في تلك المنطقة وأعطيه مائة دينار ، فأردت أن أتحقق عن ذلك الأمر ، فلما بحثت في الأمر وجدت الراهب قد أرسله المعظم عيسى إلى صقلية وايطاليا ليتجسس على أخبار الامبراطور فردريك واستطاع أن يتلصص الأخبار ويعود بها إلى المعظم ، من أجل ذلك كافأه بأن أقطعه قرية وأعطاه مائة دينار ، لكن هذا الجهد للأسف أنه لم يستمر بسبب ما حدث من خلاف بين الإخوة الثلاثة ، ذلك أن المعظم عيسى بعد أن انتهوا من الحملة الصليبية الخامسة عاد إلى الشام وكان

قد وقع في نزاع مع صاحب حماه وأراد التوسع في بعض المناطق على حساب مملكة حماه فلما سمع بذلك الكامل والأشرف ، وكان الأشرف قد بقي في مصر أرسلا إلى الأشرف يأمرانه بالانسحاب عن حماه ويحذرانه من مغبة الاستيلاء عليها فاستوحش من ذلك ، وقع في نفسه شيء منهما فشعر انهما تحالفا عليه ، عند ذلك تطورت الأمور بين الجانبين إلى أن تحالف فعلاً الأشرف مع أخيه الكامل ضد المعظم ، عند ذلك المعظم أراد أن يرد على ذلك التحالف لأنه وجد أنه أصبح مطوقًا من مملكتي أخيه الكامل يحكم مصر والأشرف موسى يحكم الجزيرة وهو في الوسط بينهما فأراد أن يضغط عليهما فأرسل رسالة إلى جلال الدين منكوبرتي سلطان الدولة الخوارزمية الذي كان قد استعاد أجزاء كبيرة من الدولة الخوارزمية بعد عودة جنكيز خان إلى بلاده واستطاع بناء الدولة من جديد وأصبح هو القوة البارزة في مشرق العالم الإسلامي ، فأرسل المعظم عيسى رسالة إليه يطلب منه التحالف معه ويعرض بأنه ينتمي إليه ، عند ذلك عقد التحالف فعلاً بين المعظم عيسى وبين جلال الدين منكوبرتي، ثم طلب المعظم عيسى من جلال الدين بأن يهاجم ممتلكات الأشرف من الشرق ، وبالفعل أخذ جلال الدين يضغط على ممتلكات الأشرف في أعالي الجزيرة بين دجلة والفرات ، ثم جعل الأشرف يخاف منه فجاء إلى دمشق يطلب من أخيه المعظم عيسى أن يأمر حليفه جلال الدين بالانسحاب عن ممتلكات الأشرف في الجزيرة ، وكانت عاصمة تلك الممتلكات مدينة خلاط أو أخلاط وهي من المدن الكبرى في الجزيرة ، الجزيرة كما أشرنا بين الفرات ودجلة . لكن المعظم استغل وصول أخيه الأشرف موسى فلبس الخلعة التي أرسلها له جلال الدين منكوبرتي وأخذ بحضور أخيه يقسم برأس جلال الدين منكوبرتي ليبين مدى التحالف معه حتى يضغط على أخيه ليوافق الأشرف بأن ينضم إلى المعظم عيسى ضد أخيهما الكامل في مصر . ظل على ذلك فترة طويلة حتى حلف له الأشرف موسى بأن ينضم إليه ، فأطلق بعد

ذلك سراحه وغادر إلى مصر وتأول في أيمانه وحنث وقال انه حلف من تحت القهر والسيف ، عند ذلك عاد إلى حلفه مع السلطان الكامل ، ولما رأى الكامل أن جلال الدين منكبرتي أخذ فعلاً يهدد ممتلكات الأيوبيين في الجزيرة لم يجد غضاضة في أن يرسل إلى الامبراطور فردريك الثاني امبراطور الدولة الرومانية المقدسة يطلب التحالف معه ويطلب منه أن يأتي إلى بلاد الشام لمساعدته ضد أخيه المعظم ووعده مقابل ذلك انه إذا جاء لمساعدته أن يعطيه بيت المقدس وبعض المناطق التي فتحها صلاح الدين من الصليبيين . وكان مبعوث الكامل محمد إلى فردريك الثاني هو صدر الدين ابن شيخ الشيوخ ، فوصلت تلك الرسالة إلى فردريك الثاني في ايطاليا في صقلية ، عند ذلك وجد فردريك الثاني في تلك الرسالة فرصة ليحصل على بيت المقدس دون قتال ، فرد من عنده بهدايا للسلطان الكامل محمد ، ووصل مبعوث الامبرطور إلى الاسكندرية واستقبل استقبالاً حافلاً ، ثم أقيمت له الضيافات ما بين الاسكندرية والقاهرة واستقبله الكامل في قلعة الجبل ثم توطد التحالف بينه وبين فردريك الثاني ، وذلك الوعد من قبل الكامل محمد لتسليم بيت المقدس كان لا يمكن أن ينفذ إلا بموافقة المعظم ، فعند ذلك أدرك مبعوث فردريك وكان هو أسقف بالرمو عاصمة صقلية ، فسافر إلى الشام وقابل المعظم عيسى وطلب منه أن يتخلى للصليبيين عن بيت المقدس ، وعرف المعظم بتلك الأخبار وتحالُف أخيه مع فردريك الثاني فرد على مبعوث الامبراطور فردريك الثاني قائلاً : قل لصاحبك ما أنا مثل الغير ، ليس عندي إلا السيف ، يقصد بأنه ليس مثل الكامل ، فعند ذلك ذهب مبعوث الامبراطور فردريك الثاني إلى حصون الاسماعيلية في شمال الشام الذين كانوا قد راسلوا الامبراطور فردريك وكان معه هدايا لزعيم الاسماعيلية ذكر المؤرخون أن قيمتها بلغت ثمانين ألف دينار ، وكان فردريك يقصد من تلك الهدايا للاسماعيلية الباطنية أن يبقوا على الحياد ولا يتدخلون في النزاع أو خشية أن يغتالوه إذا وصل إلى الشام مثل ما فعلوا عندما

قتلوا كونراد دي مونتفرات ، وقتلوا كثيراً من زعماء المسلمين ومن زعماء الصليبيين ، فرد مقدم أو قائد الإسماعيلية الباطنية في بلاد الشام فأرسل مع مبعوث الامبراطور قميصه للامبراطور كعنوان أمان إذا قدم ألا يتعرض للاغتيال من قبل الاسماعيلية ، ويذكر بعض المؤرخين أن الاسبتارية في بلاد الشام ، ومعروف ان الاسبتارية والداوية هم الفرسان الرهبان كانوا شوكة الفرنج وقوتهم الرئيسة ، كانوا يهاجمون دائمًا الاسماعيلية ويجبرونهم على دفع الأتاوة ، ذلك انه كان لهم حصون مجاورة لحصون الاسماعيلية ، فجاء مندوب الاسبتارية إلى الاسماعيلية في حصونهم يطلب الاتاوة المقررة والتي كان يدفعها الاسماعيلية للاسبتارية خوفًا منهم . فرد الاسماعيلية قالوا : عجبًا لكم تأخذون منا وملككم يعطينا ، فمنعوهم ، فشن الاسبتارية هجماتهم على حصون الاسماعيلية مما أجبرهم على دفع الاتاوة مرة أخرى .

على أية حال استمر الصراع بين الأخوة بين المعظم عيسى وبين أخويه الأشرف موسى والكامل محمد . وجلال الدين حاصر خلاط من الشرق ، ثم بعد ذلك الامبراطور فردريك الثاني كان منذ وقت مبكر كما رأينا زمن الحرب الصليبية الخامسة أنه حاول ، .و حاولت البابوية زمن البابا انوسنت الثالث ، أو طلب منه البابا أن يقوم بحملة صليبية فوعده ، ولكنه تذرع بأعذار كثيرة تتعلق بالظروف الخاصة داخل دولته وبنزاع الامبراطورية مع البابوية في ذلك الحين . فجاء البابا هونوريوس الثالث فوعد أن يقوم بحملة صليبية وتقاعس ، فلما جاء البابا غريغوري التاسع ، وعد وظل يسوف عدة مرات ، وفي آخر مرة تعهد بأن يدفع مائتي ألف أوقية من الذهب رهن عند البابا حتى يقوم بحملته الصليبية ، وبالفعل جمع جيوشه وأرسل عددًا كبيراً منهم وسار في إثرهم إلا أنه عاد بعد أن ارتحل من ميناء برنديزي ،أي عاد بعد . أن أبحر ، عاد وقال بأنه مرض ، وهو مرض فعلاً ، ولكن البابا غريغوري التاسع اعتبر ذلك تمارضًا وأصدر ضده قرار

الحرمان ، الحرمان من الكنيسة ، طبعًا قرار الحرمان هذا قرار شديد الوقع على الأمراء والملوك إذا أوقعه البابا عليهم ، عند ذلك فردريك الثاني شعر بأنه لا بد لرفع ذلك القرار أن يقوم بحملته الصليبية الموعودة حتى يستطيع أن يرفع عنه قرار الحرمان . فارتحل متجهًا إلى الشرق .

قبل هذا يجب أن نشير أن فردريك هذا يختلف اختلافًا جذريًا عن سائر الملوك الأوربيين ، ذلك أنه نشأ في صقلية ، وصقلية كانت من مراكز الحضارة الإسلامية عندما استولى عليها النورمان ، وكان لا يزال كثير من سكانها مسلمون ، فتأثر بالمؤثرات العربية والإسلامية ، ونشأ وهو يتقن اللغة العربية ، ويتقن ست لغات غير اللغة العربية بالإضافة إلى لغته الأصلية ، كان متضلعًا في المنطق والفلسفة وعلم الرياضيات وفي الفلك والهندسة ، حتى انه كان يلقب في الغرب بسبب ثقافته الواسعة باسم أعجوبة الدنيا ، وكان مائلاً إلى المسلمين حتى أنه في جنوب إيطاليا وفي صقلية لم يكن يثق في النصارى وجعل بلاطه وحاشيته من المسلمين ، طباخوه الذين يطبخون الطعام كانوا من المسلمين ، وجواريه أيضًا كن من المسلمات ، وأطباؤه أيضًا كانوا من المسلمين ، وكل المحيطين به كانوا من المسلمين ، وكان يميل إلى الحضارة الإسلامية ميلاً شديداً ومتأثر بتقدم المسلمين الحضاري ، ولذلك لا نعجب كثيراً من تصرفاته التي أثارت عجب المؤرخين المسلمين .

على أية حال ، الحقيقة أن المعظم لما سمع باحتشاد فريدريك وقوة فردريك التي جاءت سواء الفرقتين اللتين بعثهما قبل أن يأتي ، أو جيشه الذي لم يتعد في أكثر الروايات ، أحد عشر ألفًا ، بعض الرواة قالوا خمسة آلاف ، وبعض الروايات قالت خمسمائة فارس ، طبعًا خمسمائة فارس ، إذا قلنا فارس لا بد أن الفارس يعتبر نبيلاً في نظر الصليبيين ، فكان لا بد أن يتبع كل فارس عدد من المشاة ومن الرجالة ومن الأتباع ، أي أن جيشه كان يتراوح ما بين خمسة آلاف إلى أحد

عشر ألفًا . المعظم عيسى لما سمع باحتشاد فردريك الثاني بدأ بتحصين بعض المناطق فقام بهدم أساسات صفد وعسقلان حتى لا يستفيد منها الصليبيون ، كم دمر ما بُني من صهاريج ومن مصادر للمياه حول بيت المقدس حتى لا يستطيع الصليبيون حصار بيت المقدس ، وأخذ يتجهز لمواجهة فردريك الثاني . لكن لم يلبث المعظم أن توفي في ذي القعدة عام ٦٢٤ هجرية / نوفمبر ١٢٢٧ ميلادية وجاءت وفاته لصالح السلطان الكامل ، ذلك ان السلطان الكامل كان يخشى المعظم خشية شديدة ، السلطان الكامل كان لديه اثني عشر إلف فارس في مصر بالإضافة إلى المشاة ، جيش المعظم لم يكن يتعدى ثلاثة آلاف فارس ، إلا أن الكامل كان يخشى من المعظم خصوصاً بعد مؤامرة ابن المشطوب التي رأيناها عندما حاول أن يقوم بحركة انقلابية زمن الحملة الصليبية الخامسة . يذكر المؤرخون أن المعظم كان يحب العسكر ، كان يحب المقاتلين والرجال وكان يعطيهم المكافآت ويهتم بأسلحتهم ويهتم بخيولهم ، لذلك كان عسكره يحبونه أشد الحب ، وأيضًا كان جزء كبير من عسكر الكامل ، كانوا يتمنون أن يكون لهم ملك مثل المعظم عيسى ، لذلك لم يجرؤ الكامل حتى بعد أن اشتد الصراع بين الأخوين وهدد جلال الدين منكبرتي أملاك الأشرف في الجزيرة لم يستطع أن يخرج إلى الشام .

في أحد المرات أراد الكامل أن يخرج بجيشه لمهاجمة دمشق لمهاجمة المعظم عيسى ، فعندما قرر الخروج وأخذ يتجهز أرسل له المعظم رسالتين ، رسالة سرية بينه وبينه قال : انني قد نذرت أنك إذا خرجت كل مرحلة تمشيها أتصدق بألف دينار لأنني لن آخذك بعسكري إنما بعسكرك ، فأوقع في نفسه الرعب ، فصار خائفًا من عسكره ، وأرسل له رسالة علنية أمام الملأ : قال أنا أخوك الأصغر ومملوكك فلماذا تخرج إلي ؟ فإنني في طاعتك . فاستغل الكامل هذه وعرف هدف المعظم من هذه الرسالة العلنية فأعلن أمام أصحابه أن المعظم أرسل يعلن طاعته

لذلك لا حاجة للخروج إلى الشام ، وإنما هو كان خائفًا من المعظم باستمالة عسكره إليه وينقض عليه ويقضي عليه . فلم يجرؤ على الخروج إلى الشام . فجاءت وفاة المعظم في صالح الكامل فتخلص من عدو كان يخشاه أشد الخشية .

خلف المعظم على مملكته في دمشق ابنه الشاب وهو الناصر داود ، وكان في العشرين من عمره ، فكان يفتقر إلى خبرة وحنكة والده المعظم المتمرس في الجهاد والعالم العظيم ، كان المعظم عالمًا عظيمًا ويعتبر عالم بني أيوب بلا مدافعة، هذه حقيقة يعترف بها المؤرخون ويذكرون أنه كان على مذهب أبي حنيفة ، وتضلع في هذا المذهب ، بينما كان ملوك بني أيوب على المذهب الشافعي، حتى يذكر المؤرخون أنه مرة سأله أبوه العادل كيف اخترت مذهب أبي حنيفة وأهلك كلهم شافعية ؟ فرد يمزح على والده ويقول : يا خوند أما ترضى أن يكون فيكم رجلٌ مسلم ؟ من باب المزاح . ويذكر المؤرخون أنه أمر فقهاء المذهب الحنفي أن يجردوا مذهب أبي حنيفة ، فجردوه له في عشرة مجلدات فحفظها جميعًا ، جميع مسائلها ، وتضلع في ذلك حتى أنه وجد الخطيب البغدادي في كتابه تاريخ بغداد قد جرّح أبا حنيفة ، فرد عليه في كتاب جميل يذكر المؤرخون الذين اطلعوا عليه انه من أحسن الكتب سماه السهم المصيب في الرد على الخطيب . وأورد فيه بعض الأشعار جرح فيها الخطيب البغدادي ، فكان عالما ، وكان أيضًا لغويًا ومتضلعًا . على أية حال بعد أن مات وخلفه الناصر داود ، أرسل إلى عمه الكامل يخبره بوفاة والده ويعلن دخوله في طاعته ، فوجد الكامل في ذلك فرصة ، فخرج من مصر ووصل إلى غزة واستولى على المناطق التي كانت تابعة لأخيه المعظم من عقبة فيق حتى غزة بما فيها بيت المقدس بما فيها كثير من المناطق مثل نابلس وبيسان وغيرها ، فعند ذلك الناصر داود خاف أن يستولي عمه الكامل على مملكته فأرسل إلى عمه الآخر الأشرف في الجزيرة يستنجد به ، وطبعًا الأشرف أيضًا كان طامعًا في ممتلكات المعظم ، فهو كما يقول المثل كان مثل المستجير من

الرمضاء بالنار. فالمعظم دخل إلى دمشق كان ذلك عام ٦٢٥ هجرية في صيف ذلك العام ، وكانت دمشق معروفة من أحسن مدن الشام والغوطة فيها بساتين كثيرة ومزارع ، فدخل إليها الأشرف واستقبله الناصر داود وأقام له الاحتفالات ، فرأى الأشرف من جمال دمشق وحسن بساتينها مما أطمعه فيها فتظاهر أنه سيحل مشكلة الناصر داود مع عمه الكامل ولكنه في حقيقة الأمر كان يعمل على أن تصبح دمشق له ، فأرسل للكامل بأنه سيأتي إليه ، وبالفعل خرج إليه وعند ذلك جرى الاتفاق بين العمين على ان يقتسما مملكة المعظم بحيث تؤول دمشق إلى الأشرف موسى ، ويبقى بيد الناصر داود الكرك والشوبك وبعض المناطق ، ويتنازل الأشرف عن بعض مناطق الجزيرة لأخيه الكامل . عند ذلك أرسل الأشرف وكان الناصر داود قد تقدم إلى نابلس ، فسار الأشرف لمقابلته ، واكتشف الناصر داود بأن عميه قد اتفقا عليه ، فعاد مسرعًا إلى دمشق وتحصن بها وأرسل إلى جلال الدين منكبرتي سلطان الدولة الخوارزمية يطلب منه أن يتقدم لمساعدته لأنه ابن حليفه المعظم عيسى ، وأن عميه ما اتفقا عليه إلا بسبب تحالفه مع جلال الدين منكبرتي . وبالفعل في ذلك الحين جاء جلال الدين منكبرتي وحاصر خلاط عاصمة الأشرف في الجزيرة وأخذ يضغط على ممتلكات الأشرف . عند ذلك جاء العمان الكامل محمد والأشرف موسى وحاصرا دمشق حصارًا شديداً ووقف الدمشقيون مع الناصر داود ودافعوا عن دمشق دفاعًا كبيرًا ، لا يريدون أن تخضع دمشق للكامل ، لأنهم شعروا زمن المعظم بأنهم مستقلين عن مصر وعن أي قوة أخرى ، هذا يبين لنا ان دمشق كانت تنزع دائمًا إلى الزعامة ولا تريد أن تكون تابعة لمدينة أخرى .

على أية حال ، خلال ذلك كان الامبراطوري فردريك الثاني قد وصل ، وسبقته فرقتان صليبيتان نزلتا في صيدا ، وكانت صيدا مناصفة بين المسلمين والصليبيين ، فاستولى الصليبيون على صيدا وحصنوها ، ثم بعد ذلك وصل

الامبراطور فردريك الثاني في نفس الميعاد الذي كان قد جرى الاتفاق بينه وبين الكامل على الوصول به. يذكر المؤرخون انه لما وصل فردريك الثاني وقع الكامل في موقف حرج معه ، فهو الذي هو استدعاه ليقاتل معه أخاه المعظم ، والآن لم يعد بحاجة إليه ، لأن المعظم مات ، والرجل القوي الذي كان يخشاه توفي ، لم يعد إلا ابنه القليل الخبرة ومن السهل التغلب عليه ، فلم يكن في حاجة لنجدة فردريك الثاني إلا أنه هو الذي استدعاه ووعده بتسليم بيت المقدس . من هنا تبدأ المفاوضات بين الجانبين ، والذي قام بهذا الأمر أمر المفاوضات هو فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ ، كان وزير السلطان الكامل ، وكان فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ هو الذي ذهب بالسفارة الأولى إلى الغرب وقابل فردريك الثاني وانعقدت بينه وبين فردريك صداقة متينة بسبب ثقافة فردريك ومعرفته باللغة العربية ، لذلك أخذ السفير فخر الدين ابن شيخ الشيوخ يقوم بمهمة السفير المتنقل بين الجانبين والذي تولى أمر المفاوضة بينهما . طبعًا فردريك كانت حملته صغيرة جدًا بمقاييس الحملات الأخرى ، ومن الناحية العسكرية لا يستطيع أن يستولي على بيت المقدس ولا يستطيع التغلب على السلطان الكامل ، لأن جيشه كان قليلاً ولا يستطيع مواجهة الكامل خصوصًا إذا تم القضاء على الناصر داود وانضم الأشرف إلى الكامل ولذلك لجأ فردريك إلى سلاح المفاوضات والاستعطاف حتى يتنازل له السلطان الكامل عن بيت المقدس ، على أية حال ، عندما وصل فردريك الثاني امبراطور الدولة الرومانية المقدسة يذكر المؤرخون أنه أرسل إلى الكامل ، أرسل له بعض المسائل في الرياضيات في الهندسة وفي الجبر يطلب حلها ، يريد أن يختبر سلطان المسلمين أو علماء المسلمين ، فوصلت إلى الكامل فحول الكامل تلك المسائل إلى أحد علماء الرياضيات وهو المهندس علم الدين قيصر تعاسيف الاسفوني ، وكان من أشهر العلماء في هذا العصر ، وأجاب على تلك المسائل بالتفصيل وحل تلك المسائل وأعادها إلى فردريك ، وقد

سأل فردريك فخر الدين ابن شيخ الشيوخ ، (طبعًا هذا يبين مدى العلاقة السيئة بين البابا الذي أصدر قرار الحرمان ضد فردريك وبين البابوية) ، يذكر المؤرخون أنه سأل فخر الدين ابن شيخ الشيوخ قال اخبرني ما أصل هذا الخليفة الذي لكم ؟ قال أصل هذا الخليفة الذي لنا في بغداد الخليفة العباسي هذا يتصل نسبه بعم النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، فقال : ان هذا هو المعقول والمنطق ، بينما هؤلاء القليلو العقول ، يقصد الفرنج النصارى في الغرب ، يأخذون رجلاً جاهلاً فدمًا من المزبلة ليس بينه وبين المسيح نسب ولا سبب فيجعلونه خليفة المسيح ، أما أنتم فخليفتكم هو ابن عم نبيكم فهو أحق الناس بمرتبته ، أجاب إجابة منطقية . وكان البابا قد أصدر قراره ضده بالحرمان ولما وصل إلى الشام وأقام بها مدة سمع أن البابا أصدر ضده قرار آخر بالحرمان لأنه خرج بحملته الصليبية دون أن يحصل على الغفران من البابا ، فأصبح قرار الحرمان مضاعفًا عليه ، على أية حال وقع الكامل في موقف حرج مع فردريك الثاني وجرت المفاوضة ، ويذكر بعض المؤرخين المسلمين أن الامبراطور فردريك كان في بعض مراحل المفاوضات يبكي ، وكان يستعطف الكامل ، ويحلف لفخر الدين بن شيخ الشيوخ أنه ليس له هدف في بيت المقدس ولا في غيره انما يريد أن يحفظ مكانته وناموسه عند الفرنج في الغرب ، ويتوسل للكامل أن يتبرع له بذلك المكسب ليعود إلى أوربا ومن ثم يواجه البابوية ويستطيع أن يحتج أنه حقق مكسبًا للصليبيين وهو استرداد بيت المقدس ، على أية حال ، نتيجة ضعف شخصية الكامل ، بعض المؤرخين يفسر ذلك بأنه نوع من التسامح ، ليس هذا تسامحًا هذا تفريط في حقوق المسلمين لا يمكن القبول به ، يتنازل لهم عن بيت المقدس رغم أن أسوارها مدمرة منذ زمن الحملة الصليبية الخامسة عندما دمرها المعظم خوفًا من أن يستولي عليها الصليبيون . بعد ذلك جرت مفاوضات بين الجانبين واتفقا أخيراً على صلح تم عقده وتم بموجبه التنازل عن بيت المقدس للامبراطور فردريك ، وكان

الصلح قد عقد بينهما ووقعا عليه في ٢٨ ربيع الأول عام ٦٢٦ هجرية / ١٨ فبراير ١٢٢٩ ميلادية لمدة عشر سنوات ، وتقرر بمقتضي الصلح أن يأخذ ، (لاحظوا فقرات الصلح) ، تقرر أن يأخذ الصليبيون بيت المقدس وبيت لحم والناصرة وأن يبقى سور بيت المقدس خراباً ولا يجدد وتكون جميع القرى التابعة للقدس بأيدي المسلمين ويحكمها والٍ مسلم يقيم بالبيرة شمال القدس ، ويكون الحرم بما حواه من الصخرة المقدسة والمسجد الأقصى بأيدي المسلمين ولا يدخلها الفرنج أي الصليبيين إلا للزيارة فقط ، كما كفلت الاتفاقية حرية العبادة للمسلمين والمسيحيين على حد سواء ، ومنحت الاتفاقية الصليبيين عدداً من القرى الواقعة فيما بين عكا ويافا وبين اللد وبيت المقدس ، وذلك لضمان سلامتهم أثناء تنقلهم إلى المدينة المقدسة ، وتعهد الامبراطور فردريك الثاني من جانبه للسلطان الكامل بعدم الاشتراك أو المساعدة بأيةحملة صليبية للهجوم على أملاك السلطان، بل وعرقلة أي جهد صليبي ضد أملاكه . الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور يرى بأن فردريك الثاني استطاع مع ضعف امكانياته أن يحقق من المكاسب ما عجزت عنه جهود ريتشارد قلب الأسد بامكانياته الضخمة مع ملاحظة ان فردريك حصل على بيت المقدس دون أن يدخل معركة أو يخسر رجلاً واحداً . طبعًا هذا رأي لا أوافق عليه ، مع احترامي لأستاذي سعيد عاشور ، ذلك أن المقارنة ظالمة بين الكامل وبين السلطان صلاح الدين ، فريتشارد قلب الأسد واجه صلاح الدين ، ذلك المجاهد العظيم الذي نذر حياته وعمره وأمواله وكل ما يملك في سبيل الجهاد ، واستولى الجهاد كما قلنا على قلبه وعلى سائر جوانحه ، وقرر أن يموت مجاهداً شهيداً في سبيل الله ، ورأينا كيف تحصن ببيت المقدس رغم الامكانيات الضخمة التي كانت مع ريتشارد قلب الأسد وقرر أن لا يستسلم حتى آخر قطرة من دمه ، وأدرك ريتشارد قلب الأسد أنه لا يمكن له ولا للفرنج والصليبيين أن يستولوا على بيت المقدس وصلاح الدين على قيد الحياة ، لذلك فقبل صلح الرملة الذي لا يجعل

بيت المقدس تنتقل إلى الصليبيين ، فلا يمكن المقارنة بين الكامل وبين صلاح الدين ، هناك شتان بين الرجلين ، ففردريك واجه شخصية ضعيفة مهزوزة ، شخصية متسامحة إلى حد التفريط بحقوق المسلمين ، فهذه المقارنة غير مقبولة ، على أية حال ، بعد أن تم توقيع الصلح ، في كل عصر نجد بعض المتزلفين وبعض القضاة وبعض العلماء الذين يعمدون إلى تبرير أفعال تكون فيها خسارة للمسلمين ، على سبيل المثال ابن أبي الدم الحموي ، وكان قاضياً أفاض كثيراً بمدح السلطان الكامل وأشاد بصلحه مع فردريك الثاني وتسليمه بيت المقدس وأصدر فتوى قال فيها أنه صالحهم صلحاً تاماً رأى فيه صلاحاً للمسلمين وغبطة وعقد معهم الهدنة الشرعية ، هذا قاله ابن أبي الدم في كتابه التاريخ المظفري ، طبعاً هذا الكتاب ألفه ليقدمه إلى المظفر صاحب حماه وهو زوج ابنة السلطان الكامل ، فلا بد أن يداهن ويصدر فتوى وفيها مداهنة ، كذلك ابن واصل ، له كتابين ، كتاب التاريخ الصالحي ألفه للصالح أيوب وكتاب مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ألفه بعد سقوط الدولة الأيوبية ، في كتابه التاريخ الصالحي الذي ألفه وقدمه هدية باسم الصالح أيوب بن الكامل ، في هذا الكتاب أصدر فتوى أجاز فيها للسلطان الكامل اعطاء بيت المقدس للامبراطور فردريك وقال ان الإمام يجوز له تسليم بلد من البلاد الإسلامية إلى الكفار إذا رأى في ترك التسليم لهم ضرراً ظاهراً لا يمكن تلافيه ، طبعاً ما هناك ضرر لا يمكن تلافيه ، كان يستطيع أن يمنعه ، وفي كتابه الآخر مفرج الكروب الذي ألفه بعد سقوط الدولة الأيوبية ، ابن واصل ندد بذلك الصلح وذكر رأي المسلمين الذين اعتبروا ذلك خيانة للاسلام والمسلمين ، وقامت المآتم واشتدت العظائم في جميع بلاد الإسلام ، طبعاً هذا يبين أن بعض العلماء ممكن أن يصدروا فتاوى لتبرير التفريط في حقوق المسلمين ومقدساتهم بسبب الظروف انهم يعيشون في كنف تلك الدولة وينعمون بخيراتها ولذلك لا بد أن يوافقوا أولئك الملوك مثلما ما فعل ابن الدم الحموي في هذه الفتوي وكذلك ابن

واصل عندما كان يعيش في كنف الدولة الأيوبية . لما انقرضت الدولة الأيوبية وقامت سلطنة المماليك ابن واصل تخلى عن تلك الفتوى وبين ما ساد المسلمين من قلق ومن اضطراب ،من فجيعة بسبب تسليم بيت المقدس ، على أية حال في هذا الوقت تظهر الاحتجاجات ، وكان من ضمن أولئك واحد اسمه ابن أبي زكري كان من قادة السلطان الكامل ومن كبار قادته قال للسلطان : أيها السلطان ابق دمشق على ابن أخيك واستدعه واستدع أخاك الأشرف ودعنا نقاتل هذا العدو فإما لنا وإما علينا ، فلا يقال ان سلطان المسلمين سلم بيت المقدس للأعداء . ولكن السلطان الكامل رفض هذه المشورة وقبض على ابن أبي زكري وصادر أمواله وأرسله معتقلاً إلى مصر ، ليس هذا وحسب بل انه حاول أن يبرر قائلاً : إنا لم نسمح لهم إلا بكنائس وأدر خراب والحرم وما فيه من الصخرة المقدسة وسائر المزارات بيد المسلمين والمسجد على حاله وشعائر الإسلام قائم على ما كان عليه ووالي المسلمين متحكم في رساتيقه وأعماله ، طبعًا هذا التبرير غير مقبول ولم يقبله المسلمون حتى انه لما وصلت الأخبار إلى دمشق المحاصرة بجيوش الكامل والأشرف قامت القيامة داخل دمشق وانتشر السخط العارم ووجد الناصر داود في ذلك وسيلة للتشهير بعمه الكامل فطلب من المؤرخ والواعظ سبط ابن الجوزي أن يقوم في جامع دمشق ويتحدث عن بيت المقدس ووجد سبط ابن الجوزي أنه من الحمية للاسلام موافقته على ذلك ، لذلك جلس في جامع دمشق وأخذ يتحدث عن فضائل بيت المقدس وعن تاريخها وعما بذله صلاح الدين حتى استعادها ، ومما جاء في قوله قائلاً : انقطعت عن بيت المقدس وفود الزائرين يا وحشة المجاورين كم كان لهم في تلك الأماكن من ركعه ، وكم جرت لهم على تلك المساجد من دمعة ، تاللّه لو صارت عيونهم عيونًا لما وفت ، ولو تقطعت قلوبهم أسفًا لما شفت ، أحسن اللّه عزاء المؤمنين ، يا خجلة ملوك المسلمين ، كما ألقى قصيدة تائية عن بيت المقدس حتى أبكى سكان دمشق جميعًا في ذلك اليوم ،

ومما جاء في تلك القصيدة قوله :

مدارس آيات خلت من تـــلاوة ومنـــزل وحـــي مقـفر العرصات

على قبة المعراج والصخرة التي تفاخر ما في الأرض من صخرات

على أية حال ، ذلك لم ينفع في شيء ، بعد ذلك دمشق لم تلبث بعد شهرين أن سقطت استطاع الكامل أن يستولي على دمشق وتسلمها الأشرف ، واقتصرت ممتلكات الناصـر داود على الكرك والشـوبك في شـرق الأردن ، بعـد ذلك جـاء الامبـراطور فردريك الثاني ليتسلم بيت المقدس وأوعز الكامل إلى قاضي نابلس ويسمى شمس الدين بأن يستقبل الامبراطور ويسلمه مفاتيح بيت المقدس ، ويحدثنا هذا القاضي الذي كان متقدماً في الدولـة الأيوبية وله مكانة عند بني أيوب لا سيما عند السلطان الكامل أنه لما جاء الامبراطور واستقبله خارج بيت المقدس وسلمه مـفـاتيح المدينة ، طبـعًا الناس لما جـاء المنادي ينادي من قـبل السلطان ينادي بأنه يجب الخروج من بيت المقدس فمن أراد أن يخرج يخرج فوقعت ضجة في بيت المقدس وصاح الناس واحتجوا على ذلك احتجاجًا كبيراً ، يذكر المؤرخون أن المؤذنين والأئمة في المسجد الأقصى وفي مساجد بيت المقدس الأخرى أخذوا ستائر المسجد والقناديل والفرش وكل ما يتصل بأدوات المسجد وقبة الصخرة وجاؤوا إلى معسكر السلطان الكامل الذي كان مرابطًا في ذلك الحين خارج أسوار دمشق وأذنوا على بابه في غير وقت الصلاة ، يعني آذان احتجاج ، فأمر حرسه بأن يزجروهم وسلبوا ما معهم وطردوهم خارج المعسكر. على أية حال بعد ذلك استقبل شمس الدين قاضي نابلس الامبراطور فردريك الذي جاء بقواته الخاصة ، طبعًا هو أصبح امبراطوراً محروماً من الكنيسة لذلك انفض عنه الصليبيون في الشام ، فلم يمش معه لا الداوية ولا الاسبتارية ولا أيضًا بطريق بيت المقدس ولا الفرنج في عكا ، إنما جاء بالقوات الخاصة الألمانية

ودخل بيت المقدس وتسلم المفاتيح من شمس الدين وأقام في دار الداوية ، طبعًا هو كان في ذلك الحين وصيًا على ابنه لأنه أنجب من يولاند ابنه كونراد الذي أصبح الوريث لأن يولاند ماتت في أوربا بعدما أنجبت كونراد ، فأصبح ابنه كونراد هو الوريث الشرعي في نظرهم لبيت المقدس ، وطبعًا باعتباره وصيًا يصبح فردريك الملك الوصي على بيت المقدس حتى يكبر ابنه ويتسلم بيت المقدس ، على كل حال أراد أن يتوج نفسه ملكًا على بيت المقدس في كنيسة القيامة فوضع التاج بيده على رأسه باعتباره تلقى التاج من المسيح ، على أية حال هذا لم يرض الصليبيين وأرسل بطريق بيت المقدس مندوبًا من قبله أوقع الحرمان على بيت المقدس حتى لا يسكنه أحد من الصليبيين فأصبحت أيضًا مدينة محرومة حتى يرتفع قرار الحرمان عنها . ويذكر شمس الدين قاضي نابلس بأنه دخل مع الامبراطور فردريك إلى المسجد الأقصى فقال دخل إلى المسجد ووصل إلى المحراب وأخذ يتأمل نقوشه ثم رأى ذلك المنبر الذي كان قد صنعه نور الدين وجاء به صلاح الدين فتأمل صنعته ونقوشه فأعجبه ثم صعد عليه ونزل ثم بعد ذلك خرج من المسجد وعند الباب وجد قسيسًا أو راهبًا نصرانيًا في يده الانجيل يهم بالدخول إلى المسجد الأقصى فانتهره وقال إنَّا مماليك هذا السلطان وعبيده وما منحنا هذه الأماكن المقدسة إلا بفضل منه فوالله لو تعدى أحد منكم طوره لآخذن ماء عينيه وزجره وهرب ذلك الراهب أو عاد ادراجه ، ثم ذهب ينظر في قبة الصخرة فدخل إلى القبة وأخذ يتأملها ويتأمل النقوش التي فيها ووجد فيها كتابة كتبت بعد أن فتحها صلاح الدين مكتوب فيها : لقد طهر هذا المكان المقدس السلطان صلاح الدين من المشركين ، فتعجب وقال من هم المشركون ؟ وسأل البواب أو قوام قبة الصخرة سأله عن سر وجود تلك الشبّاك الموجودة على نوافذ قبة الصخرة ؟ فقال هذه الشبّاك تمنع العصافير من الدخول ، فرد مبتسمًا ، (يعني نكتة) قال جاء الله إليكم بالخنازير ، يقصد نفسه ومن معه من اتباعه ،

طبعًا هذا يبين أنه يعرف من ثقافته أن المسلمين يطلقون على النصاري الخنازير ، هذه التصرفات أثارت دهشة المؤرخين المسلمين . سبط ابن الجوزي والعيني وغيرهما يقولون ان الامبراطور فردريك الثاني كان دهريًا يتلاعب بالنصرانية أي ملحدًا ، بينما يقول ابن الفرات وآخرون يبدو انه كان مسلمًا في الباطن ، والله أعلم بحاله ، ولكن الحقيقة انه كان دهريًا لأنه ظهر كتاب فيما بعد منسوب إليه ذلك الكتاب يسمى « الأدعياء الثلاثة » ويقصد الأنبياء الثلاثة العظام صلوات الله وسلامه عليهم موسى وعيسى ومحمد ، طبعًا هذا يبين انه كان دهريًا ملحدًا لكنه كان متسامحًا مع المسلمين ولم يكن يحب النصارى ، حتى انه اعتذر لفخر الدين ابن الشيخ وقال والله ما كنت أريد أن اكلف السلطان أو احرجه في هذه الاتفاقية وانما أردت ان احفظ ناموسي عند الفرنج وليس لي غرض في بيت المقدس أو في غيره . يذكر شمس الدين أن السلطان الكامل أمره (طبعًا هذا يبين مدى التفريط) قال أمرني السلطان ان آمر المؤذن في المسجد الأقصى أن لا يؤذن من على المئذنة في الفجر ، يؤذن داخل المسجد حتى لا يؤذي الامبراطور ، قال نسيت أول ليلة أن ابلغه بذلك الأمر فصعد المؤذن عبد الكريم على المئذنة في السحر وأخذ يتلو الآيات الخاصة بالنصارى ثم أذن بعد ذلك، وبعد ذلك أخبرته بأمر السلطان الكامل ، قال في الليلة التي بعدها لم يؤذن فسألني الامبراطور فردريك لماذا لم يؤذن المؤذن فأخبرته بأمر السلطان ، فقال الله الله يا قاضي لا تفعلون هذا هل لو جئت أنت أو السلطان إلى بلادي هل كنت أوقف ضرب الناقوس لأجلكم ؟ إذا فعلتم هذا فإنكم تنقصون عندنا فوالله ما كان لي غرض من المبيت في بيت المقدس إلا لسماع آذان المؤذنين (تصرفات عجيبة من هذا الامبراطور) على أية حال ، غادر هذا الامبراطور إلى الغرب فدخل في نزاع طويل مع البابوية حتى استطاع تقريبًا بعد أربع سنوات أن يرفع قرار الحرمان وظل على علاقته الوطيدة مع السلطان الكامل بحيث انه ظلت المراسلة قائمة بينهما وبعد السلطان

الكامل ظلت المراسلة مع ابنه العادل الثاني ثم السلطان الصالح أيوب وفردريك حتى أنه زمن الحرب الصليبية السابعة التي جاء بها ملك فرنسا لويس التاسع حاول فردريك الثاني أن يثني عزم لويس السابع من القيام بحملته وخوفه فلم يستجب لذلك فأرسل رسالة قبل وصول لويس السابع إلى الصالح أيوب يخبره بمجيء ملك فرنسا على رأس حملة كبيرة ويحذره منه قال أنا بذلت جهدي (لأنه في الاتفاقية أن يعرقل أو لا يشترك في أي جهد صليبي) على أية حال ، بهذا تنازل الكامل عن بيت المقدس وسلمه للصليبيين ، المسجد الأقصى وقبة الصخرة ظلت في أيدي المسلمين ، والقرى المحيطة ببيت المقدس كانت بأيدي المسلمين ، على أية حال ، بعد رحيل فردريك الثاني ، كانت هذه الاتفاقية خاصة بمملكة بيت المقدس التي كانت لابنه كونراد أما طرابلس وانطاكية في الشمال فلم تشملها الاتفاقية ولذلك ظلت الحروب قائمة من الداوية والاسبتارية في الشمال والاشتباكات قائمة مع مملكة حماه ومملكة حمص ومملكة حلب وكان آخر تلك المعارك معركة جرت عام ٦٣٤ هجرية بين الداوية في بغراس وبين مملكة حلب حيث يذكر المؤرخون أنه حدث أن مات العزيز ابن الظاهر غازي ملك حلب وخلفه ابنه الطفل يوسف وأصبحت جدته ضيفة خاتون بنت العادل هي الوصية على ابن ابنها ، وانشغل الحلبيون بتشكيل مجلس وصاية على الطفل الصغير حتى يكبر واستغل الداوية في قلعة بغراس الواقعة بين انطاكية وبين قليقية في الشمال استغلوا تلك الفترة وهاجموا ريف حلب غربي حلب واستولوا على الماشية وعلى الاغنام فخرج جيش حلب بقيادة طوران شاه ابن صلاح الدين وطارد الداوية وحاصرهم في قلعة بغراس ثم كاد ان يستولي عليها فتدخل بوهيموند الخامس أمير انطاكية وأصلح بين الجانبين ..عقد بينهم هدنة وعاد طوران شاه إلى حلب ، لكن الداوية معروف عنهم انهم ينقضون العهود والمواثيق ، فما ان انسحب عسكر حلب حتى هاجموا حصن دربساك المجاور ، وكان حصن دربساك على زمن

صلاح الدين تابعًا أيضًا للداوية ، فأرادوا استرداده من المسلمين ، فصمدت حامية دربساك وهي إلى الشمال الشرقي من بغراس ، وصمد المسلمون عند بغراس وأرسلوا يستنجدون بجيش حلب فجاء طوران شاه ، وكانت خيول الصليبيين قد تعبت وكلت من الحرب ، فهاجم الداوية وأنزل بهم هزيمة ساحقة وقتل مقدمهم في انطاكية ويسمى وليم منتفرات ومقدمهم في بغراس ويسمى افرنز توماس وقتل منهم أعداداً كبيرة ، يذكر ابن العديم ان هذه المعركة فتت في أعضاد الداوية فلم ينتعشوا بعدها أبدا وقضت على قوتهم الرئيسية في شمال الشام ولم يعودوا يشكلون خطراً على المسلمين .

على أية حال ، بعد ذلك الأحوال الداخلية داخل الدولة الأيوبية أثرت على الجبهة الإسلامية ذلك أن الكامل والأشرف . ظل الأشرف يحكم في دمشق والكامل في مصر ثم بعد ذلك حدثت حروب بين الأيوبيين وبين سلاجقة الروم ، في البداية تحالف سلاجقة الروم مع الأيوبيين لمواجهة خطر جلال الدين وهزموه في معركة ياسي جمن عام ٦٢٧ هجرية لكن بعد مقتل جلال الدين وتفرق أتباعه في آسيا الصغرى ، طمع الكامل في أن يستولي على سلطنة سلاجقة الروم ، بحيث يستولي عليها لكي يتخلص من ملوك الشام ويفتح بلاد آسيا الصغرى فيوزعها بين ملوك الشام والأيوبيين ويوحد بلاد الشام مرة أخرى تحت لوائه . وسارت الحملة وكان معه سبعة عشر ملكاً من ملوك بني أيوب ، يذكر المؤرخون أن السلطان ، سلطان سلاجقة الروم علاء الدين كيقباذ وضع الحراسات على الطرق المؤدية إلى آسيا الصغرى وكذلك أسهم الأشرف والمجاهد صاحب حمص في فشل حملة الكامل ، بعد ذلك فشلت الحملة وعاد الكامل إلى مصر ، ثم تحالف ملوك الشام بزعامة الأشرف موسى وبزعامة المجاهد أسد الدين شيركوه بن محمد شيركوه صاحب حمص مع حلب وتحالفوا جميعًا ضد السلطان الكامل حتى لا يأتي إلى بلاد الشام ويهدد نفوذهم . استمرت المشاحنات بين الجانبين

زمنًا طويلاً وأراد الكامل أن يحاصر دمشق لكن قبل خروجه إليها مات الأشرف موسى سنة ٦٣٥ هجرية بعد أن عهد بدمشق إلى أخيه الصالح إسماعيل بن العادل . كان الأشرف في البداية قد أراد أن يستميل إليه ابن أخيه الناصر داود الذي كان في الكرك والشوبك وعرض عليه أن يزوجه من ابنته الوحيدة (فلم يكن له أبناء) ويصبح وريثه في دمشق لكن في نفس الوقت جاءت رسالة من الكامل يطلب من الناصر داود أن يأتي إلى مصر لينضم إليه ووعده بأن ينتزع له دمشق فاستشار والدته فأشارت عليه بأن يذهب إلى عمه الكامل وكان هذا من سوء حظه لأن الكامل كان له أبناء ولا يمكن أن يفرط في دمشق إذا استولى عليها فأخطأ وذهب إلى الكامل وانضم إليه ، على أية حال ، بعد ذلك مات الأشرف فأنهت وفاة الأشرف مرحلة من العلاقات بين أبناء الكامل لتبدأ مرحلة أشد قلقًا واضطرابًا وما يمكن أن أسميه بالحرب الأهلية التي اندلعت من سنة ٦٣٥ هجرية إلى سنة ٦٤٢ هجرية ، وهي المرحلة التي ألقت بظلالها وآثارها على بلاد الشام ذلك أن الكامل لما مات الأشرف جاء إلى الشام للاستيلاء على دمشق التي كان قد عهد الأشرف موسى بها إلى أخيه الأصغر منه الصالح اسماعيل الذي كان يتولى بعض المناطق في غربي دمشق فجاء الكامل وحاصر دمشق حصارًا شديدًا ، وخلال ذلك الحصار قتل عدد من الناس ، وأحرقت دور كثيرة ، وفي نهاية المطاف أرسل الصالح إسماعيل إلى الكامل رسالة يقول فيها : والله إذا لم تكف عني لجعلت النار في أربع جوانبها وأحرقتها فلا لي ولا لك ، وكان متهورًا ، لذلك قبل الكامل مساعي الصلح بينه وبين الصالح اسماعيل على أن يتسلم الكامل دمشق ويقطع الصالح اسماعيل بعلبك وبعض المناطق غربي دمشق ، فتسلم الكامل دمشق سنة ٦٣٥ هجرية ، وبعد ان استولى عليها لم يلبث أن مات سنة ٦٣٥ في نفس العام ، من هنا تبدأ الحرب الأهلية ، بالنسبة للعلاقة مع الصليبيين في بيت المقدس وفي عكا ، الصلح ما زال قائمًا . على أية حال نشبت حرب أهلية طويلة

ومدمرة ولن نخوض في تفاصيلها كثيراً إنما نشير إلى أن تلك الحرب في البداية لما مات السلطان الكامل أصبح الوريث لمصر هو ابنه الآخر العادل الأصغر، وكان ابنه الأكبر الصالح أيوب في الجزيرة ، يحكم مناطق في الجزيرة ، بعد ذلك تولى مؤقتًا ولاية دمشق ابن أخيه الجواد يونس ابن مودود ابن العادل ، وباعتبارها تابعة للعادل فأرسل إليه يطلب منه أن يقطعه دمشق فرفض العادل الثاني أن يقطعه دمشق عند ذلك أرسل الجواد يونس إلى الصالح أيوب يطلب منه أن يأتي، ليسلمه دمشق ، فجاء الصالح أيوب وتسلم بالفعل دمشق ، أيضًا حاول الناصر داود استرداد دمشق لكن الجيوش طردته منها فذهب إلى الكرك والشوبك ، وبعد أن استولى الصالح أيوب على دمشق أراد أن يذهب إلى مصر لانتزاعها من أخيه العادل ، وذهب إلى مصر ولكنه رابط في نابلس ، ذلك انه جاءته رسائل من جيوش مصر تطلب منه أن يأتي إلى مصر وينضمون إليه ضد أخيه العادل ، وأقام في نابلس فترة طويلة ، وحدث أنه أثناء اقامته في نابلس راسل عمه الصالح اسماعيل لينضم إليه لكن الصالح اسماعيل استطاع أن يخادعه واستطاع أن يناور حتى تمكن في نهاية المطاف من أن يستولي الصالح اسماعيل على دمشق بالحيلة والخديعة من الصالح أيوب فانفض أتباعه عنه انفضوا عن الصالح أيوب ، بعد ذلك لجأ الصالح أيوب إلى الناصر داود الذي اعتقله في قلعة الكرك فترة من الزمن ، ثم بعد ذلك أرسل الناصر داود إلى العادل الثاني يطلب منه ان يسلمه دمشق مقابل تسليم الصالح أيوب فرد العادل الثاني : سلم لي الصالح أيوب وأسلمك دمشق ، قال الناصر داود : سلمني أولاً دمشق ، عند ذلك رفض العادل الثاني ، عند ذلك أطلق الناصر داود سراح الصالح أيوب وكانت الرسائل قد جاءت من مصر من الجنود بانهم يميلون إلى الصالح أيوب لأن العادل الثاني كان متهتكًا وكان لاهيًا ولم يهتم بالجيش عند ذلك ذهب الصالح أيوب ولما وصل إلى مصر انضمت إليه عساكر بني أيوب في مصر وجرى القبض على العادل وأصبح

الصالح أيوب ملكًا على مصر وأراد أن ينتقم من الصالح إسماعيل الذي خدعه واستولى على دمشق ومن هنا بدأت الحرب الأهلية والتي ألقت بظلالها وآثارها على الموقف بين المسلمين والصليبيين ، وكان أن انتهت المعاهدة بين الجانبين بعد مضي عشر سنوات وبعد ذلك دعا البابا جريغوري التاسع لحملة صليبية جديدة فاستجاب له عدد من الأمراء الفرنسيين منهم ثيبالد الرابع ملك نافار وأمير شامبني وبطرس مكلرك دوق بريتاني وعدد من الأمراء الآخرين ، كان ذلك عام ٦٣٧هجرية / ١٢٣٩ ميلادية ، وصلت الحملة الصليبية إلى عكا في ذلك العام وسمع الصليبيون أن هناك قافلة تجارية في وادي الأردن فذهبوا إليها وانقضوا عليها واستولوا عليها بالكامل وسلبوها ، أرسل الصالح أيوب في ذلك الحين أحد قادته العسكريين إلى غزة ويسمى ركن الدين الهيجاوي وكان الصليبيون يريدون إعادة بناء عسقلان ، هناك اصطدم ركن الدين الهيجاوي في معركة غزة الأولى مع الصليبيين وأنزل بهم هزيمة كبيرة وقتل منهم ألف وثمانمائة وأسر ثلاثمائة وثلاثين رجلاً ، وبعد تلك الضربة التي تلقتها الحملة الصليبية عادت فلول الصليبيين إلى عكا فاستغل الناصر داود تلك الهزيمة وانقض على بيت المقدس واستولى عليها واستردها في جمادى الأولى عام ٦٣٧ هجرية / في ديسمبر ١٢٣٩ ميلادية ، طبعًا مدينة بيت المقدس كانت لا تحتاج إلى حصار لأن أسوارها مهدمة ولم يبن الصليبيون إلا قلعة عند برج داود وحصنوها فجاء الناصر داود واستغل تلك الهزيمة التي حلت بالصليبيين واستولى على بيت المقدس وتفاخر بذلك ومدحه الشعراء بتلك المناسبة ، لكنه في الحقيقة انضم إلى الصالح اسماعيل وذلك العمل الذي قام به الناصر داود لم يلبث أن دمر أو ذهب أدراج الرياح بعد فترة قصيرة عندما تحالف مع الصالح اسماعيل الذي تحالف بدوره مع الصليبيين ، على أية حال ، الصالح اسماعيل أراد أن يقف في وجه الصالح أيوب صاحب مصر عند ذلك تحالف مع الصليبيين وأرسل لهم يطلب التحالف معهم وعرض

عليهم أن يسلمهم بيت المقدس وهونين وتبنين وصفد وقلعة الشقيف وعدد من المناطق التي كانت في أيدي المسلمين فوافقه الصليبيون على ذلك وعقد التحالف بينهم وبين الصالح اسماعيل ، ويذكر المؤرخون أن الصليبيين جاؤوا إلى دمشق لشراء السيوف والسلاح من دمشق عاصمة الشام فتحرج تجار السلاح من بيع السلاح للصليبيين فاستفتوا عبد العزيز بن عبد السلام استفتوه هل يجوز بيع السلاح للصليبيين فقال لا ، لأنهم يشترونه ليقتلوا به اخوانكم المسلمين فرفضوا بيعهم السلاح ، كان العز بن عبد السلام في ذلك الحين هو إمام الجامع الأموي في دمشق التي كان يحكمها الصالح اسماعيل ، ففي خطبة الجمعة أسقط اسم الصالح اسماعيل من الخطبة بعد أن كان يدعو له باعتباره الملك ، فأسقط اسمه من الخطبة واستبدل الدعاء للصالح اسماعيل بقوله اللهم ابرم لهذه الأمة أبرام رشد يعز فيها أولياؤك ويذل فيه أعداؤك ويؤمر فيه بالمعروف وينهى فيه عن المنكر . هذا الدعاء من ابتكار العز بن عبد السلام ، وظل بعد ذلك المسلمون عدة قرون يستخدمون هذا الدعاء .

على أية حال الصالح اسماعيل لم يكتف بهذا بل ارتكب أعمالاً تعتبر خيانة عظمى بحق الإسلام والمسلمين ، منها ما ذكره بعض المؤرخين المسلمين انه من شروط تحالفه من الصليبيين أن يسلمهم حصن الشقيف أو قلعة الشقيف ، القلعة ذات الموقع الاستراتيجي في جنوب لبنان الحالية ، ومعروف ان هذه القلعة صلاح الدين حاصرها تسعة أشهر حتى استولى عليها من الصليبيين فأرسل إسماعيل إلى والي قلعة الشقيف المسمى الحاج موسى يطلب تسليمه لفرسان الداوية الصليبيين ، فقال الحاج موسى : والله لا جعلته في صحيفتي ، لأنه حصن مهم للصليبيين ، ولأن في تسليمه وزر عظيم ، يعادل الحسنات التي حصل عليها صلاح الدين وجيشه وهم يحاصرون ذلك الحصن حتى استولوا عليه ، بعد حصار استمر مدة تسعة أشهر ، فقال والله لا جعلته في صحيفتي . فأرسل إليه

الصالح اسماعيل يستدعيه وضربه ضرباً مبرحاً حتى قتله ، وصادر كل ممتلكاته ، فعصت حامية قلعة الشقيف عصت على الصالح اسماعيل بزعامة رجل اسمه أحمد الشقيفي ورفضت تسليمه للصليبيين فخرج الصالح اسماعيل من دمشق فجاء بقواته وحاصر الحامية ، فلما حاصرهم استسلم رجال الحامية وقالوا أنت حاصرتنا فنحن نسلمه لك ولا يحل لنا نحن أن نسلمه للفرنج فافعل به ما تختار ، عند ذلك طردهم من الحصن وسلم تلك القلعة المهمة لفرسان الداوية . لم يكتف الصالح اسماعيل بهذا (يلقب الصالح اسماعيل ، أحياناً يلقبه المؤرخون باسم أبي الخيش) لم يكتف بهذا بل لما سلمهم صفد ، وصفد كانت قلعة مهمة لكن دمرت زمن الحرب الصليبية الخامسة فأرادوا بناءها لأنها ذات موقع استراتيجي هام ، أرادوا بناء قلعة صفد ، وطبعاً البنيان يحتاج إلى أيدي عاملة ، فالفرنج لم يكونوا يملكون أي أيدي عاملة فجمعوا في ساحل الشام ما بأيدي الصليبيين من أسرى المسلمين وكان عددهم ألف أسير ، وسخروهم للعمل بالقوة لنقل الأحجار وفي بناء قلعة صفد ، وجعلوا معهم مائتي فارس لحراستهم ، في أثناء ما كانوا يعملون وجدوا أنهم ألف وهؤلاء الحرس مائتين يستطيعوا أن ينقضوا عليهم ويجردوهم من أسلحتهم ويستولون على القلعة خاصة بعد أن بنوا وبدأت جدران القلعة ترتفع ، فتشاوروا فيمن يتسلمها . فأرسلوا رسالة إلى والي عجلون من قبل الناصر داود صاحب الكرك يطلبون منه إن انقضوا على حراسهم وجردوهم من أسلحتهم وقتلوهم أن يأتي ليتسلم صفد ، فوالي عجلون أرسل تلك الرسالة إلى الناصر داود باعتباره سيده فوصلت الرسالة إلى الناصر داود الذي أرسلها بدوره إلى الصالح اسماعيل بدمشق ، الصالح اسماعيل كان بامكانه أن يهمل الرسالة أو يرسل سراً إلى اولئك الأسرى يحذرهم من فعلتهم لكنه أرسل رسالة أولئك الأسرى إلى الداوية في عكا ، إلى الصليبيين فرسان الداوية ، فجاء الصليبيون وقبضوا على أولئك الأسرى الألف فدخلوا بهم عكا وذبحوهم عن

آخرهم ، فبذلك يكون الصالح اسماعيل ارتكب جرگًا شنيعًا يتنافى وسائر القيم الخلقية ناهيك عن خيانة الوطن والدين والشرف ، على أية حال بعد ذلك الصالح اسماعيل أراد أن يذهب إلى مصر للاستيلاء عليها ، فخرج بقواته وانضم إليه قوات من قبل صاحب حمص وسار ، وتحالف مع الصليبيين ليزحفوا جميعًا إلى مصر ، في ذلك الحين كان هناك قوة أو جيش من مصر أرسله الصالح أيوب والتقوا في جنوب فلسطين عند غزة ولما وقعت المعركة انضم عدد كبير من فرسان الشام من جيوش الشام من جيوش الصالح اسماعيل وحمص إلى جيوش مصر وانقضوا جميعًا على الصليبيين وأنزلوا بهم هزيمة كبيرة ، وأسروا عددًا كبيرًا منهم وساقوا عددًا كبيرًا من الأسرى الذين استخدمهم الصالح أيوب في بناء قلعة الروضة في جزيرة الروضة في النيل .

بعد ذلك الصالح أيوب اتصل بالصليبيين وتنازل لهم عن عسقلان على أن يعيدوا بناءها مقابل أن يقفوا على الحياد بينه وبين الصالح اسماعيل ، بعد ذلك جرت أمور كثيرة ، من ضمن تلك الأمور التي جرت ان الصليبيين جاؤوا إلى نابلس عام ٦٤٠هجرية يوم الجمعة ووصلوا إلى المسجد الجامع في نابلس والناس يصلون الجمعة فدخلوا الجامع وقتلوهم عن آخرهم ، ثم ذهبوا إلى قرية من قرى نابلس وكان الناس ما زالوا يصلون وكان معهم الجواد يونس انضم إلى الصليبيين مع عمه اسماعيل وقتلوا في المسجد الف مسلم ولم يتكلم بكلمة واحدة ، فبعد ذلك جاء مندوب الخلافة العباسية محي الدين ابن الجوزي واتصل بالصالح أيوب وعمه الصالح اسماعيل وحاول أن يصلح بينهما على أن تبقى دمشق بيد الصالح اسماعيل والصالح أيوب يبقى بيده مصر وكل واحد يحتفظ بما تحت يديه خاصة وان الصالح اسماعيل كان قد قبض على المغيث عمر ابن الصالح أيوب الذي كان في القلعة واعتقله . وكاد الاتفاق أن يتم لكن وقعت رسالة سرية أرسلها الصالح أيوب إلى الخوارزمية اتباع جلال الدين منكبرتي الذين كانوا في الجزيرة

وكانوا قد أغاروا على حمص وعلى حلب وجرت معارك ووقائع بين حلب وحمص من ناحية وبين الخوارزمية وتكبد فيها الخوارزمية خسائر ، وانتهج الخوارزمية سياسة السلب والنهب والقتل مثلما يفعله المغول فأرسل الصالح أيوب يستنجد بحلفائه الخوارزمية فقد حالفهم لما كان في الجزيرة وذكر في تلك الرسالة بانه انما يريد من ذلك الصلح حتى يطلق سراح ابنه المغيث عمر ، عند ذلك لما وقعت الرسالة بيد الصالح اسماعيل قتل المغيث عمر وانفرط ذلك الاتفاق الذي كاد أن يتم وعادت الحرب من جديد بين الجانبين عند ذلك اتصل الصالح اسماعيل بالصليبيين وتحالف معهم تحالفًا شاملاً هو والمنصور ابراهيم ابن أسد الدين شيركوه صاحب حمص الذي خلف والده بعد موته وانضم إلى الحلف الناصر داود وانضمت إليه أيضًا مملكة حلب الأيوبية وتحالف معظم ملوك الشام مع الصالح اسماعيل واتفقوا مع الصليبيين على ان يسلموهم كل ما هو غرب الماء أي كل ما يقع غرب نهر الأردن بما فيها المسجد الأقصى وقبة الصخرة وأن يسيروا معهم للاستيلاء عليها ويعطوهم جزءًا من أرض مصر .

جرى الاتفاق بهذا الشكل ثم أرسل الصالح أيوب من قبله رسالة أخرى إلى الخوارزمية يحثهم على المسير ضد أعدائه في بلاد الشام فعبر الخوارزمية الفرات وكان عددهم عشرة آلاف فارس سنة ٦٤٢هجرية ووصلوا إلى نابلس وإلى بيسان وإلى صفد واستردوها ثم دخلوا إلى بيت المقدس ، قبل وصولهم إلى بيت المقدس كان الصليبيون تسلموا بيت المقدس من إسماعيل ، يذكر المؤرخ جمال الدين بن واصل قال : وكنت ذهبت إلى مصر عام ٦٤١ فمررت ببيت المقدس فوجدت المسجد الأقصى قد ابطل فيه الآذان والإقامة ودخله الفرنج وانتهكوا حرمته ووضعوا قناني الخمر على الصخرة المقدسة داخل قبة الصخرة ووضعوا قناني الخمر لأجل القربان المعروف عندهم وعلقوا جرس في المئذنة ليدعو إلى الصلاة النصرانية الشركية و بعد ذلك ذهب ابن واصل إلى مصر ، ودخل الخوارزمية بعد

ذلك إلى بيت المقدس سنة ٦٤٢ هجرية ، لما دخلوا إلى بيت المقدس ووجدوا فيه ستة آلاف من الصليبيين فأنزلوا بهم هزيمة ساحقة ماحقة وقتلوا منهم ألفين وطاردوا الباقين حتى أسوار عكا ، ولم ينج من أولئك الستة آلاف سوى ثلاثمائة فقط ، على أية حال ، بعد ذلك خرجت جيوش الشام التي تتكون من الجيوش التي حشدها الصالح اسماعيل وجعل القائد العام على جيوشه وجيوش الشام المنصور ابراهيم صاحب حمص ، فخرج المنصور وأرسل الصالح اسماعيل إلى الناصر داود في الكرك والشوبك يطلب ارسال عسكره فأرسل عسكره بقيادة اثنين من قواده ثم ذهب المنصور وتلك الجيوش التي معه ودخل إلى عكا وعقد مجلساً حربياً مع الصليبيين واتفقوا على ان يحتشد كل الصليبيين في ساحل الشام للقيام بتلك الحملة على مصر ، فخرجوا متجهين إلى مصر . أما الخوارزمية فقد وصلوا إلى غزة ورابطوا فيها وأرسلوا إلى الصالح أيوب يطلبون منه القدوم لمساعدتهم وإرسال الجيش المصري التابع له للإنضمام إليهم بعد ذلك جاءت حشود الصليبيين ومعهم ملوك الشام الخونة وجيوشهم التي حشدها الصالح اسماعيل الذي يعتبر رأس الخيانة والفتنة ، فيذكر المؤرخون المسلمون أنه كان في قلب جيش الصالح اسماعيل المنصور صاحب حمص ومملكة حلب والميمنة كان يتولاها الصليبيون بالكامل والميسرة كان بها جيش الناصر داود ، ويذكر المؤرخون أن الرهبان والقسس والأساقفة النصارى كانوا يدورون على كتائب المسلمين يصلبون على صدورهم ويسقونهم كاسات الخمر المعدة للقدّاس يسقونهم بأيديهم ، وكان في أعلى الرايات والصواري الصلبان ، فسار ذلك الجيش المتحد من الخونة ومن الصليبيين فوصلوا إلى عند غزة حيث وقعت معركة في مكان يسمى أربيا إلى الشمال على بعد عدة أميال من غزة إلى الشمال الشرقي حيث التقى الجمعان جموع الجيوش الشامية والصليبية وجيوش الخوارزمية وجيش مصر التقوا في ١٢ جماد الأولى عام ٦٤٢ هجرية / ٧ اكتوبر عام ١٢٤٤ميلادية ، ووقعت معركة

حامية الوطيس وفي بداية المعركة انهزم الجيش المصري التابع للصالح أيوب وفروا حتى وصلوا إلى العريش ، أما الخوارزمية فقد ثبتوا في المعركة فقاتلوا قتالاً باسلاً فانهزم القلب الذي كان فيه المنصور صاحب حمص وهُزمت جيوش الصالح اسماعيل ثم هُزمت الميسرة عند ذلك لم يبق إلا الميمنة التي فيها الصليبيون فطوقها الخوارزميون طوقوا الصليبيين وأنزلوا بهم هزيمة ماحقة ساحقة قتل معظمهم ، يدلل المؤرخون الأوربيون على فداحتها على أنه اشترك من فرسان الداوية فيها ثلاثمائة وثلاثين فارس لم ينج منهم إلا ثلاثة وثلاثين واشترك فيها مائتين من الاسبتارية ولم ينج منهم إلا ستة وعشرون وكلهم وقعوا أسرى وقتل زعيم الاسبتارية ووقع زعيم الداوية في الأسر .

هذه المعركة يسميها بعض المؤرخين المسلمين حطين الثانية ، ويذكر بعض المؤرخين انه لم يجر مثلها ما عدا حطين ، لا في زمن صلاح الدين ولا بعد صلاح الدين . هذه تعتبر المعركة الثانية يدلل سبط ابن الجوزي المؤرخ المعاصر على ضخامتها قال : كنت مسافراً إلى مصر في ذلك الحين وصبحت وثاني يوم الهزيمة ... إلى ميدان المعركة ، بعدما فرت فلول تلك الجيوش ووجدت الناس يعدون الجثث بالقصب ، فقالوا هم زيادة على ثلاثين ألفًا من القتلى من الصليبيين ومن العساكر الشامية التي انضمت إلى الصليبيين .

هذه المعركة قضت على القوة الرئيسية للصليبيين في بلاد الشام ، وإذا كان قد طال عمر الوجود الصليبي بعد ذلك نحو نصف قرن من الزمان فإن مرد ذلك هو ما حدث من سقوط الدولة الأيوبية ومجيء الحملة الصليبية السابعة وظهور المغول وقيام دولة المماليك وما حدث من تطورات سنتناولها ان شاء الله فيما بعد .

على أية حال ، بعد تلك المعركة ، الخوارزمية طاردوا الصليبيين حتى أسوار

عكا وشعر المنصور ابراهيم ملك حمص بالخزي ، وشعر بالندم والخجل حتى أن أمواله وذخائره نهبت في المعركة وأخذ يبحث عن شاش يتعمم به فلم يجد فأخذ يبكي ندماً وحرقة ويقول : علمت أننا لما سرنا تحت صلبان الفرنج أنا لا نفلح ، بعد ذلك نجده ينضم إلى الصالح أيوب ليكفر عن ما حدث في هذه المعركة ، على أية حال ، الصالح أيوب لم يشأ أن يطارد الصليبيين قبل أن يقوم بتقليم أظافر خصومه في بلاد الشام فأمر جيشه وأمر الخوارزمية بالذهاب لحصار دمشق وانتزاعها من الصالح اسماعيل ، وبالفعل حاصروا دمشق بقيادة معين الدين ابن شيخ الشيوخ واستمر الحصار وقتًا طويلاً ، (معين الدين ابن شيخ الشيوخ هو أخو فخر الدين ابن شيخ الشيوخ) وحاصروها حصاراً شديداً حتى تم الاستيلاء عليها ونُزِعت من الصالح اسماعيل وأُقطع مقابل تسليمه بعض الإقطاعات رغم أنه جرت خلالها معارك كثيرة بين الجانبين ودمرت دور ومناطق كثيرة في دمشق خلال ذلك الحصار ، لكن في النهاية سلم الصالح اسماعيل دمشق على أن يُعطى بعلبك ودخلتها جيوش الصالح أيوب ، بعد ذلك تمكن الصالح أيوب من محاصرة عسقلان عن طريق غلامه ركن الدين بيبرس (وهو غير الظاهر بيبرس الملك المملوكي الذي ظهر فيما بعد انما هو تشابه في الاسم) فحاصروا عسقلان عام ٦٤٦هجرية واشتد الحصار عليها وجاءت لها نجدات من قبرص ومن عكا بلغت ٦٥ سفينة وزودت عسقلان بالماء وما تحتاجه ، ثم أرسل الصالح أيوب الأسطول ولكن تحطمت بعض قطع الأسطول ، على أية حال ، بعد ذلك شدد الصالح أيوب الحصار على عسقلان حتى تم الاستيلاء عليها عام ٦٤٦ هجرية ، ولم يشأ الصالح أيوب ان يحتفظ بها إنما أمر بهدم تحصيناتها بالكامل حتى إذا وقعت بيد الصليبيين لا يستفيدوا منها ، ثم بعد ذلك أخذ الصالح أيوب يوطد نفوذه في بلاد الشام خاصة بعد ان انضم إليه المنصور صاحب حمص ، ذلك لأن الخوارزمية لم يلبثوا أن خرجوا على الصالح أيوب لأنهم كانوا يتوقعون أن

يكافئهم الصالح أيوب باقطاعات مهمة في دمشق وغيرها لكن الصالح أيوب أقطعهم بعض الاقطاعات في الساحل وهذا سوف يدخلهم في نزاع مع الصليبيين، فأرسلوا إلى الصالح اسماعيل وانقلبوا على الصالح أيوب وجاؤوا وحاصروا دمشق حصاراً شديداً إلا أن الصالح أيوب استطاع أن يحشد بعد ان استمال إليه المنصور صاحب حمص وأخذ يحشد قوات عند حمص ، فعند ذلك خرج الخوارزمية وتركوا حصار دمشق وذهبوا للقضاء على جيوش الصالح أيوب والمنصور عند حمص ، وهناك جرت معركة أنزلت فيها جيوش الصالح أيوب الهزيمة بالخوارزمية فتفرقوا أيدي سبأ ، منهم من انضم إلى الصالح أيوب ومنهم من عاد إلى الجزيرة ومنهم من انضم إلى الناصر داود ، على أية حال ، بعد ذلك تمكن الصالح أيوب من إعادة نفوذه بالكامل أو إعادة الوحدة بين مصر والشام فجاء إلى الشام وأعاد بناء وتحصينات بيت المقدس وأنفق فيه أموالاً طائلة وأنشأ فيه الكثير من المدارس وحصن مدن الشام وخضعت له بلاد الشام حتى أذعنت أيضاً بعد ذلك حلب فعادت الوحدة من جديد بين مصر والشام فما أن جاء سنة ٦٤٦ هجرية إلا واستطاع الصالح أيوب أن يعيد وحدة الدولة الأيوبية من جديد مثلما كانت عليه زمن السلطان صلاح الدين والسلطان العادل . لكن الصالح أيوب كان مرتبطاً بظروفه . خاصة وانه قد انتهج منذ وقت مبكر ، بسبب ما حدث من نزاعات زمن أبيه وأعمامه ، فأخذ يتبع طريقة جديدة ، وهي أنه منذ وقت مبكر أخذ يشتري المماليك الأتراك الصغار ، لأنه رأى بأن جيوش الدولة الأيوبية السابقة كانت تغير ولاءاتها باستمرار مرة تنضم إلى هذا ثم تميل إلى هذا ، وهذا أسهم في تعميق الخلافات والحرب الأهلية فأراد أن يكون له جيش خاص به لا يعتمد فيه على الجيوش الأيوبية السابقة ولا على فلول الخوارزمية ، فأخذ يشتري المماليك الصغار وأنفق في ذلك أموالاً طائلة واشترى آلاف الأطفال الصغار من المماليك الأتراك ، حيث كان يرسل مندوبين إلى القسطنطينية وإلى غيرها وإلى

سواحل البحر الأسود ويُؤتى بالمماليك الأتراك الصغار وبنى لهم قلعة الروضة في النيل وتم تنشئتهم نشأة عسكرية وتربية إسلامية وثُقفوا بالثقافة الإسلامية وأصبح عنده قوة ضاربة من المماليك ، وهم الذين عُرفوا باسم المماليك البحرية لأنهم سكنوا في جزيرة الروضة ، وهؤلاء المماليك الذين استفاد منهم الصالح أيوب هم الذين تمكنوا، كما سنرى من صد الحملة الصليبية السابعة القادمة وهم الذين بعد ذلك سيقضون على الدولة الأيوبية ويقيمون دولة جديدة هي سلطنة المماليك ، طبعًا نحن رأينا منذ موت صلاح الدين أن الدولة الأيوبية قامت بالجهاد بطريقة ليست على مستوى ما كانت عليه زمن صلاح الدين ، وتحولت من موقف الهجوم لاسترداد البلاد المغتصبة إلى موقف الدفاع . وما حدث من نزاعات وما حدث من حروب داخلية وما حدث من تقاعس عن فريضة الجهاد ، كل هذا أفقد الدولة الأيوبية مبرر وجودها وشرعيته ، ذلك أنه لم يكن لها مبرر ولم يكن لها شرعية للوجود إلا لما حملت راية الجهاد ، لما تخلت عن هذا الأساس الذي قامت عليه وهي حمل راية الجهاد ضد الصليبيين ، نجدها تسقط وتندثر لتحل محلها دولة المماليك ، هذه الدولة من المماليك الأتراك الذين سيكتسبون الشرعية لوجودهم ولدولتهم من انتصارهم على الحملة الصليبية السابعة ثم على المغول في عين جالوت ثم على الحملات الأخرى ثم ازالة الوجود الصليبي بالكامل من سواحل الشام وصد الخطر المغولي ، وبذلك تصبح دولة عظمى أو دولة كبرى هي دولة الإسلام الكبرى والدولة العظيمة التي استطاعت أن تنهض بعبء الجهاد ، وبذلك نكون قد انتهينا من هذا الموضوع ، والحديث ان شاء الله في الأسبوع القادم عن الحملة الصليبية السابعة أو العدوان الصليبي الجديد على بلاد الشام ومصر ، ثم طبعًا سنشير إلى غزوات المغول وسقوط الأيوبيين وقيام دولة المماليك .

الحملة الصليبية السابعة :

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على رسول الله وبعد :

سوف نتحدث اليوم عن الحملة الصليبية السابعة ونشير باختصار إلى محاولات التحالف الصليبية المغولية ثم فتح انطاكية وطرابلس وإزالة آخر البقايا الصليبية من بلاد الشام .

رأينا كيف أن معركة غزة التي حدثت سنة ٦٤٢ هجرية كانت كارثة عظمى منيت بها الإمارات الصليبية في بلاد الشام حيث قضت تلك المعركة على القوة البشرية الرئيسية لتلك الإمارات الصليبية ، كما أشرنا فيما سبق أنه كان لكل كارثة عظمى تحل بالصليبيين في بلاد الشام كان يترتب عليها ردة فعل عنيفة لدى الغرب الأوربي ، ذلك أن الروح الصليبية كانت لا تزال قائمة في الغرب الأوربي ، فوصلت الأنباء إلى الغرب بمعركة غزة وما فعله الخوارزميون عندما دخلوا إلى بيت المقدس واستردوه من الصليبيين وعندما نهبوا كنيسة القيامة ونكلوا بالصليبيين ، وصلت تلك الأنباء إلى الغرب الأوربي ذلك أن أسقف بيت المقدس أو بطريرك بيت المقدس روبرت أرسل أسقف بيروت ويسمى واليران لينهي إلى البابا أنوسنت الرابع بما حدث للصليبيين في بلاد الشام . هذه هي الأسباب التي أدت إلى قيام تلك الحملة ، بالإضافة إلى أن ملك فرنسا في ذلك الحين وهو لويس التاسع حفيد فيليب أغسطس ، ذلك الملك الفرنسي الذي شارك في الحملة الصليبية الثالثة ، لويس التاسع هو ابن لويس الثامن ابن فيليب أغسطس ، وكانت أمه قشتالية من قشتالة ، تلك المملكة الصليبية في شمال الأندلس التي أخذت على عاتقها محاربة المسلمين في الأندلس وإزالة الوجود الإسلامي من الأندلس ، فكانت والدته هي بلانش القشتالية ، وكانت متمسكة بنصرانيتها المحرفة أشد التمسك فنشأ أبنائها على حب الكنيسة الكاثوليكية وعلى التقيد

كذا وكذا إنما وزعت بالطاسات من الذهب والفضة حيث كل ما في البيوت والمتاجر والمؤسسات الصليبية بنيت على مدى قرنين من الزمان ، فوزعت الغنائم من كثرتها على الجنود بالطاسات ، يعني بالكيل ، ولم يبق جندي من الجنود إلا وقد حصل على أسرى من الأطفال ومن النساء لدرجة أن يذكر المؤرخون أنه بسبب ما حصلوا عليه من أسرى من النساء والأطفال أن سعر الغلام الصغير انخفض إلى ١٢ دينار ، بينما سعر الجارية لم يتجاوز ستة دنانير ، بينما سعر الجاموسة أو البقرة كان لا يتجاوز درهمين ، هذا يبين مدى ضخامة الغنائم التي حصل عليها المسلمون ، على أية حال بعد الحصول على هذه الغنائم الضخمة ، وبعد ازالة هذه المدينة الصليبية من الوجود أمر الظاهر بيبرس بهدمها ومساواة أسوارها بالأرض حتى لا يطمع الغرب الأوربي بالمجيء للاستيلاء عليها ولا يجدون ما يمكن أن يحميهم فيها ، ثم واصل جهوده في عام ٦٦٩هجرية ، فاستولى على صافينا وهي أهم حصون الداوية في بلاد الشام ، كما استولى على حصن الأكراد وهو أيضاً أهم حصون الاسبتارية في شمال بلاد الشام ، بالإضافة إلى حصن عكار والقرين ، خلال ذلك جاءت حملة صليبية جديدة قام بها أمير انجليزي يسمى ادوارد الانجليزي حاول ان يلتحق بحملة لويس التاسع في تونس لكنها فاتته ذلك أن لويس التاسع بعد أن عاد إلى بلاده بسبب تمسكه بالنصرانية ظل يتطلع إلى أن يقوم بحملة صليبية جديدة رغم أنه تقدم به السن ، وبعد ثلاثة عشر عاماً من عودته إلى فرنسا قام بحملة صليبية جديدة اتجهت إلى شمال افريقيا إلى تونس بتأثير أخيه شارل كونت انجو والذي آلت إليه في ذلك الحين حكم جزيرة صقلية وهرب بعض المعارضين له إلى تونس ، فأراد أن يقبض عليهم وأن يسيطر على تونس ، فأقنع أخاه لويس التاسع بأن المستنصر الحفصي ملك تونس على استعداد لاعتناق المسيحية وانه يميل للمسيحيين خاصة وأنه قد سمح لبعض البعثات التنصيرية من الرهبان الفرنسيسكان والدومنيكان بإقامة

أديرة في تونس ، فعند ذلك جاء لويس التاسع بحملة كبيرة جداً ، شبيهة بحملته الأولى ، هي الحملة الصليبية الثامنة ونزل في تونس للاستيلاء عليها وكان في ذهنه أن يزحف من تونس إذا حولها إلى النصرانية إلى مصر ويهاجم دولة المماليك زمن الظاهر بيبرس ، الذي سمع بتلك الحملة وكان يراقبها عن كثب ، على أية حال تلك الحملة أصيبت بما أصيبت به الحملات السابقة فانتشر الوباء بين الصليبيين وتبددت الحملة ذلك أن لويس التاسع نفسه مرض ومات أثناء الحملة ، كان ذلك عام ٦٦٩هجرية / ١٢٧٠ ميلادية وأخذ يتمتم وهو على فراش الموت قائلاً : هيا إلى أورشليم هيا إلي أورشليم (هيا إلى بيت المقدس) ، يعني يريد الذهاب إلى بيت المقدس ، ومات وعجل الله بروحه إلى النار وبئس القرار ، وتبددت الحملة تبدداً بالكامل وفشلت فشلاً ذريعاً ، وصلت أنباء تلك الحملة إلى ادوارد الانجليزي الأمير الانجليزي الذي وصل إلى بلاد الشام والذي سيصبح هو الملك ادوارد الأول في انجلترا . عند ذلك وجد ادوارد الانجليزي أنه بحملته الصغيرة لا يستطيع مجابهة الظاهر بيبرس ، فحاول الاتصال بالمغول فلم يحصل منهم على مساعدة ، فعقد صلحاً مع الظاهر بيبرس لمدة عشر سنوات وعاد إلى بلاده .

الظاهر بيبرس بعد ذلك تصدى للمغول ، خاصة وان المغول بعد وفاة هولاكو واصلوا عدوانهم فقام ابغا ابن هولاكو وسار على سياسة أبيه في معاداة دولة المماليك ، وكان الظاهر بيبرس منذ أصبح سلطاناً على مصر أرسى دعائم سياسة جديدة تتمثل في عقد تحالف مع مغول القفجاق ، مع الخانية المغولية الكبرى التي كان يرأسها بركة خان والتي سيطر بها المغول على روسيا وكل ما يقع شمال بحر قزوين والبحر الأسود ، وكان ملكها بركة خان قد اعتنق الإسلام ، ولذلك عقد الظاهر بيبرس معه صداقة ، وبركة خان أخذ يضايق هولاكو من الشمال بل شن عليه الحرب ، وأيضاً استفاد الظاهر في علاقته مع مغول القفجاق

عندما أصبح رجال البعثات التجارية يأتون من مصر ويذهبون إلى سواحل البحر الأسود واتصلوا بالمغول واشتروا أعداداً كبيرة من المماليك الأتراك الصغار لتبدأ الدولة المملوكة بتنشئة أولئك المماليك نشأة عسكرية وتربية إسلامية ، لذلك نجد دولة المماليك في عهد الظاهر بيبرس ثم بعد ذلك ما تلاه من عهود حتى نهاية الوجود الصليبي يبلغ جيشها مستوى كبيراً جداً لم تعهده من قبل الدولة الزنكية ولا الدولة الأيوبية . لذلك عندما سمع الظاهر بيبرس أن جيشاً مغولياً يحتشد في جنوب آسيا الصغرى عند ابلستين لمهاجمة الشام ، فبادر ،ولم ينتظر مجيء ذلك الجيش إنما خرج بجيشه من بلاد الشام وعبر إلى آسيا الصغرى والتقى بالجيش المغولي عند ابلستين ومزق الجيش المغولي شر ممزق ، كان ذلك عام ٦٧٥ هجرية ، ففي تلك المعركة أباد الجيش المغولي بأكمله ، وجاء أبغا من فارس بنفسه ووصل إلى ميدان المعركة ووجد جثث الجيش المغولي تملأ السهول والوهاد والتلال ، فحقد على سلاجقة الروم واعتبر أن ذلك خيانة منهم وقتل سليمان البروانة وزير سطلنة سلاجقة الروم وسيطر على آسيا الصغرى سيطرة مباشرة . لكنه لم يستطع بعد ذلك مواجهة الظاهر بيبرس ، طبعاً تلك المعركة كانت كفيلة باثارة الرعب في نفسه ، على أية حال لم يلبث الظاهر بيبرس أن توفي في العام التالي عام ٦٧٦ هجرية ، وعهد إلى ابنه السعيد بركة ، لكن ذلك لم يستمر طويلاً إذا قام أحد زملاء الظاهر بيبرس وهو السلطان قلاوون واستولى على الحكم وتمكن من السيطرة على سلطنة المماليك في العام التالي عام ٦٧٧ هجرية لينهض ويقوم بدور شبيه بدور الظاهر بيبرس ، كان من أهم أعماله أنه تصدى لحملة مغولية شارك فيها الأرمن وشارك فيها الجرجيون النصارى وبعض الفرق الصليبية التي من بقايا الداوية والاسبتارية ، ذلك ان أبغا أرسل جيشاً كبيراً للانتقام بما حل في قواته عند ابلستين وكان ذلك الجيش بقيادة أخيه منغو تيمور ، عند ذلك تصدى له السلطان قلاوون عام ٦٨٠ هجرية ووقعت معركة كبرى عند

حمص ، أكبر في حجمها من معركة عين جالوت بعدد الجيوش التي اشتركت فيها والنتائج التي تمخضت عنها ، ذلك انه اشترك فيها جيش كبير جداً من المماليك ، وكذلك من جيش المغول ، وفي تلك المعركة رغم أن المماليك تكبدوا خسائر كبيرة إلا أنهم أنزلوا بالمغول هزيمة ساحقة ماحقة وطاردوهم إلى ما وراء الفرات . هذه المعركة قضت على هيبة دولة مغول فارس ، ولم يجرؤوا بعد ذلك بعقود من الزمن في العودة بقوات كبيرة إلى بلاد الشام حتى تقريباً إلى نهاية ذلك القرن .

على أية حال تلك المعركة جعلت السلطان قلاوون يأمن جانب المغول ، ولذلك قام بحملته الكبيرة على امارة طرابلس الصليبية عام ٦٨٨ هجرية /١٢٨٩/ ميلادية ، جاء في أعداد كبيرة ، يذكر المؤرخون أن الجيش بلغ أربعين ألف فارس ومائة وأربعين ألف من المشاة ، طبعاً هذا عدد كبير لم نألفه من قبل زمن الزنكيين وزمن الأيوبيين ، ذلك أن دولة المماليك البحرية في ذلك الحين أخذت تتحول إلى دولة عسكرية ، اهتمت بالعسكر وبشراء المماليك وبأعداد كبيرة وانشاء المدارس والميادين لتدريبهم وتنشئتهم ، فأصبح لديها من الجيوش ما أقض مضجع أوربا ، بل إن العقلية الصليبية والروح الصليبية أبدأت تتهاوى ، وبالإضافة إلى هذا ، يذكر بعض المؤرخين أن الآلات والمنجنيقات الذي جاء بها قلاوون كانت أكثر من مائة ، ولذلك تمكن الجيش المسلم المملوكي من احداث دمار وأضرار في أبراج وأسوار طرابلس فاقتحمها المسلمون عنوة عام ٦٨٨ هجرية ومثل ما فعلوا في انطاكية فعلوا في طرابلس قتلوا كل من وجدوه من المحاربين الصليبيين وأسروا النساء والأطفال وحصلوا على غنائم ضخمة ، ولم ينج من الصليبيين إلا من استطاع ان ينفذ بجلده في بعض السفن التي كانت راسية في الميناء أما الباقون فقد حل بهم القتل والسلب والنهب فأصبحت المدينة في أيدي المسلمين وأمر أيضاً قلاوون بتدمير المدينة وهدم أسوارها وسواها بالأرض حتى لا يستفيد منها الصليبيون ، ثم بنيت مدينة طرابلس بعد ذلك على تل يقع إلى الشرق بعيداً عن الساحل حتى

لا تتعرض لهجوم صليبي . بعد ذلك استولى قلاوون على مدينة جبلة .

بعد موت السلطان قلاوون خلفه ابنه الأشرف خليل والذي كان هو بطل آخر صفحات الجهاد ضد الصليبيين والذي جاء بجيش بلغ من الضخامة حداً لا قدرة للصليبيين بمواجهته ، يذكر المؤرخون أنه حشد جيشاً بلغ ستين ألف فارس ومائة وستين ألف راجل ، فجاء ليطوق عكا عام ٦٩٠ هجرية / ١٢٩١ ميلادية ، وكانت الضربة الأخيرة وكان معه من آلات الحصار من المنجنيقات والعرادات وغيرها ما تمكن من تدمير عدد من أبراج أسوار عكا رغم مناعتها وحصانتها فتدفق المجاهدون المسلمون إلى داخل مدينة عكا وجرت معارك صمد فيها بعض المدافعين والاسبتارية وقاتلوا حتى قتلوا جميعاً لكن مهما كانت فإن الكثرة تغلب الشجاعة فتمكن المسلمون المماليك من قتل كل من وجدوه في عكا وأيضاً لم ينج إلا من فر على السفن أما النساء والأطفال والرهبان فقد وقعوا أسرى في أيدي المسلمين . وكما أشرنا لكم في مادة الغزو الفكري أن كثيراً من الراهبات وكثير من الغنائم التي وقعت بأيدي المسلمين وصلت إلى بغداد التي كان في ذلك الحين فيها أحد المنصرين وهو ريكولدو دي مونتوكروس الذي تأثر بمناظر أولئك الأسرى من الرهبان الذين جيء بهم إلى بغداد ليباعون وأيضاً تأثر لوصول كثير من الغنائم من ضمنها بعض الذخائر التي يعتبرها النصارى مقدسة إلى بغداد .

وبزوال عكا انتهت آخر المعاقل الصليبية في بلاد الشام ونجحت دولة المماليك في تطهير هذه البلاد من أيدي الصليبيين تطهيراً شاملاً ولم يعد للصليبيين من الطاقة والقدر ما يمكن أن ينازلوا به دولة المماليك في ميدان مكشوف ، ذلك انهم في غرب أوربا أصبحوا عاجزين ، نعم حدث بعد هذه المعركة أن أصيب كثير من رجال الدين والبابوية في أوربا بصدمة عنيفة لسقوط عكا ، تأثروا لذلك أشد التأثر وظهر كثير من الدعاة يدعون إلى حملة صليبية جديدة منهم مارينو سانودو ومنهم ريموندلوول ، ومنهم بوركارد ، ومنهم بيير دي توماس

، وغيرهم يدعون إلى حملات صليبية ، طبعًا لم تجرؤ أي دولة في الغرب الأوربي على القيام بحملة صليبية مباشرة ضد دولة المماليك خلال أكثر من خمسين سنة . لكن استمرت الحملات بعد ذلك ، فهذا لا يعني نهاية الحروب الصليبية ، فظلت الروح الصليبية قائمة بعد ذلك لقرون ، ومن ذلك أن مملكة قبرص الصليبية ، ظلت هذه المملكة الصليبية قائمة في قبرص تقوم بغارات أشبه بغارات القراصنة على سواحل مصر والشام ، غارات فجائية ، لا يستطيعون النزول إلى الساحل لأن الجيوش المملوكية ستأتي وتدمرهم ، إنما غارات على بعض السواحل وعلى بعض المناطق من ذلك على سبيل المثال أنه في عام ٧٦٧ هجرية / بعد أكثر من حوالي سبعين سنة من سقوط عكا أو أكثر جاء ملك قبرص الصليبي بطرس الأول بحملة صليبية على الاسكندرية وتلقى الامدادات من الغرب وجاءت سفن صليبية من رودس ومن غيرها ومن أوربا ، نزل في الاسكندرية واستولى عليها وسلب ونهب وحرق وقتل كثير من الناس ، لكن لم يجرؤ على احتلال الاسكندرية لأنه يعلم ان الجيش في القاهرة سيأتي وتأتي القوات لذلك ارتحل بعد عدة أيام لما سمع ، وهو يعلم ان الجيش المملوكي قادم لذلك ارتحل إلى قبرص ، كذلك قام بحملة أخرى على انطالية في جنوب آسيا الصغرى ، وقبل ذلك قامت حملة صليبية ضد ازمير ، لكن تلك الحملات لم تؤثر في دولة المماليك بل ان دولة المماليك فيما بعد استطاعت أن تقضي على قبرص وتستولي عليها سنة ٨٢٩هجرية وتقضي على مملكة آل لوزجنان وتصبح قبرص تحت الحماية المماليكية ، كما جاءت حملة صليبية إلى المهدية في افريقيا ، وحملة ضد الدولة العثمانية وكلها فشلت ، وطبعًا هذا الموضوع أي الحملات الأخرى في حوض البحر الأبيض المتوسط والتي تبلغ أكثر من مائة حملة لا شك أنكم ستدرسون العديد منها في مادة المسلمون والغزو الصليبي في العصور الحديثة وفي الدولة العثمانية ، على أية حال الحروب الصليبية كان لها نتائج بعيدة المدى في الشرق والغرب على حد سواء ، لا شك ان

هذه الحروب التي استمرت زهاء قرنين من الزمان استنفذت كثير من الطاقات البشرية والمادية وجعلت المسلمين يصرفون كثير من الأموال في هذه الحروب وأسهمت تلك الحروب في ذبول الحضارة الإسلامية بسبب انصراف المسلمين لمواجهة تلك الحملات الصليبية المتكررة ، بالإضافة إلى ان البعثات التي قام بها المبعوثون من قبل البابوية ومن قبل ملوك أوروبا التي ذهبت إلى بلاط المغول لمحاولة التحالف معهم اكتشفت تلك البعثات بلاداً جديدة وظهرت أفكار جديدة ، فزادت معارفهم عن الشرق وزادت معرفتهم خاصة عن الشرق الأقصى وما فيه من بلدان ومن شعوب ، واستفاد الغرب الأوربي كثيراً من تلك الرحلات واستفاد من حضارة المسلمين لا سيما في المجال العسكري في فن الحرب وفي فن بناء الحصون والقلاع وغير ذلك ، لكن يجب أن نشير إلى ناحية وهي ان بعض المؤرخين يخطئون في جعل الحروب الصليبية أنها من أهم المعابر التي عبرت عليها الحضارة الإسلامية إلى أوربا ، طبعًا هذه مبالغة الصليبيون عندما جاؤوا إلى بلاد الشام ليحاربوا ما جاؤوا يريدون التعلم ويريدون نقل حضارة إنما جاؤوا محاربين ومقاتلين ومعادين لهذه الأمة ، أهم معبر كان لانتقال الحضارة الإسلامية كان الأندلس وبعده صقلية وجنوب إيطاليا ، هذه أهم المعابر التي أثرت في النهضة الأوربية في بداية العصور الحديثة ، ولذلك يجب ألاّ نسلم بما يزعمه البعض بأن الحروب الصليبية كانت معبراً مهمًا لنقل الحضارة الإسلامية إلى أوربا ، ذلك ان التأثيرات في هذا المجال قليلة جداً ، وبذلك ننتهي من هذه المادة ، مادة المسلمون والحروب الصليبية في العصور الوسطى ، وهناك مادة أخرى تتناولون فيها العصور الحديثة ذلك أن حركة الاستعمار اتخذت طابعًا صليبيًا كما ستدرسون في هذه المادة ، وبذلك ننتهي وشكراً ، فمن له سؤال فليتفضل .

آل لوزجنان لشراء الأقوات والحبوب والميرة ، يذكر جوانوفيل وهو من الأمراء الذين رافقوا لويس التاسع في حملته الصليبية أنهم عندما وصلوا إلى قبرص وجدوا تلالاً ضخمة من الحبوب ومن القمح وجرارًا وقوارير كبيرة من الخمور والنبيذ كمؤن للحملة ، بالإضافة إلى الاستعدادات الأخرى .

ظل لويس التاسع يستعد زهاء ثلاث سنوات ثم ارتحل من أوربا متجهًا إلى الشرق ، طبعًا تلك الحملة لا شك أنها ، أو أن خبرها قد وصل إلى الأيوبيين في بلاد الشام ، ذلك أن السلطان الصالح أيوب في ذلك الحين – كما أشرنا في المحاضرة السابقة – كان قد نجح بإعادةِ الوحدة بين مصر والشام ، وفي للقضاء على تحالف خصومه في بلاد الشام ، واسترد دمشق ولم يبق أمامه سوى مملكة حلب التي استولت على حمص ، ثم جاء لصد الحلبيين ، وكان مرابطًا في بلاد الشام ، فوصلته الأنباء بتلك الحملة الصليبية القادمة من الغرب الأوربي ، يذكر المؤرخون المسلمون أن نبأ تلك الحملة أول ما تسرب إلى السلطان الصالح أيوب عن طريق الامبراطور فردريك الثاني ، الذي قاد الحملة الصليبية السادسة والذي انعقدت صداقة متينة بينه وبين فخر الدين يوسف بن الشيخ وزير الخليفة الكامل، وقصته معروفة ، وتعهد في صلح يافا بأن يعرقل أية حملة صليبية قادمة ، فأرسل كما يذكر المؤرخون المسلمون مخبرًا في زي تاجر إلى السلطان الصالح نجم الدين أيوب وأخبره بمجيء تلك الحملة ، وقال له على لسان الامبراطور إنني حاولت منع لويس التاسع ولكنه أصر وانه قاصد إلى مصر ، طبعًا هذا لا يتناقض مع أن فردريك الثاني أرسل مؤنًا وأرسل امدادات إلى لويس التاسع لما وصل إلى قبرص حتى لا يظهر بنظر الغرب الأوربي الكاثوليكي بأنه معارض للحملة الصليبية بسبب النزاع الذي كان محتدمًا وقائمًا بين البابوية وبين الامبراطور فردريك الثاني ، فتظاهر من ناحية أخرى بأنه يؤيد تلك الحملة ، ولكنه في الحقيقة كان يتمنى فشل لويس التاسع ، وهو ما حدث فعلاً .

على أية حال ، وصل لويس التاسع إلى قبرص عام ٦٤٦هجرية ، وفي قبرص أقام فيها فترة طويلة امتدت زهاء تسعة أشهر ، خلالها تلقى الامدادات من أخيه الآخر دوق بواتيه الذي بقي في فرنسا لإرسال الامدادات ، ثم ليرتحل بعد ذلك ببقية الجيوش لنجدة أخيه لويس التاسع ، كما أنه في قبرص تلقى لويس التاسع سفارات من الدولة اللاتينية الكوثوليكية في القسطنطينية ومن الاسماعيلية الباطنية في بلاد الشام ، كما تلقى مندوبين من قبل أحد الحكام المغول في غربي فارس يطلب التحالف بين لويس التاسع وبين المغول للاطباق على المسلمين ، ولذلك بادر لويس التاسع بارسال أول بعثة لاستكشاف ما إذا كان يمكن تنصير المغول وما إذا كان يمكن عقد التحالف معهم ، وهنا يجب أن نشير إلى أن حملة لويس التاسع كانت مليئة بعدد من الرهبان المنصرين من الدومينيكان والفرنسيسكان ، ذلك أن هاتين الطائفتين كما أشرنا كانتا قد نشأتا وتكونتا من أوائل القرن السابع الهجري ، وأصبح لهما مقرات وأصبح لهما عشرات الآلاف من الأديرة ويتبعها أيضاً مئات الآلاف من الرهبان ، لذلك كانت حملة لويس التاسع مليئة بالرهبان الفرنسيسكان والدومنيكان الذين مهماتهم مهمات دينية ، ذلك أنه ربما تصوروا أنه إذا تم الاستيلاء على مصر والشام عندذلك يقوم أولئك الرهبان المنصرون بتنصير المسلمين والدعوة إلى النصرانية ، فكانت حملة عسكرية وتنصيرية في نفس الوقت .

على أية حال ، بعد ذلك قام لويس التاسع بعد أن أقام تلك المدة الطويلة في قبرص ، وبعد أن تلقى الامدادات من فرنسا ، اتجه إلى دمياط لغزو مصر على نفس الطريق التي سارت عليه الحملة الصليبية الخامسة من قبل . والخطوط العامة لهذه الحملة تقريباً إلى حد بعيد تشبه الحرب الصليبية الخامسة مع اختلاف في بعض التفصيلات سوف نشير إليها .

السلطان الصالح أيوب عندما بلغته الأنباء كان في ذلك الحين مريضاً ، كان

يشكو من دمامل في مؤخرة جسمه ومن ناصور ، بالإضافة إلى الاصابة بالسل ، فعند ذلك لم يستطع ركوب الحصان وحمل في محفة محمولاً إلى مصر ، ووصل إلى مصر وكما تشاهدون في الخريطة رابط على بحر أشموم عند أشموم طناح ذلك الفرع من النيل الذي يتفرع من النيل ليصب في بحيرة المنزلة التي كانت تسمى قديماً ببحيرة أو بحر تنيس ، وأيضاً أرسل جيشاً بقيادة فخر الدين بن الشيخ ليرابط غربي مدينة دمياط ، وفي نفس الوقت أرسل المؤن والامدادات إلى دمياط ، والحقيقة ان دمياط في ذلك الحين كانت قد بلغت غاية كبيرة من الحصانة والقوة والمنعة ، وكان من الصعب جداً الاستيلاء عليها بالقوة ، ولكن مما يؤسف له أنها سقطت سريعاً بشكل عجيب ، يعني من أعجب الأمور سقوط دمياط في ذلك الحين ، فإذا تذكرنا أيضاً في الحملة الصليبية الخامسة فكانت دمياط صمدت أمام الصليبيين أكثر من سنة ، بعدما ما حاصرها الصليبيون أكثر من تسعة أشهر ، وقبل ذلك نزولهم على برج السلسلة ، ثم تقدمهم إلى دمياط ، يعني استغرقت منهم سنة ونصف حتى استولوا على دمياط . لكن في هذا الحين نزلوا في ٢١ صفر ٦٤٧هجرية ، وكانت حملة لويس التاسع – على أقل التقديرات – مكونة من خمسين ألف مقاتل وألف وثمانمائة سفينة ، بين سفينة كبيرة وصغيرة ، وكان فخر الدين بن الشيخ في ذلك الحين يرابط بالقوات على جيزة دمياط غربي مدينة دمياط ، فوصل الصليبيون في ٢١ صفر ونزلوا ، الحقيقة جرت اشتباكات على الساحل بين قوات الصالح أيوب بقيادة فخر الدين بن الشيخ أي القوات الإسلامية وبين الصليبيين بقيادة لويس التاسع استمرت تقريباً نصف يوم ، لكنه خلال ذلك انسحب فخر الدين بن الشيخ بشكل مفاجيء ، يذكر المؤرخون سبباً لذلك وهو أنه عندما تراءى الأسطول الصليبي في البحر أرسل فخر الدين بن الشيخ عدة رسائل على الحمام الزاجل إلى السلطان الصالح أيوب المرابط ببقية الجيش عند اشموم طناح ، ولم يتلق رداً فتوقع أن السلطان

قد مات ، وكان لفخر الدين بن الشيخ طموحات في أن يصل للحكم أو يستبد بالأمر ، فعند ذلك قرر الانسحاب على عجل لعله ينظم الأمور ويستولي على المملكة أو يضبط أمورها ، طبعًا ابن واصل يشير إلى أنه كان طامعًا بالملك ، فأدى ذلك الانسحاب السريع له من جيزة دمياط ، وعبر الجسر الذي يربط بين الضفة الغربية والضفة الشرقية إلى دمياط ، وانطلق جنوبًا ، في نفس الوقت لما رأت حامية دمياط في ذلك الحين وكانت مكونة من عدد من العساكر بالإضافة إلى مجموعة من رجال قبيلة كنانة وهم من القبائل المتمرسة عهد إليهم الصالح أيوب بحراسة دمياط ، فلما رأوا فخر الدين بن الشيخ ينسحب بعسكره متجهًا إلى الجنوب إلى أشموم طناح خرجوا وهاموا على وجوههم ، وخرج أهل دمياط جميعًا ، منهم من وصل إلى أشموم طناح ومنهم من ذهب إلى القاهرة ، وتقطعوا في الطريق ، فذهل الصليبيون من تلك الحركة ، وأرسلوا بعض الكشافة ، فلما وصلوا إلى دمياط وجدوها خالية ، فاستولى الصليبيون على دمياط صفوًا عفوًا بغير قتال في اليوم التالي، يعني في يوم واحد من وصولهم استولوا على دمياط . انظروا إلى الفرق ، في الحملة الصليبية الخامسة مكثوا سنة ونصف حتى استولوا على دمياط بعد حصار شديد تكبدوا فيه خسائر جسيمة ، فاستولوا هنا على دمياط يوم ٢٢ صفر عام ٦٤٧هجرية، فكان لهذه الكارثة أشد الوقع على الصالح حتى أنه قبض على خمسين من زعماء بني كنانة وشنقهم ووبخ فخر الدين بن الشيخ وهم أن يقتله لكنه بسبب دقة الظروف في ذلك الحين كتم في نفسه ما يريد أن يفعله به ، لكنه اتهمه بالجبن وعدم الشجاعة ، أيضًا قرع بعض المماليك ، المماليك البحرية أو الذين كانوا يسمون الصالحية نسبة إليه ، وأكثر من شرائهم منذ وقت مبكر ورباهم تربية عسكرية ونشأهم تنشئة اسلامية ، وبنى لهم جزيرة الروضة كما هو معروف ، وكان يعتمد عليهم ، لذلك وبخهم توبيخًا كثيرًا وهددهم ورماهم بالجبن ، طبعًا خافوا انه ان انتهت الأمور وصد لويس التاسع أن ينتقم

منهم ، وينزع ما في أيديهم من امتيازات واقطاعات كما فعل بزعماء بني كنانة ، لذلك قرروا قتله ، لكن فخر الدين بن الشيخ ، طلب منهم أن يتمهلوا وقال هو مريض ، فإن مات فقد كفيتموه وإن بقي فأنتم وشأنه .

على أية حال ، الصليبيون في ذلك الحين كانوا قد استقروا في دمياط ، ووجدوها مليئة بالمؤن والأقوات والأطعمة ، يعني وجدوا المدينة تمونهم بكل ما يحتاجون ، ذلك أن ما حشده المسلمون فيها أصبح غنيمة سائغة للصليبيين ، أخذوها دون قتال ودون أي جهد ، لكنهم ارتكبوا خطأ شنيعًا من الناحية العسكرية بالنسبة للحملة الصليبية السابعة ، ذلك انهم لو اتجهوا جنوبًا أثناء ذلك الاضطراب ربما تمكنوا من العبور وهزيمة بقية عساكر الصالح أيوب ، ولربما نجحوا في الوصول إلى القاهرة ، ولربما تغير مجرى الحملة الصليبية بكاملها ، لكن يشاء الله سبحانه وتعالى وهو رؤوف بهذه الأمة ورحيم بها ، فكان الله سبحانه وتعالى قد قدر لهذه الأمة أن يحل بتلك الحملة الصليبية التاسعة الفشل الذريع ، لذلك مكث الصليبيون زهاء خمسة أشهر ونصف في دمياط ، وخلال تلك المدة انغمسوا في الفجور ، طبعًا هم لما استولوا على دمياط حولوا جامعها إلى كنيسة ، وسموه كنيسة مريم العذراء ، وبدأوا بإضفاء طابع نصراني على المدينة ، وحدثت خلافات أيضًا بينهم ، بين بعض الأمراء خاصة بين روبرت كونت أرتوا شقيق لويس التاسع وبين بعض الأمراء ، مما جعل أحد الأمراء يذهب إلى الشام محتجًا ، فراسله لويس التاسع حتى استرضاه ، فعاد إليه ، وخلال ذلك اختلف الصليبيون فيما يسلكون من الطرق ، منهم من أشار أن يذهب جزء من الحملة الى الاسكندرية للاستيلاء عليها ويتم بذلك عزل مصر عن البحر الأبيض المتوسط، والزحف على القاهرة من جهتين ، ورأي آخر أصر أن تذهب مباشرة من دمياط جنوبًا إلى المنصورة ومنها إلى القاهرة للاستيلاء عليها ، وطبعًا هذا الرأي أيده لويس التاسع وهو الذي رجح في نهاية المطاف .

على أية حال ، خلال اقامتهم تلك المدة الطويلة زهاء خمسة أشهر ونصف بدأ الميزان يميل تدريجيًا لصالح المسلمين ، و بدأ المسلمون يستيعدون ثقتهم في أنفسهم ، وبدأت الغارات ترسل من قبل الصالح أيوب ومن قبل عسكر المسلمين للاغارة على الصليبيين وقتل من يستطيعون قتله وأسر من يستطيعون أسره عند دمياط داخل دمياط وخارجها ، خاصة وأن الصالح أيوب أعلن مبلغًا من المال لكل من يقتل صليبيًا أو يأتي برأس صليبي ، وتذكر المصادر قصصًا كثيرة من ذلك ما ذكرته إحدى المصادر الإسلامية من أن مسلمًا جاء ببطيخة ففرغها وأدخلها في رأسه ووضع فيها ثقبين لعينه ونسمه وسبح في النيل كأن البطيخة تسبح في النيل حتى اقترب من دمياط فشاهدها أحد الصليبيين ، فنزل إلى الماء ليأخذها وإذ بذلك المسلم يختطفه ويعود به سباحة بعد أن جرحه وتسلم الجائزة من الصالح أيوب . هذه أمثلة من جهود كثير من رجال المسلمين لخطف الصليبين . بعد ذلك قرر الصليبيون الزحف جنوبًا ، وزحفوا بالفعل في يوم ١٢ شعبان عام ٦٤٧هجرية ، وبعد يومين من زحفهم مات الصالح أيوب ، وكانت وفاته في وقت حرج بالنسبة للمسلمين ، ولكن الأمور ضبطت عن طريق زوجته أو جاريته التي تزوجها وهي شجر الدر ، وليس شجرة الدر ، بعض المصادر المتأخرة تذكر حتى في بعض المناهج يسمونها شجرة الدر ، هذا خطأ ، اسمها شجر الدر ، هذا ما كتبه ابن واصل الذي كان معاصرًا للحملة واتصل بشجر الدر في كتابه مفرج الكروب ، يعرفها أشد المعرفة ، اسمها شجر الدر وليست شجرة الدر .

على أية حال ، لما مات استطاعت شجر الدر ، هذه المرأة التي أبدت من الحنكة والقدرة ما يتفوق على كثير من الرجال ، فكتمت خبر زوجها وأرسلت جثمانه في تابوت إلى القاهرة سرًا ، ثم لم تخبر بها أحدًا سوى فخر الدين بن الشيخ وأمرته بأن لا يخبر أحدًا ، عند ذلك جمعت قادة الجيش وعسكر المماليك وغيرهم وطلبت منهم على لسان السلطان ، قالت ان السلطان يطلب منكم أن

تحلفوا له ولابنه وولي عهده من بعده المعظم طوران شاه ، والمعظم طوران شاه كان في ذلك الحين ليس في مصر وإنما كان في حصن كيفا في ديار بكر ، وحصن كيفا حصن منيع كان عبارة عن مدينة كبيرة تشرف على نهر دجلة فى أعالى نهر دجلة حاليًا في جنوب شرق تركيا ، كان نائبًا عن والده في البلاد الجزرية ، وأرسلت أقطاي الجمدار ، وهو من مماليك السلطان الصالح أيوب ، أرسلته برسالة إلى المعظم طوران شاه ليأتي به حتى يتسلم السلطنة من بعد والده ، وكانت تقلد تواقيع السلطان ، توقيعاته على الأوامر التي تصدرها بحيث من يراها يعتقد أنه توقيع الصالح أيوب ، وأيضًا أمرت الأطباء بأن يظلوا ملازمين لخيمة السلطان ويدخلون ويخرجون إليها ، وكأنهم يعالجون السلطان من ذلك المرض الذي كان قد اشتد به .

على أية حال ، بعد فترة تسرب نبأ موت السلطان إلى المسلمين وتسرب إلى الصليبيين ، المهم ان زحف الصليبيين كان قد بدأ من دمياط إلى الجنوب قبل موت السلطان بيومين ومات في النصف من شعبان عام ٦٤٧ هجرية ، زحفوا لكن زحفهم استغرق وقتًا طويلاً ، ذلك أنه كانت تفصل دمياط عن بحر أشموم ذلك الفرع من النيل في الجنوب الذي تقع إلى الجنوب منه مدينة المنصورة الذي كان قد عسكر بها السلطان الكامل وأنشأها معسكرًا ثم تكونت مدينة في ذلك الحين . كان هناك الكثير من الترع والخنادق المائية والمستنقعات ، كان هناك عوائق أمام الصليبيين ، واستغرق تقدمهم فترة طويلة خاصة من مدينة دمياط حتى فارسكور، على أية حال ساروا ، إلى أن وصلوا إلى رأس المثلث الذي ترونه في الخريطة ، المثلث الذي ينفرج منه النيل ، فرع رئيسي يذهب إلى دمياط ، وفرع آخر أصغر هو فرع أشموم طناح الذي يذهب إلى بحيرة المنزلة ، فوصلوا إلى ذلك المكان ، المبعوث الذي ذهب إلى المعظم طوران شاه وصل إليه وكان خائفًا على نفسه فخرج سرًا من حصن كيفا ، وكان يخشى أن يقبض عليه الحلبيون ، ذلكم أن

مملكة حلب في ذلك الحين كانت معادية للصالح أيوب ، وبذلك سلك الطريق الصحراوي ومعه خمسين من أتباعه حتى كاد أن يموت عطشًا إلى أن وصل إلى دمشق ، وكان ابن يغمور يتولى دمشق فبايعه ، ومن دمشق انطلق إلى أن وصل إلى المنصورة ليتسلم السلطنة من بعد والده ومن زوجة وجارية والده أم خليل شجر الدر .

في هذه الأثناء الصليبيون أرادوا الزحف جنوبًا ، والصالح أيوب أمر المسلمين بتجهيز الأسطول قبل موته ، ووصل المعظم طوران شاه إلى معسكر المسلمين وكانت الأمور أن المسلمين قد استعادوا ثقتهم بأنفسهم وأيضًا بدأوا يعملون بطريقة منظمة وصحيحة ولذلك كان الاتجاه العام لصالح المسلمين بصورة عامة ، فأمر بنقل مجموعة من السفن فككت لتنقل إلى الضفة الأخرى للمجرى القديم لنهر النيل ويسمى بحر المحلة ، لاحظوا في الخريطة تجدون بحر المحلة وهو هذا المجرى القديم ، لكن لم يكن مستخدمًا لكن فيه مياه راكدة تتمليء إذا جاء الفيضان فأمر بنقل مجموعة من السفن إلى ذلك البحر ، بحر المحلة ، لتذهب بعد ذلك السفن وتغير على مؤخرة السفن الصليبية ، وتمنع وصول الامدادات من دمياط إلى الجيش الصليبي ، ونجحت تلك العملية نجاحًا باهرًا ، يذكر المؤرخون في غارة أحد الأيام نجح الأسطول الاسلامي في أسر ٥٢ سفينة من سفن الصليبيين وفيها ألف مقاتل وكمية كبيرة من المؤن والأقوات ، وفي اليوم التالي نجح الأسطول الاسلامي في أسر ٣٢ سفينة أخرى ، حتى انسد الطريق خلف الصليبيين ومنع وصول الامدادات من دمياط إلى الجيش الصليبي .

على أية حال ، أصبح الجيش الإسلامي بالمنصورة يواجه الجيش الصليبي الذي يقع إلى الجنوب من بحر أشموم ، أصبح الجيش الإسلامي كما هو ملاحظ في مدينة المنصورة يواجه الجيش الصليبي الذي أصبح في هذا المثلث الذي بين فرع أشموم طناح ونهر النيل الذي يذهب إلى دمياط ، فأصبح هناك مواجهة بين

الجيشين ولكن بحر أشموم يفصل بينهما وكان الجانبان يتراشقان بالسهام عبر النهر ، وكان لدى المسلمون منجنيقات ولديهم النار الإغريقية يرمون بها على المعسكر الصليبي لذلك عقد لويس التاسع مجلساً حربياً قرر العبور إلى الجهة الأخرى وبذل جهوداً في ذلك ، حاولوا نصب جسر ، ذلك أنه كان لديهم مهندسين، ولكن المسلمين أفشلوا كل محاولة لنصب ذلك الجسر ، فما أن يضعونه على الضفة الجنوبية لبحر أشموم حتى يدمره المسلمون ، وبنى الصليبيون برجين لمحاولة منع المسلمين من ذلك ، ولكن المسلمين نجحوا في إفشال كافة المحاولات لبناء جسر يعبر عليه الجيش الصليبي . في نهاية المطاف وصل إلى الصليبيين رجل من أقباط مصر ، وجاء إلى لويس التاسع وأخبره أنه يعرف مخاضة أي مكان ضحل عند قرية سلمون يمكن أن تعبر منه الخيول في النهر ذلك أنه لا يغيب الخيول ، وفعلاً بسبب خيانة ذلك القبطي استكشف لويس التاسع وجيشه ووجدوا المخاضة فعلاً ، وأنه يمكن العبور منها وبدأوا العبور من ذلك المكان . عند ذلك قاد العملية لويس التاسع بنفسه وعبروا تلك المخاضة رغم أنهم واجهوا صعوبات كثيرة في ذلك ، لكنهم نجحوا في نهاية المطاف في عبور تلك المخاضة ، وكان في مقدمة الجيش الصليبي فرسان الداوية وأيضاً شقيق لويس التاسع روبرت كونت أرتوا ، وفوجيء المسلمون بذلك الهجوم الصليبي ، وإذ بالجيش الإسلامي الواقع خارج المنصورة يواجه هجوماً شرساً من الصليبيين ، فتشتت الجيش الإسلامي وهزموا فدخلوا إلى مدينة المنصورة ليتحصنوا بها ، وكان فخر الدين بن الشيخ قائد العسكر في ذلك الحين في الحمام يغتسل ، فلما سمع بالصياح خرج مسرعاً واستطاع أن يلم شعث القوات المنهزمة وتقدم ليقاتل وبذل جهوداً مستميتة في القتال واستشهد وهو يناضل الصليبيين ومحا بذلك العار الذي أصابه عندما انسحب أمام الصليبيين في بداية الحملة .

على أية حال ، لو أن الصليبيين تراجعوا حتى يتم دخول الجيش الصليبي

كله إلى المنصورة لربما نجحوا لكن روبرت أمير أرتوا والداوية وبعض الأمراء تسرعوا في الهجوم ودخلوا إلى داخل المنصورة ، ظنوا أنه حلت الهزيمة الساحقة بالمسلمين، فدخلوا إلى داخل المنصورة مستعجلين ولما دخلوا إلى داخل المنصورة، كانت بحق مقبرة الجيش الصليبي ، ذلك أن بعض القادة من المماليك البحرية وعلى رأسهم ركن الدين بيبرس البندقداري ، الذي سيكون فيما بعد السلطان الظاهر بيبرس تناخوا على الصليبيين وطاردوهم في شوارع وأزقة المنصورة والسكان تصدوا للصليبيين من على أسطح المنازل بالحجارة والطوب وقذفوهم ، وقتل روبرت كونت ارتوا أخو ملك فرنسا لويس التاسع ، وأيضاً فرسان الداوية ، الفرسان المشهورون الذين يشكلون شوكة الجيش الصليبي قتل منهم ٢٨٥ فارس، ولم ينج منهم إلا خمسة ، ويذكر المؤرخون أن عدد القتلى في داخل المنصورة بلغ الف وخمسمائة قتيل من الصليبيين ، فكانت كارثة حلت بالجيش الصليبي ، وبعد ذلك خرج المسلمون وطاردوا الصليبيين واحتشد الجيش الإسلامي مرة أخرى ووقعت معركة كبيرة بين لويس التاسع وبين الجيش الإسلامي ، تمكن لويس التاسع حقيقة من صد الجيش الاسلامي ومنعه من اختراق الجيش الصليبي وأحرز نصراً صغيراً في صد الجيش الاسلامي بحيث انه لم يتزحزح عن مواقعه في جنوب بحر أشموم لكن تلك المعركة أنزلت خسائر كبيرة في الجيش الصليبي ، وحدثت معركة في اليوم التالي وأيضاً تمكن لويس التاسع من صد المسلمين ، لكن تكبد خسائر كبيرة جداً هذه المعارك رفعت الروح المعنوية للمسلمين ، ثم بعد ذلك ، طبعاً هذا الوضع في نهاية المطاف ، كما أشرنا أن الله سبحانه وتعالى كان رحيماً بهذه الأمة ، فأخذ ينتشر بين الجيش الصليبي الوباء ، وباء ذكره جوانفيل الذي أرخ للحملة وهو من أمراء الفرنسيين أنهم أصيبوا بحمى شديدة وظهرت بقع على جلودهم ، لذلك مرض كثير منهم ، عند ذلك قرروا الانسحاب ، فانسحبوا من جنوب بحر أشموم إلى الجهة الشمالية ،

عند ذلك تعقبهم المسلمون وبدأت معارك كثيرة بين الجانبين كانت الغلبة فيها للمسلمين ، فانتصروا في كثير من المعارك .

على أية حال ، بعد ذلك حدث ما يمكن أن نسميه بهروب وليس بانسحاب ، هم أرادوا الارتداد والانسحاب إلى دمياط ، لكن انسحابهم جاء على شكل هروب يدل على ذلك أنهم عندما عبروا عائدين إلى نفس المثلث نسوا ان يحطموا الجسر الذي بنوه على تلك المخاضة ، بعد ان سيطروا على الضفة الجنوبية ، ليسهل عبورهم ووصول مؤنهم ، فعندما انسحبوا جنوبًا نسي الصليبيون تحطيم ذلك الجسر ، وكان القائد بيبرس محنكًا لماحًا ، فعند ذلك ذهب بفرقة من الفرسان واحتل ذلك الجسر ، ثم بدأ الجيش الاسلامي يتدفق جنوبًا وطاردوا الصليبيين ، وحدثت معارك مختلفة وأنزل المسلمون بالصليبيين خسائر كبيرة بين قتيل وأسير، وفي نهاية المطاف طاردوهم إلى فارسكور ، وفي فارسكور في مستهل محرم عام ٦٤٨هجرية / مارس ١٢٥٠ ميلادية شن المسلمون على الصليبيين هجومًا عامًا ودمروا الجيش الصليبي تقريبًا بأكمله فوقعوا بين قتيل وأسير ، لم ينج منهم أحد ، لم يبق أحد من ذلك الجيش الصليبي ، يذكر المؤرخون أن القتلى بلغوا ثلاثين ألفًا ، أما الأسرى فكانوا أكثر من خمسة عشر ألف ، بمن فيهم لويس التاسع وأخوه شارل أنجو وأخوه الآخر دوق بواتيه ، أما روبرت فقد قتل داخل المنصورة، فأسرهم المسلمون وأخذوهم إلى مدينة المنصورة ، ووضع لويس التاسع أسيرًا في دار ابن لقمان ، تلك الدار لا تزال إلى اليوم في مدينة المنصورة معروفة ، وأيضًا الغرفة التي أسر فيها لويس التاسع لا تزال موجودة إلى اليوم .

عند ذلك فشلت الحملة الصليبية السابعة في الاستيلاء على مصر ولم يبق في أيديهم إلا دمياط وفيها حامية قوية ، لكن الملك وقع في الأسر ، على أية حال المعظم طوران شاه أرسل إلى لويس التاسع يطلب أن يحضر مجلسه لكنه رفض الحضور ، بعد أن أرسل له السلطان بعض الطعام وأكرمه ، خوفًا ان يتهكم عليه

في هذا الظرف الذي وقع فيه لويس التاسع في الأسر ، وانتصر فيه المسلمون ، حدث الانقلاب بالسقوط المفاجيء للدولة الأيوبية وقيام دولة المماليك في مصر وذلك بسبب المعظم طوران شاه الذي جاء من حصن كيفا والذي كان متهتكًا يشرب الخمر ، ولم يكن يعرف طبيعة الدولة في مصر ، ولم يكن يعرف طبيعة أولئك المماليك ، الذين استكثر منهم والده ورباهم تربية عسكرية معينة ، لذلك استجاب لبعض ندمائه الذين قدم بهم من حصن كيفا ، الذين قالوا له منذ قدومه إلى مصر أنه لا سلطان له على مصر لأن المماليك يسيطرون على كل شيء مما جعله يتأثر وأخذ يفصح عن رغباته في التخلص من أولئك المماليك ، يذكر المؤرخون أنهِ سكر في أحد المرات واستل السيف وكان أمامه مجموعة من الشموع وكان يقول أفعل في البحرية هكذا وأقتل فلان هكذا ويضرب الشموع التي أمامه ، ويسمي بعض قادة المماليك البحرية ، فعند ذلك لما تسرب ذلك الخبر إلى المماليك البحرية قرروا التخلص منه أو كما يقول المثل أن يتغدوا به قبل أن يتعشى بهم ، أيضًا أساء إلى أرملة والده شجر الدر التي حفظت المملكة وكتمت خبر موت والده وسلمته السلطنة عندما جاء ، فلم يحفظ لها ذلك الجميل بل أخذ يضغط عليها ويطالبها بتسليم الأموال والجواهر التي أخفاها والده عندها بزعمه ، مما جعلها تحقد عليه وهي أصلاً مملوكة تركية ، تزوجها والده وكان لها مكانة كبيرة عند المماليك ، لذلك اتصلت بهم وطلبت منهم التخلص منه ، عند ذلك هاجموه وضربه بيبرس على يده فقطع أصابعه ، ففر إلى بيت خشبي على النيل ، فأشعلوا فيه النار ، ثم رمى نفسه في النيل ، وانتظروه حتى خرج من الماء فقتلوه بسيوفهم وضربه أقطاي الجمدار بسيفه ضربة قاتلة أودت بحياته .

وبموت المعظم توران شاه أصبحت الدولة في مصر بلا سلطان ، هناك أدرك المماليك أنهم في وضع حرج ، فبايعوا شجر الدر سلطانة على المسلمين ، فأصبحت هي السلطانة وتلقبت بلقب المستعصمية الصالحية أم خليل .

المستعصمية نسبة إلى الخليفة العباسي في بغداد ، باعتبارها تنتمي إليه ، والصالحية باعتبارها زوجة الصالح أيوب ، عند ذلك أصبحت هي السلطانة على المسلمين في مصر . ولما كانت الحملة الصليبية قد انتهت ووقع لويس التاسع في الأسر هو والكثير من جنوده ، وبقية الجنود قتلوا فلم يستفد الصليبيون من تلك الظروف .

على أية حال ، بعد ذلك فإن قيام امرأة في حكم المسلمين غير مألوف فأحرجها ذلك الوضع ، عند ذلك تزوجت من المعز إيبك وهو من كبار المماليك البحرية ، ليصبح هو قائداً للعسكر أو أتابكًا وأصبح يعرف باسم الملك أيبك . خلال ذلك ، لما سيطر المماليك على الوضع وضعوا شروطًا على لويس التاسع طالبوا منه أن يسلمهم القلاع والحصون التي في بلاد الشام ، ولكنه اعتذر لأنه ليس له سلطان على الامارات الصليبية في بلاد الشام ، عند ذلك فرضوا عليه شروطًا معينة وهي أنه يسلمهم دمياط ويدفع ثلاثمائة ألف دينار ذهب فدية عن نفسه وعن أسراه ، يدفع نصفها مقدمًا والباقي على أقساط ، وينسحب من مصر، وعقدوا معه معاهدة لفترة عشر سنوات وبعد ذلك أطلقوا سراحه بعد أن تسلموا دمياط ، وفشلت الحملة الصليبية السابعة فشلاً ذريعًا ، لكن فشلها في مصر جعل لويس التاسع يعمل على توطيد نفوذ الصليبيين في بلاد الشام ، فلو رجع إلى أوربا في ذلك الحين ولا يزال ألوف الأسرى – أكثر من ١٢ ألف أسير في القاهرة أسرى – سوف يكون وضعه حرجًا في الغرب الأوربي ، فارتحل من دمياط إلى عكا واستقبله الصليبيون في بلاد الشام ، نظرًا لأن معظم جيوش الصليبيين في بلاد الشام دمرت عند فارسكور ، في تلك الحملة ، واستقبلوا لويس التاسع وانضموا إليه ، فأخذ يعمل على توطيد نفوذ الصليبيين في بلاد الشام ولو أن الدولة الإسلامية في مصر والشام كانت متحدة لكان من الممكن القضاء على بقايا الوجود الصليبي في بلاد الشام . ولكن سقوط الدولة الأيوبية في مصر

وقيام المماليك منح فرصة البقاء للصليبيين في بلاد الشام . ذلك أن الدولة الأيوبية ظلت باقية في بلاد الشام . ورفض الأيوبيون في الشام الاعتراف بدولة المماليك في مصر واعتبروهم مغتصبين لحق أسيادهم ، فأصبح المماليك في وضع حرج ، يعني أن وضعهم غير شرعي باعتبارهم مماليك وباعتبارهم قتلوا آخر سلاطين الدولة الأيوبية في مصر ، ونهض الأيوبيون في الشام بزعامة الناصر يوسف صاحب حلب ورفضوا هذا الوضع الجديد واعتبروا المماليك مغتصبين لسلطان الأيوبيين في مصر لذلك نجد الناصر يوسف يطلب من الأيوبيين التحالف معه للقضاء على المماليك ، وبالفعل انقادت دمشق طائعة للناصر يوسف واستولى عليها وتحالف معه معظم ملوك الشام من الأيوبيين وبدأوا في مناهضة المماليك في مصر ، على أية حال بعد ذلك حدثت تطورات أدت إلى مقتل المعز إيبك وإلى مقتل شجر الدر ذلك أن شجر الدر سمعت أن المعز إيبك اتصل ببدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل وخطب ابنته ليتزوجها فوجدت شجر الدر في ذلك خيانة لها وهي التي أوصلته إلى الحكم لذلك دبرت مؤامرة راحت ضحيتها المعز إيبك ، عند ذلك غضب المماليك البحرية لمقتل زميلهم وزعيمهم المعز إيبك فهاجموا شجر الدر وقتلوها ورموا جثمانها على مزبلة ، وعند ذلك أصبحوا في وضع حرج جداً فأرادوا أن يضفوا على حكمهم نوع من الشرعية فجاؤوا بطفل صغير من أحفاد السلطان الكامل ويسمى الأشرف مظفر الدين موسى بن يوسف ابن المسعود بن الكامل ، ونصبوه سلطاناً على مصر ونصبوا المظفر قطز باعتباره أتابكًا للعسكر ووصياً على السلطان الصغير ، طبعاً هذا مؤقتاً ، طفل يستطيعون السيطرة عليه ، لكن هذه الحيلة لم تنطل على الأيوبيين في بلاد الشام ، لذلك نجد أن الناصر يوسف صاحب الشام يرسل جيشاً فيه كثير من ملوك الشام إلى مصر وتحدث معركة عند العباسة بين المماليك وبين الأيوبيين في الشام ، وبتلك المعركة انتصر المظفر قطز انتصاراً كبيراً وأسر عدد من ملوك بني أيوب ومنهم الصالح

إسماعيل أبو الخيش ، ذلك الخائن الذي كان قد غدر بالصالح أيوب في أوقات سابقة وسلم الصليبيين ممتلكات المسلمين ، ووقع في الأسر فأخذه المماليك وذبحوه كما تذبح الشاة عند القاهرة لينال جزاء ما اقترفت يداه من خيانة للإسلام والمسلمين ومحالفة للصليبيين ، وهذا الوضع عزز مكانة المماليك في مصر في ذلك الحين ونجحوا إلى حد بعيد في توطيد نفوذهم .

استمر النزاع بعد ذلك بين الأيوبيين والمماليك وحاول لويس التاسع التدخل في ذلك النزاع لمصلحته إلا أنه لم يستطع أن ينغمس فيه إلى حد بعيد بسبب أنه كان لا يزال لدى المماليك أكثر من ١٢ ألف أسير ، فكان يعمل على إطلاق سراحهم ، وفي نهاية المطاف تدخلت الخلافة العباسية خاصة وقد أخذت تشعر بخطر المغول من الشرق وتمكن مندوب من الخليفة العباسي من إصلاح ذات البين بين المماليك في مصر والأيوبيين في الشام بعد هزيمة الأيوبيين في الشام مرتين على أن يحتفظ المماليك بمصر بل بأجزاء واسعة من فلسطين بينما يظل الناصر يوسف يتولى في بلاد الشام هو ومن معه من ملوك بني أيوب .

في هذا الوقت بالذات حدثت الغزوة الكبرى التي درسناها معًا في مادة المسلمون والمغول ، تلك الحملة التي أرسلها المغول بقيادة هولاكو خان التي جاءت من الشرق والتي وصلت إلى بغداد واستولت على بغداد كما هو معروف عام ٦٥٦ هجرية ، وشارك في تلك الحملة هيثوم الأرمني ملك مملكة أرمينيا الصغرى وأرسل قواته ورافقت المغول ، وفاقت المغول أحيانًا في وحشيتهم ضد المسلمين فنكلت بهم ، فلما وصلت تلك الحملة إلى حدود بلاد الشام انضم هيثوم بقواته وقوات بوهيموند السادس أمير انطاكية الصليبيي وصهره لأنه كان متزوجًا من ابنة هيثوم ودخلت تلك الحملة إلى حلب فأحرق هيثوم بيديه الآثمتين جامع حلب ، ثم تقدمت تلك الحملة بعد رجوع هولاكو إلى منغوليا بسبب موت أخيه وترك جيشًا في الشام بقيادة كتبغا كما هو معروف ، ودخل كتبغا وهو مسيحي نسطوري

ومعه هيثوم وبوهيموند السادس إلى دمشق واستولوا على دمشق وتراءى للناس وكأن حملة صليبية مغولية مشتركة تدخل إلى العاصمة العريقة إلى دمشق حتى أن النصارى من سكان دمشق تظاهروا بشرب الخمر في رمضان من عام ٦٥٨ هجرية وأعلنوا على الملأ وهم يصيحون في الشوارع وهم يشربون الخمر ويقولون : الآن ظهر الدين الصحيح دين المسيح ، في هذا الوقت بالذات يقوم المظفر قطز كما هو معروف وأيضًا الظاهر بيبرس كان قد فر إلى الشام ودخل في نزاعات ، ثم بعد ذلك اتصل بالمظفر قطز وتصالح معه وعاد إليه وحدثت تلك الحملة الكبرى التي قادها المظفر قطز والظاهر بيبرس لتلتقي بالمغول كما هو معروف في ٢٥ رمضان عام ٦٥٨هجرية وتنزل الهزيمة بالمغول في معركة عين جالوت ويسترد المماليك دمشق ويستردون حلب ويكسحون المغول إلى ما وراء نهر الفرات .

هولاكو بعد ذلك لم يتمكن من الانتقام من المماليك ذلك أن سلطنة المماليك آلت بعد المظفر قطز الذي اغتاله الظاهر بيبرس أو قتله لأنه كان يطمع في أن يوليه على بلاد الشام وخاصة حلب فلم يظفر منه بذلك فعمد إلى قتله وتولى السلطنة وأصبح هو سلطان دولة المماليك في بلاد الشام ، الظاهر بيبرس في ذلك الحين أراد ان يكتسب لنفسه صفة الشرعية فأحضر أميراً من بقايا الأسرة العباسية وبايعه خليفة ليتلقى منه التقليد بمصر والشام وأحيا الخلافة العباسية من جديد في القاهرة ، وان كانت تلك الخلافة ظلت باهتة طوال العصر المملوكي حتى ضم السلطان العثماني سليم الأول مصر والشام إلى الدولة العثمانية ، عند ذلك اكتسب الظاهر بيبرس لنفسه الصبغة الشرعية عندما تلقى التقليد من الخليفة العباسي وبدأ في مواجهة الصليبيين والمغول على حد سواء ، وحقق نجاحات عظيمة ، بل يمكن بحق اعتبار الظاهر بيبرس هو البطل الثالث بعد نور الدين وصلاح الدين من أبطال المسلمين الذين واجهوا الحملات الصليبية وأنزلوا

بالصليبيين هزائم متلاحقة .

بدأ السلطان بيبرس الحرب ضد الصليبيين في عام ٦٦١ هجرية / ١٢٦٣ ميلادية ، ثم في عام ٦٦٣ هجرية استولى على مدن مهمة جداً بيد الصليبيين في منطقة فلسطين وهي قيسارية على الساحل ويافا وعتليث التي كان فيها قلعة للداوية تسمى قلعة الحجاج واسترد أرسوف ، وفي السنة التالية ٦٦٤هجرية استولى على صفد وعلى هونين وتبنين والرملة ، وبذلك سيطر على منطقة الجليل بالكامل ، وبدأ يحصر الممتلكات الصليبية في عكا وبعض المناطق الساحلية ، أما ملك الأرمن هيثوم الذي تآمر مع المغول وأرسل أخاه ليتحالف معهم ثم ذهب بنفسه إلى قراقورم ليعقد معاهدة تحالف مع المغول ، وكان من أسباب قيام حملة هولاكو ضد الخلافة العباسية وضد المسلمين ، لم يلبث أن نال جزاء ما اقترفت يداه ، فلما هزم المغول ارتحل إلى بلاد فارس ليقابل هولاكو ويطلب منه مساعدة جديدة عند ذلك أرسل الظاهر بيبرس الجيش المملوكي الكبير ، حوالي أربعين ألف جندي عام ٦٦٤ هجرية / ١٢٦٧ ميلادية ودخل الجيش إلى بلاد الأرمن في منطقة قيليقية التي فيها مدن طرسوس وأضنة والمصيصة وسيس وغيرها وسيس كانت هي عاصمة مملكة أرمينيا الصغرى بقيادة هيثوم فدخل ذلك الجيش المملوكي المسلم إلى بلاد الأرمن وأنزل بالأرمن هزائم ساحقة ودمر مدنهم تدميراً شاملاً وأحرق عاصمتهم مدينة سيس وعاد إلى بلاد الشام ومعه أربعين ألف أسير ، ومئات الآلاف من الماشية والأغنام وغنائم لا حصر لها وكان لهيثوم ابنين قتل أحدهما وأخذ الآخر أسيراً ، وعندما عاد هيثوم إلى بلاده وجدها قاعاً صفصفًا ، عند ذلك أرسل للظاهر بيبرس يعتذر ويتعهد بدفع الجزية ويتوسل أن يطلق سراح ابنه ، فاستجاب الظاهر بيبرس لذلك وأطلق سراح ابنه ، ولكن هيثوم أصيب بصدمة نفسية فترهب وعاش في أحد الأدير وتنازل لابنه الذي أطلق من قبل الظاهر بيبرس عن الحكم ، وبذلك قلّم الظاهر بيبرس أظافر الأرمن ولم يعد

لهم من الطاقة والقدرة ما يمكن به أن يسببوا خطراً كبيراً للمسلمين .

على أية حال في سنة ٦٦٦هجرية قاد الظاهر بيبرس بنفسه جيشاً كبيراً بلغ أكثر من ٦٠ ألفاً واتجه إلى امارة انطاكية الصليبية ، تلك الامارة الكبيرة التي أقيمت في شمال بلاد الشام والتي كانت من أغنى وأبهى الامارات الصليبية وكانت تتميز انطاكية كما قلنا بحصانة شديدة ، فجاء الظاهر بيبرس بنفسه ليقوم بمحاصرة تلك المدينة والاستيلاء عليها ، فقسم جيشه إلى ثلاثة أقسام : قسم جعله يستولي على ميناء السويدية وهو ميناء انطاكية ليمنع وصول أي نجدة أو حملة قادمة من الغرب الصليبي لنجدة انطاكية ، وقسم آخر جعله يحاصر انطاكية من الشمال ليمنع وصول أية نجدة من قبل الأرمن ، ثم قاد هو بنفسه القسم الرئيسي وحاصر مدينة انطاكية ، وكان هذا في رمضان عام ٦٦٦هجرية / ١٢٦٨ ميلادية حيث حاصر انطاكية حصاراً شديداً ، وضرب أبراجها وأسوارها بالمنجنيقات وتمكن المسلمون بالفعل من اقتحام تلك المدينة في ذلك الشهر الكريم ، ويمكن أن نلاحظ أنه منذ عهد الظاهر بيبرس حتى زوال آخر المعاقل الصليبية في بلاد الشام استفاد الظاهر بيبرس واستفاد المسلمون من تجاربهم السابقة مع الصليبيين ، فرأينا التسامح الشديد الذي أبداه السلطان صلاح الدين مع الصليبيين وأبداه أيضاً كثير من ملوك بني أيوب وأيضاً نور الدين ، هنا وجد الظاهر بيبرس أنه لم يعد يجدي التسامح مع أولئك الصليبيين لذلك نجد الجيش الإسلامي المملوكي ينطلق في شوارع انطاكية ويقتل كل من يجده من الصليبيين ولا يبقي على أحد ما عدا الأطفال والنساء الذين أخذوا أسرى ، أما سائر الرجال فجرى قتلهم جميعاً ، وأصبحت المدينة بكاملها غنيمة سائغة للمسلمين بما حوته البيوت والمتاجر والأماكن والجمعيات النصرانية ، فحصل المسلمون على غنائم ضخمة جداً ، يذكر المؤرخون المسلمون المعاصرون أن الغنائم بلغت حداً يفوق التصور لدرجة أنها لم توزع على الجنود بمبالغ مبلغ